

19  
J2  
C

AMERICAN  
UNIVERSITY OF  
BEIRUT





تجليد صالح النقر  
٩٢٩٧٧



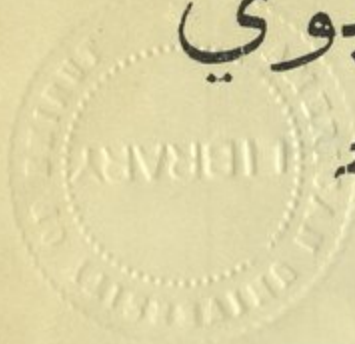




191.9  
J23zA  
C.1

# جون ديوي

حياته وفلسفته



صدية المرفأ  
جامعة بغداد

—————

بـقـلم

الركنور نوري جعفر

١٩٥٨/٠/٢٦

—————

مکتبہ اسلامیہ

کراچی



1954-55

1954-55



## فهرست الموضوعات

—: 0:—

الموضوع	الصفحة
الفصل الاول : نشأته ، ثقافته ومؤلفاته	٢٢-٤
الفصل الثاني : الفلسفة : معناها ووظيفتها	٣٥-٣٢
الفصل الثالث : الفن : صلته بالعلم والفلسفة	٤٩-٣٦
الفصل الرابع : الحرية : معناها ووظيفتها	٧٢-٥٠
الفصل الخامس : التربية : مجالها وفلسفتها	٩٠-٧٣
الفصل السادس : الاشتراكية الديمقراطية	١٠٧-٩١
الفصل السابع : العقل : محتوياته ووظائفه	١٢٦-١٠٨
الفصل الثامن : العقاب : تطوره من الباطية التاريخية	١٤٥-١١٧
الفصل التاسع : العلم : منطقه و اثره في الحياة	١٨٣-١٤٦
الفصل العاشر : منطق العلم والحوادث التاريخية	٢٠١-١٨٤
الفصل الحادي عشر : القلق السياسي : مقدماته ونتائجه	٢٣٨-٢٠٢

## فهرست الاعراب

—:٥:—

العلم	الصفحة
دارون	١١٣، ١٢٤، ٦
اديسون	٦
آينشتين	١٧٠، ١٦٩، ١٦٨، ٩٥٩، ١١٦، ٧
لينين	٧
تروتسكي	٨
برتراند رسل	١٥١، ٤٢٠، ١٩٤، ٩٤، ٨
كازت	٣٢، ٤١٠، ٤٩
لاينز	١٠
كارل ماركس	١٣٨، ٩٤٤، ٩١٠، ٨٥٤، ٥٥٤، ١٦
آدم سميث	٦١، ٤١٦
بنثام	٦١، ٥٨٤، ٣٢، ٤١٦
جون ستورتميل	٦١، ٥٨٤، ٣٢، ٤١٦
وليم جيز	٣٢، ٣١٤، ٣٠٤، ٢٩٤، ٢٥٤، ٢٠
شارلس بيرس	٣٢، ٢٩٤، ٢٨٤، ٢٧٤، ٢٥٤، ٢٠
سدني هوك	٢١

العلم	الصفحة	العلم	الصفحة
تانات	٢٢	تانات	٥١١
افلاطون	٦٣٤٤٧٤٤٠٠٣٩	افلاطون	٥١١
ارسطو	١٣٩٤٤١٤٤٠	ارسطو	٥١١
اقليدس	١٥٣٤٤١٤٤٠	اقليدس	٥١١
فولتير	٦١	فولتير	٥١١
روسو	٦١	روسو	٥١١
مونتيسكو	١٤٠٠١٣٩٤٦٢	مونتيسكو	٥١١
دراك	١٦٦	دراك	٥١١
ماكس بلانك	١٥٦	ماكس بلانك	٥١١
هايزنبرغ	١٦٠٠١٥٩٤١٥٧	هايزنبرغ	٥١١
سقراط	١٤٣٠٦٣	سقراط	٥١١
هيكل	١٣٩٤٦٣	هيكل	٥١١
هتلر	٩١٤٨٥	هتلر	٥١١
فراداي	١٦٧	فراداي	٥١١
ستالين	٨٥	ستالين	٥١١
سانت سيمون	٩٣	سانت سيمون	٥١١
مالميس	١٥٧	مالميس	٥١١
آتلي	١٠٥	آتلي	٥١١
ديما كرتز	١٥٧	ديما كرتز	٥١١
غاليلو	١١٦٤١١٥	غاليلو	٥١١

العالم	الصفحة	الاسم
نيوتن	١٦٩٤١٦٥٤١١٦٤١١٥	نيوتن
لمبروزو	١٣٧٤٠٣٦٤١٣٥٤١٣٤	لمبروزو
اللورد كلفن	١٦٧	اللورد كلفن
فرويد	١٣٦٤١٣٦	فرويد
ابن خلدون	١٣٩	ابن خلدون
توماس مور	١٤٤	توماس مور
تولستوي	١٤٥	تولستوي
لامارك	١٤٦	لامارك
لابوبوفزكي	١٥٣	لابوبوفزكي
ريمان	١٥٣	ريمان
كوبرنيكس	١٥٤	كوبرنيكس
بوهر	١٥٧	بوهر
شرودينجر	١٥٧	شرودينجر
رذرفورد	١٥٧	رذرفورد
	٤٨	
	٦٥	
	٧٥	
	٥٠١	
	٧٤١	
	٥١١٤٣١١	

# فهرست المصطلحات

الصفحة	المصطلح
٨	الزندقة
١١٣، ١٢	نظرية النشوء والارتقاء
٩١، ٩٦، ٨٥، ٨٣، ٤٧٨	الشيوعية
٩١، ٩٦، ٨٥، ٨٣، ٤٧٨	النازية
٩٧، ٩٦، ٨٦، ٨٥، ٨٣، ٤٧٨	الديمقراطية
١٠٠، ٩٩، ٢٩	الوصولية او الانتهازية
٤٦	ما وراء الطبيعة
٢ ٣، ٢٠، ٢١، ٤٢، ٤١، ٥٠، ٨١، ٧٠، ٦٤، ٦٣، ٥٧، ٤٥٥	الفئة الحاكمة
٤ ٢٩١، ٢٩٠، ٢٩٠، ٢٠٩، ٢٠٨، ٢٠٧، ٢٠٦، ٢٠٥، ٢٠٤	
٢٢٠، ٢١٣، ٢١٢	
٨٥	كفاح الطبقات
٢٠٨، ١٠٢	الانقطاع
١٠٧، ١٠٦، ١٠٥، ١٠٤، ١٠٣	الاحزاب
١١٦	Tensor Calculus

المصطلح	الصفحة
العامل الاقتصادي	١٣٩
Geodesic Lines	١٥٤
نظرية السكوا تم	١٦٠، ١٥٦
الذرة	١٦٠، ١٥٩، ١٥٧
Indeterminacy or Uncertainty Principle	١٦٢
الفسية	١٦٩، ١٦٨، ١٦٧، ١٦٦، ١٦٤، ١٦٣، ١٦٢
المتوسط	٢١٢، ٢١١
المتوسط	٢١٢، ٢١١، ٢١٠، ٢٠٩، ٢٠٨، ٢٠٧، ٢٠٦، ٢٠٥، ٢٠٤، ٢٠٣، ٢٠٢، ٢٠١، ٢٠٠، ١٩٩، ١٩٨، ١٩٧، ١٩٦، ١٩٥، ١٩٤، ١٩٣، ١٩٢، ١٩١، ١٩٠، ١٨٩، ١٨٨، ١٨٧، ١٨٦، ١٨٥، ١٨٤، ١٨٣، ١٨٢، ١٨١، ١٨٠، ١٧٩، ١٧٨، ١٧٧، ١٧٦، ١٧٥، ١٧٤، ١٧٣، ١٧٢، ١٧١، ١٧٠، ١٦٩، ١٦٨، ١٦٧، ١٦٦، ١٦٥، ١٦٤، ١٦٣، ١٦٢، ١٦١، ١٦٠، ١٥٩، ١٥٨، ١٥٧، ١٥٦، ١٥٥، ١٥٤، ١٥٣، ١٥٢، ١٥١، ١٥٠، ١٤٩، ١٤٨، ١٤٧، ١٤٦، ١٤٥، ١٤٤، ١٤٣، ١٤٢، ١٤١، ١٤٠، ١٣٩، ١٣٨، ١٣٧، ١٣٦، ١٣٥، ١٣٤، ١٣٣، ١٣٢، ١٣١، ١٣٠، ١٢٩، ١٢٨، ١٢٧، ١٢٦، ١٢٥، ١٢٤، ١٢٣، ١٢٢، ١٢١، ١٢٠، ١١٩، ١١٨، ١١٧، ١١٦، ١١٥، ١١٤، ١١٣، ١١٢، ١١١، ١١٠، ١٠٩، ١٠٨، ١٠٧، ١٠٦، ١٠٥، ١٠٤، ١٠٣، ١٠٢، ١٠١، ١٠٠، ٩٩، ٩٨، ٩٧، ٩٦، ٩٥، ٩٤، ٩٣، ٩٢، ٩١، ٩٠، ٨٩، ٨٨، ٨٧، ٨٦، ٨٥، ٨٤، ٨٣، ٨٢، ٨١، ٨٠، ٧٩، ٧٨، ٧٧، ٧٦، ٧٥، ٧٤، ٧٣، ٧٢، ٧١، ٧٠، ٦٩، ٦٨، ٦٧، ٦٦، ٦٥، ٦٤، ٦٣، ٦٢، ٦١، ٦٠، ٥٩، ٥٨، ٥٧، ٥٦، ٥٥، ٥٤، ٥٣، ٥٢، ٥١، ٥٠، ٤٩، ٤٨، ٤٧، ٤٦، ٤٥، ٤٤، ٤٣، ٤٢، ٤١، ٤٠، ٣٩، ٣٨، ٣٧، ٣٦، ٣٥، ٣٤، ٣٣، ٣٢، ٣١، ٣٠، ٢٩، ٢٨، ٢٧، ٢٦، ٢٥، ٢٤، ٢٣، ٢٢، ٢١، ٢٠، ١٩، ١٨، ١٧، ١٦، ١٥، ١٤، ١٣، ١٢، ١١، ١٠، ٩، ٨، ٧، ٦، ٥، ٤، ٣، ٢، ١
تفاضل	٥٨
تفاضل	٦٠، ٦٨، ٦٤
تفاضل	٦٠، ٦٢، ٦٤، ٦٥، ٦٦، ٦٧، ٦٨
تفاضل	٦٦



## اخطاء والصواب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٨	٢	يضمز	يضمز
٢٦	١٠	الشك اذا خالفت	الشك الا اذا خالفت
٢٦	١٧	توجهه	توجهه
٢٦	١٨	توقعا م. من	توقعا م. من
٢٧	٣	وسنقرأها	استقرأها
٢٨	٥	الاسلامية	غير الاسلامية
٣٠	٤-٣	ان نقول كذلك ان اخفاق	ان نقول باخفاق
٣٠	٦-٥	يضاف الى ذلك	غير
٣٠	٨	فهل ان من	فهل من
٣٠	٨	جانب على جانب	جانب من المقامد على جانب آخر
٣١	١٩	او تفضل	او اثار
٣٢	٢	انضم	انقسم
٣٣	١	جمال	جمال
٢٤	١١	مصدرها	مصدر
٣٧	٨	وينتج	وينتج
٤٤	٢١	ووجود ظواهر	ووجود الظواهر الطبيعية
٤٥	١٦	يستعملونها	يستعملانها
٤٦	٢١	واحق	واقبل
٤٧	١٣	العلم	الفاسفة

الصفحة	السطر	الخطأ	المصواب
٥٦	٤	افراد	فأقول بان افراد
٥٦	٦	وهذا صحيح	صحيح
٥٨	١٤	اختلف مع	اختلف كل جانب مع
٥٨	١٨	بجانبها	مخالفتها
٦٠	١٨	النظام ومبدأ	النظام وانتقاصاً لمبدأ
٦٤	١٧	هي	هو
٧٠	١٥	يجب	يجب
٧٢	١٥	دعوة تحقيق	دعوة الى تحقيق
٧٦	١٨	والاصطدامات	والاصطلاحات
٧٧	١٢	يتخرجون منها	يتخرجون بها
٨٢		سقط بعد السطر ١٢ ما يلي :	يعتقد ديوي بان المجتمع
			الانساني في الوقت الحاضر يتعرض لتأثير فلسفتين اجتماعيتين مختلفتين هما : الفلسفة
			الديمقراطية والديكتاتورية بجانبها (الايمن النازي والايسر الشيوعي) . وان الفلسفة
			الديمقراطية وبظفره تفضل الفلسفة الديكتاتورية .
٨٣	١٧	الاجتماعية في	الاجتماعية الا في
٨٦	١٦	وبالعكس	ولاعكس
٨٩	٨	هي	ها
١٠٠	٤	اليمينية	اليمينية
١٥١	٨	والطريقة	والحقائق
١٥٢	٨	حجمه غير ممزوجة	حجوم ممزوجة
١٦٠	١٢	ومن	وهي



## تقديم

هذه سلسلة مباحث يصل بين حلقاتها وحدة البحث في فلسفة جون ديوي . بدأت البحث فيها منذ أكثر من ثلاثة أعوام ، حتى إذا فضجت قليلاً رأيت أن أتيها في موضوع تيسر مراجعته . وربما عدت إلى تحويرها واستصلاحها مرة أخرى حين يقتضيني البحث ذلك . ولهذا أعدتها مباحث قابلة للتجريح والتعديل على يدي أو يد غيري من رجال التربية وطلابها . وعلى أي حال فاني لا أعدّها إلا محاولة أولى لتحرير هذه المباحث ، تمهد إلى محاولات أرجو أن تكون أعمق وأوفى .

نور محمد

بغداد في ١-٥-١٩٥٤

## الفصل الاول

### نسأته ، ثقافته ومؤلفاته

ولد جون ديوي في مدينة برلنكتن في ولاية فرمونت في الولايات المتحدة يوم ٢-١٠-١٨٥٩ وكان ثالث اربعة من الاولاد لعائلة متواضعة المركز الاجتماعي والاقتصادي . كانت عائلة ابيه تتهن الفلاحة فلم يستطع ابوه بحكم وضعه الاقتصادي ان يحصل على تعليم مدرسي منتظم . فشب ناقص التعليم ، ضعيف الثقافة المدرسية اللهم إلا الحصول على اوليات القراءة والكتابة وبعض المعلومات العامة السطحية التي استطاع ان يكتسبها بوساطة اتصاله الشخصي بالناس . وقد امتهن الفلاحة (كسائر افراد عائلته) على الرغم من مساوتها وضآلة مورده منها . غير انه ترك الفلاحة عند شيخوخته لتساوتها وقلة مورده منها واخذ يتعاطى بيع السكاير . امام جون فكانت تنتمي الى عائلة مرموقة المركز الاجتماعي وذات ثقافة عالية احتل بعض افرادها مراكز مرموقة في الحكومة الامريكية كالقضاء وعضوية مجلس الشيوخ . وكانت امه نفسها على درجة كبيرة من التعليم المدرسي والثقافة العامة فلا غرو اذا ما أصبحت عنصراً قوياً في تكويبه الفكري وتعليمه المدرسي . وقد توفي جون في ٢-٥-١٩٥٢ في مدينة نيويورك على اثر اصابته بمرض ذات الجنب بعد ان عاش اكثر من تسعين عاماً قضى شطراً كبيراً منها في المطالعة والتدريس والتأليف والاسفار .

دخل جون المدرسة الابتدائية ، وكان منطوياً على نفسه خجولاً ، قليل

الاختلاط بزملائه ومدرسيه ، وكان من اضعف الطلاب في دروسه . فاتهم بالبلادة  
 وضعف التفكير . وقد عمل ذلك الاتهام بدوره على تأخره في دروسه الامر  
 الذي افتقده عطف مدرسيه وتشجيعهم وحرمة من احترام زملائه واعجابهم  
 وابتعد عن عائلته توسم الخير في دراسته ومستقبله . ولعل تأخره في دروسه  
 كان راجعاً الى انه كان شديد العزوف عن المطالعة المتصلة بمواد المنهج السائد في  
 عهده وراغباً عن الانظمة المدرسية واساليب التدريس والسكتب المدرسية المقررة  
 الشائعة آنذاك لما فيها جميعاً من قساوة وابتعد عن المؤلف في حياة الاطفال ،  
 وارتاع عن مستوياتهم الفكرية والاجتماعية . ومما زاد في تأخره المدرسي انه  
 كان يصرف قسماً كبيراً من وقته خارج اوقات المدرسة في تعاطي العمل الحر  
 كبيع الجرائد لغرض الانتفاع بما يجنيه من نفع مادي ضئيل في سد حاجاته  
 المدرسية من كتب ولوازم وما شاكها . وقد استمر على هذا المنوال حتى اكمل  
 تحصيله الابتدائي والثانوي . غير انه لم يستطع نظراً لضيق ذات يده ان يلهج  
 بالجامعة التي كان يقتضيه الالتحاق بها ان يتعد عن بلده واعلمه . فاشتغل مملماً  
 في احدى المدارس الابتدائية ، وجمع مبلغاً من المال ساعده على دخول جامعة  
 جون هوبكنز . ومن الطريف نذكر في هذه المناسبة ان جون ديوي اظهر ضعفاً  
 مرئياً في دراسته الجامعية بشكل عام وفي موضوع اختصاصه ( الفلسفة )  
 بشكل خاص الامر الذي اشاع من جديد ( بين معارفه واهله ومدرسيه ) فكرة  
 بالادته وعدم قدرته النظرية على تلقي المعرفة مما جعل مدير الجامعة ان يشير عليه  
 بتترك الدراسة . غير ان اصراره على البقاء والاستمرار قد حدا بالمدير ان يفتح  
 عليه تعيين موضوع اختصاصه على اقل تقدير . ولكنه ابى إلا الاستمرار على  
 التخصص بدراسة الفلسفة فتخرج بجامعة جون هوبكنز بعد جهد كبير مزهداً

بشهادة رسمية والظبايع مضمونه انه « لا يصلح لدراسة الفلسفة أو تدريسها » .  
 ونما تجدر الاشارة اليه في هذه المناسبة ان عبقرية جون ديوي كما ظهرت  
 في مؤلفاته وتدريسه قد برهنت على خطل ذلك الانطباع حيث لم يصبح جون  
 ديوي صالحاً لدراسة الفلسفة وتدريسها حسب بل اصبح من أشهر الفلاسفة  
 والمفكرين في هذا القرن الذي الذي نعيش فيه . وقد انتظمت شهرته معظم ارجاء  
 العالم المتحضر ، واقترن اسمه مع اسماء اعظم الفلاسفة والكتاب القدامى والمحدثين ،  
 وانتشر اتباعه وطلابه والمعجبون به وبفلسفته في كثير من اقطار المعمورة . وعلى  
 هذا الاساس يمكننا ان نقول ان تأخر جون ديوي في المدرسة كما قيس ذلك  
 التأخر بمقاييس اساتذته كان ناتجاً في جوهره عن سوء اساليب التدريس وجود  
 مناهجه لاعن نقص في ذكاء الرجل أو قدرته على استيعاب المعرفة . اننا مع مزيد  
 الاسف كثيراً مانحور على طلابنا فنصمهم بالتقصير أو البلاذة عندما نجدهم يفشلون  
 في ترديد ما يسمعونه من المدرسين من معلومات داخل جدران الصف ناسين أو  
 متناسين ان كثيراً من عوامل هذا التقصير راجعة الى امور اجتماعية - بيئية  
 كعقم اساليب التدريس وجود الادارة المدرسية وسوء التوجيه في المناهج  
 والكتب وعوامل اخرى عائلية - اجتماعية واقتصادية . وفي تاريخ التربية من  
 الامثلة على وجاهة ماذهبنا اليه شيء كثير . فقد اتهم دارون بالبلاذة والغباء  
 ووصف بأنه لا يصلح للاستمرار على الدراسة - غير ان انتاجه العالمي فيما بعد قد  
 فسد ذلك الزعم وبخاصة عندما وضع نظرية الذبوء والارتقاء في اواسط القرن  
 الماضي - تلك النظرية التي احدثت دويماً هائلاً وضجة كبرى في تاريخ الفكر  
 الانساني . وطرد اديسون من المدرسة لابتدائية لغبائه ورسوبه المتتالي في صف  
 واحد . غير انه تحدى ذلك الطرد وتوا به بقدرته الفكرية التي كانت احدى

نتائجها اختراعه للكهرباء الذي يتوقف على طرائق استمها لمصير المدينة الحديثة .  
ووصف البرت آيدشتين بالبلادة والضعف الفكري فبرهن على خطئ ذلك الاتهام  
بوضعه نظريته « النسبية » في مطلع هذا القرن وما تبع ذلك من آثار بعيدة  
المدى وعميقة النور في التفكير العلمي الحديث . وباستطاعة الفارسي ان يتذكر  
عشرات الامثلة من هذا القبيل .

أشغل جون ديوي عدة مناصب تدريسية في كثير من الجامعات - فدرس  
في جامعة ميشيغن وفي جامعة شيكاغو وفي جامعة كولومبيا في مدينة نيويورك .  
كما انه سافر خارج حدود الولايات المتحدة بدعوة من بعض الحكومات لاصلاح  
مناهج التعليم فيها . فزار كثيراً من اقطار امريكا الجنوبية وبخاصة المكسيك  
كما زار قسماً كبيراً من اقطار اوربا وزار تركيا والاتحاد السوفياتي في اوائل حكم  
لنين وزار الصين واليابان . وكان اثناء اقامته في تلك الاقطار يبشر بآرائه التي  
سيأتي شرحها عن طريق المحاضرات والناقشات والمقالات والتقارير التي يقدمها  
الى المسؤولين .

يعتبر جون ديوي من الكتاب الكثيرين وكان يكتب باللغة الانكليزية  
والالمانية والفرنسية وفي مختلف الموضوعات الاجتماعية وفي مقدمتها التربية وعلم  
النفس والسياسة والاجتماع . وقد نشر طوال فترة حياته زهاء سبعمائة مقالة ظهرت  
اولاها وهو في سنة العشرين وكانت آخرها قبيل وفاته ببضعة اسابيع . كما ألف  
ثلاثاً واربعين كتاباً . وما تجدر الاشارة اليه في هذه المناسبة ان الباحث الاجتماعي ،  
سواء أكان متديناً مع جون ديوي في آرائه أم كان يخالفه ، لا يسعه وهو يدرس  
فلسفة هذا الرجل إلا ان يكبر فيه اهتمامه في بحث مشكلات المجتمع السياسية  
والعسكرية والاجتماعية بحثاً مشبعاً بروح العلم ورامياً الى خدمة البشرية . لقد

اعلانا ديوي حرباً شعواء على الذين يتخذون من التراث البشري ، بنوعيه الفكري والمادى ، وسيلة لتقسيم البشر إلى أقسام مختلفة ، يضم بعضها العدا لبعض آخر ، ويحاول بعضها ان يسلب بعضاً آخر حق الحياة والعيش . ودعا إلى ضرورة الاعتناء بالذات البشرية وفسح مجال العمل والعيش والثقافة لجميع الناس بغض النظر عن خلفاتهم الدينية والسياسية والجغرافية ولغاتهم والوان بشراتهم . كما نادى كذلك بضرورة احلال التعاون بين الناس محل التباغض والتباعد ، ونشر الثقة المتبادلة بين الناس لغرض رفع مستوياتهم المادية والفكرية .

تناول جون ديوي فى كتاباته جوانب كثيرة من حياة الفكر والمجتمع وواجه نشاط كل منهما . فكتب فى موضوع الفلسفة ووظيفتها ، وفى العلم : منطقها واثره فى الحياة ، وفى الفن وعلاقته بالعلم والفلسفة ، وفى الاخلاق من حيث مصدرها واهميتها ، وفى التربية : معناها ووظيفتها ، وفى الحرية ومجالها ، وفى العقل من حيث طبيعته ووظائفه .

لقد ساهم جون ديوي بالاضافة الى نشاطه الفكرى فى الاشتراك بكثير من أوجه النشاطة التى يبديها العمال والمعلمون للمطالبة بحقوقهم ورفع اجورهم وتقليل ساعات عملهم . وكان ديوي أحد المؤسسين لنبقابة المعلمين فى الولايات المتحدة . وقد اشترك ديوي فى كثير من اللجان والمؤتمرات الداعية الى نشر حرية الفكر ، فترأس لجنة التحقيق فى قضية تروتسكى المعروفة ، وشارك فى لجنة الرد على اتهامات القضاء الامريكى وبعض الفئات فى قضية برتراند رسل المعروفة التى شغلت الرأي العام الامريكى حيناً من الدهر . وملخصها : ان برتراند رسل عين فى عام ١٩٤٠ استاذاً فى كلية مدينة نيويورك . وبعد تعيينه بعدد من الاسابيع تصدت سيدة واحد رجال الدين فى مدينة نيويورك الى اتهامه بالزندقة والخروج

على مبادئ الدين والاخلاق مستشهدين بفقرات من كتاب وضعه برتراند رسل سنة ١٩٢٩ عنوانه «الزواج والاخلاق». وقد عرض الامر على المحكمة فتمردت الغاء عقد التدريس وعدم السماح لبرتراند رسل بتعاطيه في تلك الكلية الامر الذي اثار كثيراً من رجال الفكر في الولايات المتحدة وفي مقدمتهم جون ديوي فتجدوا قرار المحكمة ومؤيديه ووضعوا كتاباً خاصاً بذلك عنوانه «قضية برتراند رسل». وقبل ان تتصدى للبحث في مؤلفاته يحمل بنا ان نشير هنا الى انه قد حصل لي شرف التعرف شخصياً على جون ديوي اثناء دراستي في الولايات المتحدة بين عامي ١٩٤٥-١٩٤٩. وقد زرتيه مرتين: مرة في داره في مدينة نيويورك ومرة اخرى في مصيفه في احدى قرى ولاية بنسلفانيا حيث اقامت معه زهاء شهر استطعت اثناءه ان اتباحث معه في اسس فلسفته وموقف نقدته منها. وقد هيات لي دراستي في الولايات المتحدة فرصة قراءة جميع مؤلفاته تقريباً واقتناء اكثرها وجلبه معي الى العراق. وقد ساهمت في الاحتفالات الكثيرة التي اقامتها الجامعات الامريكية عام ١٩٤٩ بمناسبة بلوغه عامه التسعين. وكنت منذ رجوعي الى العراق في اواخر العام الآنف الذكر حتى وفاته قبيل زهاء عامين على اتصال وثيق به عن طريق المراسلات، ولدي الآن مجموعة كبيرة من رسائله بخط يده، كما ان لدي بعض التصاوير التي اخذناها معاً اثناء اقامتي عنده في مصيفه في احدى قرى ولاية بنسلفانيا.

.....  
٧ اما اشهر مؤلفاته فهي :١

### 1. The Psychology of Kant

علم النفس بنظر كانت الفيلسوف الالماني ، وضعه ديوي عام ١٨٨٤ ، وهو رسالة الدكتوراه من جامعة جونز هو بكنز .

2. Leibniz : Chicago, S. C. Yriggs and Company, 1888.

وهو كتاب يبحث في فلسفة لايبنز الفيلسوف الالماني ، وضعه ديوي عام ١٨٨٨ ، ويحتوي على زهاء (٣٠٠) صفحة من القطع المتوسط .

3. Applied Psychology : Boston, Educational Publication Company, 1889.

وهو كتاب يتناول البحث في الجوانب التطبيقية لعلم النفس ، الفه عام ١٨٨٩ ، ويحتوي على (٣٣٠) صفحة من القطع المتوسط .

4. Outlines of a Critical Theory of Ethics: Ann Arbor, Register Publication Company, 1891.

وهو كتاب يستعرض المؤلف فيه الشائع من النظريات الاخلاقية ويعلق على كل منها ، الفه عام ١٨٩١ ، ويقع في (٣٦٠) صفحة من القطع المتوسط .

5. The Study of Ethics : Ann Arbor, Register Publication Company, 1884.

وهو كتاب يبحث بشيء من الایجاز في اهم النظريات في علم الاخلاق ، الفه عام ١٨٩٤ ، ويقع في (١٦٠) صفحة من القطع المتوسط .

6. Psychology : New York, Harper, 1894.

وهو كتاب يبحث في علم النفس ، وضعه عام ١٨٩٤ ، ويقع في (٤٢٩) صفحة من القطع المتوسط .

7. The Psychology of Numbers : New York, D. Appleton and Company, 1895.



وهو كتاب يبحث في موضوع الرياضيات من الناحية النفسية الفه عام ١٨٩٥ ،  
ويقع في (٣١٥) صفحة من القطع المتوسط .

8. The School and Society : The University of Chicago Press, 1899.

وهو كتاب يبحث في الصلة بين المدرسة والمجتمع ، وضعه عام ١٨٩٩ ،  
ويتكون من (١٦٤) من القطع المتوسط .

8. The Child and the Curriculum : The University of Chicago Press, 1902.

وهو كتيب يقع في (٤٠) صفحة من القطع الصغير ، ويتناول البحث في  
علاقة منهج التعليم في المدارس الأولية باولاد الأطفال ومستوياتهم الفكرية .

9. Studies in Logical Theory : Chicago, The University of Chicago Press, 1903.

وهو كتاب يبحث في علم المنطق ، الفه عام ١٩٠٣ ، ويقع في (٣٠٠) صفحة  
من القطع المتوسط . وضعه بالاشتراك مع فريق من زملائه .

10. Ethics : New York, Henry Holt and Company, 1908.

وهو كتاب يبحث في علم الاخلاق وضعه بالاشتراك مع زميله الأستاذ جيمز  
تأفت عام ١٩٠٨ ، ويقع في (٥٨٢) صفحة من القطع المتوسط . وقد اعيد طبعه  
منقحاً عام ١٩٣٢ .

11. How We Think : D. C. Heath and Company, 1908.

وهو كتاب يبحث في موضوع التفكير عند الانسان وعلاقته بالتربية والتعليم ،  
الفه عام ١٩٠٨ ، وهو يشتمل على نظرية ديوي في التفكير كما سيأتي شرحها .

12. Moral Principles in Education : Houghton Mifflin Company, 1909.

وهو كتيب يقع في (٦٠) صفحة من القطع الصغير ، وضعه عام ١٩٠٩ ،  
وتناول فيه البحث في صلة الاخلاق بالتربية والتعليم .

13. The Influence of Darwin on Philosophy : New York,  
Henry Holt and Company, 1910.

وهو كتاب يبحث في الآثار التي تركتها نظرية النشوء والارتقاء التي وضعها  
دارون في منتصف القرن الماضي في الفلسفة من حيث طريقتها في البحث ومن  
حيث موضوع بحثها ، وضعه عام ١٩١٠ ، ويقع في حوالي (١٥٠) صفحة من  
القطع المتوسط .

15. Interest and Effort in Education : Houghton  
Mifflin Company, 1913.

وهو كتاب يبحث في ظاهرة الجهد والرغبة التي يبديها الطلاب في دراستهم  
وصلة كل منهما بالآخر ، وقد وضعه عام ١٩١٣ ، وهو يقع في (١٠٢) صفحة  
من القطع الصغير . وقد اعيد طبعه اكثر من عشر مرات مع تعديلات وتنقيحات  
واضافات . وترجم الى عدة لغات .

16. Democracy and Education : The Macmillan, 1915.

الديمقراطية والتربية ، وضعه عام ١٩١٥ واعيد طبعه حوالي اربعين مرة ،  
وقد ترجم الى كثير من اللغات ، ويقع في (٤٣٤) صفحة من القطع المتوسط .

17. Schools of Tomorrow : American Book-Stratford  
Press, 1915.

مدارس الغد ، وهو كتاب يبحث في التربية والتعليم ، وضعه في عام ١٩١٥  
بالاشتراك مع ابنته ايغلين ، ويقع في (٣١٦) صفحة من القطع المتوسط .

18. German Philosophy and Politics : Putnam, 1915.

كتاب يبحث في الفلسفة الالمانية والنظريات السياسية المستندة عليها ، وضعه في عام ١٩١٥ ، ويقع في (١٤٥) صفحة من القطع المتوسط . وقد اعيد طبعه عدة مرات ، وكان اصله مجموعة من المحاضرات القاها جون ديوي في جامعة نورث كارولينا بدعوة من اساتذتها وطلبتها .

19. Essays in Experimental Logic : Chicago, the University of Chicago Press, 1916.

وهو كتاب يبحث في علم المنطق في ضوء التطورات العلمية الحديثة ، وضعه عام ١٩١٦ ، ويقع في حوالي (٢٠٠) صفحة من القطع المتوسط .

20. Reconstruction in Philosophy: Henry Holt and Company, 1920.

وهو كتاب يبحث في موضوع الفلسفة في ضوء العلم الحديث ، ومشكلات المجتمع بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى ، وقد وضعه عام ١٩٢٠ ، ويقع في (٢٢٤) صفحة . وقد اعيد طبعه عدة مرات وترجم الى عدة لغات . وكان اصل وضعه سلسلة من المحاضرات القاها جون ديوي في جامعة طوكيو في اليابان بدعوة من هيئتها التدريسية عام ١٩١٩ . وهو من اعمق كتبه موضوعاً وواضحها فكرة واسلمها اسلوباً .

21. Human Nature and Conduct : Henry Holt and Company, 1922.

وهو كتاب يبحث في طبيعة الانسان ، ويستعرض نظريات الاخلاق المختلفة ، وضعه عام ١٩٢٢ ، ويقع في (٣٣٨) صفحة من القطع المتوسط وقد اعيد طبعه عدة مرات . وكان اصل وضعه مجموعة من المحاضرات القاها جون ديوي على طلبة جامعة ستانفورد في الولايات المتحدة بدعوة من هيئتها التدريسية في عام ١٩١٨ .

22. Experience and Nature: George Allen and Unwin, 1925.

وهو كتاب فلسفي عميق الفكرة ، م.م. قد الاسلوب ، صعب الفهم ، وضعه في عام ١٩٢٥ ، ويقع في (٤٤٣) صفحة من القطع الكبير . وقد اعيد طبعه عدة مرات . وكان في اصله سلسلة من المحاضرات القاها جون ديوي في ذكري الفيلسوف الامريكى بول كروس ، عام ١٩٢٥ .

23. The Public and Its Problems : Henry Holt and Company, 1927.

وهو كتاب يبحث في النظريات السياسية المختلفة من حيث اصل الدولة ونشؤها ووظائفها ومن حيث صلة الحكومة بالشعب ، وضعه عام ١٩٢٧ ، ويقع في (٢٢٤) صفحة من القطع المتوسط . وكان في اول وضعه مجموعة من المحاضرات القاها جون ديوي على طلبة كلية كنيول في ولاية اوهايو في الولايات المتحدة عام ١٩٢٦ . وقد اعيد طبعه عدة مرات .

24. Impressions of Soviet Russia, Mexico, China and Turkey : New Republic 1929.

وهو كتاب يتناول الانطباعات التي احدثتها زيارة جون ديوي في نفسه لكل من روسيا السوفيتية والمكسيك والصين وتركيا بدعوة من حكوماتها لاصلاح مناهج التعليم فيها ، طبع الكتاب عام ١٩٢٩ ، ويقع في (٢٧٠) صفحة .

25. The Source of a Science of Education : Livright Publication, 1929.

وهو كتيب يبحث في الصلة بين بعض العلوم - كعلم النفس والاجتماع - وبين التربية ، ويقع في (٧٧) صفحة ، تم طبعه عام ١٩٢٩ . وكان في اصل وضعه

محاضرة القاها جون ديوي على فريق من المعنيين بشؤون التربية في الولايات المتحدة . وقد أعيد طبعه عدة مرات .

23. The Quest for Certainty : George Allen and Unwin, 1929.

وهو كتاب فلسفي عميق المنكرة ، صعب الفهم ، يستعرض فيه جون ديوي طائفة من المشكلات الفلسفية ويناقشها في ضوء العلم الحديث ، وقد تم طبعه في عام ١٩٢٩ ، ويقع في (٢٩٧) صفحة من القطع الكبير . والكتاب في أصل وضعه سلسلة من المحاضرات القاها جون ديوي بدعوة من اللجنة المشرفة على محاضرات كرفورد المعروفة .

27 Characters and Events : George Allen and Unwin, 1929.

وهو سلسلة مباحث في موضوعات مختلفة يقع في جزئين من القطع المتوسط يحتويان على (٨٦١) صفحة .

28. Individualism Old and New : George Allen and Unwin, 1931.

وهو كتاب يبحث في الجوانب الاقتصادية للمجتمع الحديث ، وصلة الحكومة بالحرية الفردية في مجال الاقتصاد والسياسة . وقد تم طبعه عام ١٩٣١ ، ويقع في (١٦٠) صفحة من القطع المتوسط .

29. The Way Out of Educational Confusion : Cambridge, Harvard University Press, 1931.

وهو كتيب يبحث في ضرورة الاهتمام بنشاط الاطفال في التعليم الابتدائي ، وضعه عام ١٩٣١ ويقع في ٤١ صفحة من القطع الصغير . والكتيب في أصله

محاضرة القاها جون ديوي بدعوة من جامعة هارفرد في موضوع اصلاح التعليم .

30. Philosophy and Civilization : Minton, Balch and Company, 1931.

وهو من كتب جون ديوي الكبرى التي تبحث في موضوع الفلسفة من حيث صلتها بالعلم والمجتمع ، وضعه عام ١٩٣١ ، ويقع في (٣٣٤) صفحة من القطع الكبير .

31. Art and Experience : Minton, Balch and Company, 1934.

وهو كتاب يحتوي على رأي جون ديوي في موضوع الفن واهميته في الحياة ويستعرض عدداً من النظريات المتصلة بالموضوع ، طبع عام ١٩٣٤ ، ويقع في (٣٥٥) صفحة من القطع الكبير ، وهو من أجل كتبه واهمها . وكان في اصل وضعه سلسلة محاضرات في موضوع الفن الفيت في جامعة هارفرد تخليداً لذكرى الفيلسوف الامريكي وليم جيمز عام ١٩٣١ .

32. A Common Faith : Yale University Press, 1934.

وهو كتاب يبحث فيه جون ديوي موضوع الدين وصلته بالعلم والمجتمع ، يقع في (٨٧) صفحة من القطع المتوسط ، وقد تم طبعه عام ١٩٣٤ ، واعيد عدة مرات . وهو في اصله محاضرة القاها جون ديوي في جامعة ييل بدعوة من هيئتها التدريسية تخليداً لذكرى الاستاذ الامريكي المعروف دوايت هارنكوتن تيري .

33. Liberalism and Social Action : Putnam, 1935.

وهو كتاب يبحث في موضوع الحرية وبخاصة جوانبها الاقتصادية في المجتمع الحديث ، ويستعرض نظريات كل من آدم سميث وبنثام وجون ستورتمل وكارل ماركس ويعلق عليها في ضوء التطورات الاجتماعية والعلمية الحديثة ،

وضع الكتاب في عام ١٩٣٥ ، ويقع في (٩٣) صفحة من القطع المتوسط . واصل الكتاب مجموعة من المحاضرات القاها جون ديوي في جامعة فرجينيا بدعوة من هيئتها التدريسية .

34. Experience and Education : Macmillan, 1938.

وهو كتاب يبحث في اهم مشكلات التربية الحديثة بأسلوب مبسط وإشيع من الایجاز غير المحل ، تم طبعه في عام ١٩٣٨ ، ويقع في (١١٦) صفحة من القطع المتوسط .

35. Logic : The Theory of Inquiry : Henry Holt and Company, 1939.

وهو كتاب يبحث في المنطق في ضوء النظريات العلمية الحديثة ، ويعتبر اصعب الكتب التي ألفها جون ديوي . تم تأليفه عام ١٩٣٩ ، ويقع في (٥٤٦) صفحة من القطع الكبير . وقد اعيد طبعه عدة مرات .

36 Freedom and Culture : Putnam, 1939.

وهو كتاب يبحث في الصلة بين الحرية الفردية والتنظيم الاجتماعي ، وضعه عام ١٩٣٩ ، ويقع في (١٧٦) صفحة من القطع الكبير .

37. Theory of Valuation : The University of Chicago Press, 1931.

وهو كتاب يبحث في موضوع الجمال والذوق من الناحية الفنية ، تم تأليفه عام ١٩٣٩ ، ويقع في (٦٧) صفحة من القطع الكبير .

38. Education Today : Putnam, 1940.

وهو سلسلة مباحث تجمع بينها وحدة البحث في موضوع التربية من حيث

اهدافها ووسائلها وادارتها وصلة المدرسة بالمجتمع ، تم طبعه عام ١٩٤٠ ، ويقع في (٣٧٣) صفحة من القطع الكبير .

39. Problems of Men : Philosophical Library, 1946.

وهو سلسلة مباحث تجمع بينها وحدة البحث في صلة الفلسفة بالمجتمع ، وعلاقة الحرية الفردية بالتنظيم الاجتماعي في مختلف المجتمعات مع توضيح لاسس النظام الديمقراطي والتربية الحديثة . تم طبعه عام ١٩٤٦ ، ويقع في (٤٢٤) صفحة من القطع المتوسط .

40. Knowing and the Known : The Beacon Press, 1949.

وهو آخر كتبه ، وضعه بالاشتراك مع زميله آرثر بنتلي ، والكتاب يتناول البحث في كثير من المشكلات الفلسفية والمنطقية ، طبع عام ١٩٤٩ ، ويقع في (٣٣٤) صفحة من القطع الكبير .

ذلك ما يتصل بأهم المؤلفات التي وضعها جون ديوي ، أما الفصول التي كتبها في مؤلفات أخرى بالاشتراك مع مؤلفين آخرين فنذكر أهمها لغرض التمثيل لا الحصر .

١- فصل عن الصلة بين الجوانب النظرية والتطبيقية للتربية ، ظهر في الكتاب الثالث لجمعية دراسة مشكلات التربية دراسة علمية في الولايات المتحدة عام ١٩٠٤ .

٢- فصل عن ضرورة تغيير أسلوب الفلسفة في البحث وموضوعها نشر في كتاب « الفكر المبدع » ، وهو مجموعة من البحوث ساهم بتحريرها فريق من المعنيين بشؤون الفلسفة في الولايات المتحدة وقد تم طبعه عام ١٩١٧ .

٣- فصل عن أثر الفن في التربية ، نشر في الكتاب المسمى « الفن في التربية » والذي ساهم بتحريره عدد من المعنيين بموضوع الفن وصلته بالتربية وقد تم طبعه في عام ١٩٢٩ .



- ٤- فصل عن تكويته الفلسفي من الناحية التاريخية نشره في المجلد الثاني من الكتاب الموسوم « الفلسفة الامريكية المعاصرة » الذي تم طبعه في عام ١٩٣٠ . وساهم في وضعه رجال الفكر الفلسفي في الولايات المتحدة .
- ٥- فصل عن فلسفة التربية في الكتاب الذي عنوانه « الحدود التربوية » الذي تم طبعه عام ١٩٣٣ بالاشتراك مع طائفة من كبار المرين الامريكيين .
- ٦- فصل عن اثر الزمن في الفكر الانساني ، ظهر في الكتاب الموسوم بـ « الزمن » الذي تم طبعه في عام ١٩٣٦ وساهم في انتاجه عدد من الاساتذة .
- ٧- فصل عن منزلة المعلم في المجتمع ، نشر في الكتاب المسمى « المعلم والمجتمع » الذي ظهر عام ١٩٣٧ ، وساهم في تحريره عدد من المرين الامريكيين .
- ٨- فصل عن مهنة التعليم ، نشر في الكتاب المسمى « مهنتي » الذي صدر في عام ١٩٣٨ والذي ساهم فيه عدد كبير من رجال الفكر والمال الامريكيين كل في موضوع اختصاصه .
- ٩- فصل عن اهمية التربية في المعرفة الانسانية ، نشر في الكتاب الذي اصدرته طائفة من الفلاسفة المعاصرين في الدعوة الى توحيد المعرفة الانسانية ، تم طبعه عام ١٩٣٨ .
- ١٠- فصل عن العلاقة بين الفلاسفة الدهريين والجوانب الروحية للمجتمع ، ظهر في الكتاب الموسوم بـ « الفلسفة الطبيعية والروح الانساني » الذي تم طبعه عام ١٩٤٠ بالاشتراك مع نخبة من المعنيين بشؤون الفلسفة في الولايات المتحدة .
- ١١- فصل عن تحيز المحكمة في قضية برتراند رسل التي مر ذكرها ، نشر

في كتاب عنوانه « قضية برتراند رسل » سساهم فيه عدد من رجال الفكر  
الامريكي ، وتم طبعه عام ١٩٤٠ .

.....

اما هم ما كتب عن جون ديوي في اللغة الانكليزية فهو ما يلي :

1. A. W. Moore, Pragmatism and Its Critics, the Univer-  
sity of Chicogo Press, 1910.

وهو كتاب وضعه الاستاذ مور للبحث في فلسفة جون ديوي ووليم جيمز  
وشاراس بيرس والرد على نقدها ، ويقع في (٢٨٣) صفحة من القطع المتوسط ،  
طبع عام ١٩١٠ .

2. Essays in Honor of John Dewey : New York : Henry  
Holt and Company, 1929.

وهو مجموعة من المقالات بقلم طائفة من رجال الفكر الامريكي تبحث كل  
منها في ناحية من نواحي فلسفة جون ديوي . وقد قدم الكتاب اليه هدية بمناسبة  
بلوغه عامه السبعين .

3. John Dewey : The Man and His Philosophy, Harvard  
University Press, 1930.

وهو مجموعة من المحاضرات التي في الحفلات التي اقيمت في الولايات المتحدة  
بمناسبة بلوغ ديوي عامه السبعين وقد سساهم فيها نخبة من زملائه وطلابه ،  
طبعت في عام ١٩٣٠ ، وتقع في (١٨١) صفحة من القطع المتوسط .

4. Mayhew and Eduards, The Dewey School : D. Apple-  
ton-Century Company, 1936.

وهو كتاب يستعرض تاريخ المدرسة النموذجية التي انشأها جون ديوي عندما

كان يدرس في جامعة شيكاغو في اوائل القرن الحاضر ، طبع عام ١٩٣٦ ، ويقع في (٤٨٥) صفحة من القطع المتوسط .

5. Sidney Hook, John Dewey : John Day, 1939.

وهو كتاب وضعه الاستاذ هووك عن جون ديوي وفلسفته في عام ١٩٣٩ عند بلوغه عامه الثمانين ، طبع في عام ١٩٣٩ ، ويقع في (٢٤٢) صفحة من القطع المتوسط .

6. The Philosophy of John Dewey, Schilpp, editor : The Library of Living Philosophers, George Banta Publishing Company, 1939.

وهو مجلد ضخيم يحوي طائفة من المقالات بقلم جمهرة من فطاحل الفكر في العالم الانكوسكوني في الوقت الحاضر، تناول كل منهم ناحية من نواحي فلسفة جون ديوي وشرحها وعلق عليها . وفي آخره تعليق لجون ديوي على تلك المقالات ، طبع في عام ١٩٣٩ ، ويقع في (٧٠٨) صفحات من القطع الكبير .

7. The Philosopher of the Common Man : Putnam, 1940.

وهو كتاب يشتمل على طائفة من المقالات التي حررها قسم من اصدقاء جون ديوي وزملائه وطلابه بمناسبة بلوغه عامه الثمانين ، ويقع الكتاب في (٢٢٨) صفحة من القطع المتوسط ، وقد تم طبعة في عام ١٩٤٠ .

8. M. G. White, The Origin of Dewey's Instrumentalism : Columbia University Press, 1943.

وهو كتاب يبحث في المنابع التي استقى منها جون ديوي اسس فلسفته ، طبع في عام ١٩٤٣ ، ويقع في (١٦١) صفحة من القطع المتوسط .

9. Sidney Hook, editor, John Dewey : The Dial Press, 1950.

وهي سلسلة من الباحث جمعت بينها وحدة البحث في فلسفة جون ديوي من

جوانبها المختلفة، كتبها عدد من رجال الفكر الأمريكي تفكيراً لجون ديوي بمناسبة بلوغه عامه التسعين، وتم طبعها في عام ١٩٥٠، ويقع في (٣٨٣) صفحة.

10. Buswell, I. The Philosophies of J. R. Tennant and John Dewey: Philosophical Library, 1950.

وهو كتاب يبحث في الموازنة بين فلسفتي جون ديوي وتانت من جوانبها المختلفة، تم طبعه عام ١٩٥٠، ويقع في (٥١٦) صفحة من القطع المتوسط.

11. I. Nathanson, John Dewey: Twentieth Century Library, 1951.

وهو كتاب يبحث في حياة جون ديوي وجوانب تفكيره الاجتماعي، تم طبعه في عام ١٩٥١، ويقع في (١٢٧) صفحة من القطع المتوسط.

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا الصدد ان «جمعية جون ديوي» التي تشكلت في الولايات المتحدة قبل اربع عشرة سنة، والتي تضم طائفة من تلامذة جون ديوي وزملائه، تصدر في كل عام كتاباً سنوياً يبحث في مشكلات التربية في المجتمع الأمريكي في ذلك العام في ضوء فلسفة جون ديوي.

(١٢٢)



S. M. G. White, The Origin of Dewey's Humanism

Columbia University

1951

1951

1951

1951

1951

1951

1951

1951

## الفصل الثاني

### الفلسفة : معناها ووظيفتها

يجمل بنا قبل ان نتصدى للبحث فى رأى جون ديوي فى الفلسفة ان نشير هنا الى المعنى المتداول للفلسفة بشكل عام من جهة والى جذور الفلسفة التى اعتنقها جون ديوي من جهة ثانية .

الفلسفة عند العرب ، كما تحدثنا معاجم اللغة تعني الحكمة ، وهى من الدخيل . ويلوح انها دخلت العربية فى العهد الاموي ، واكتسبت الشبوع والاهمية فى العصر العباسي نظراً لانتشار الفلسفة اليونانية آنذاك . واذا كانت الفلسفة عند العرب تعني الحكمة فما هي الحكمة ياترى ؟ جاء فى مختار الصحاح « ان ذا الحكمة يسمى حكيماً ، وان الحكيم هو العالم المتقن الامور » . ويقول صاحب لسان العرب « والحكمة عبارة عن معرفة افضل الاشياء بافضل العلوم . ويقال لمن يحسن دقائق الصناعات ويتقنها حكيماً .... والحكمة العدل .... واحكم الامر اتقنه ، واحكمته التجارب صيرته حكيماً .... اما احكم الرجل الشيء فعنى ذلك انه مذمه من الفساد » . وجاء فى تاج العروس من جواهر القاموس « الحكمة العدل فى النضاء .... والحكمة العلم بمقائق الاشياء على ما هي عليه والتمهل بمقتضاها .... وقيل الحكمة اصابة الحق بالعلم والعمل » . اما كلمة Philosophy باللغة الانكليزية فمشتقة من كلمة يونانية ذات مقطعين هما Philien بمعنى حب ، و Sophia بمعنى

حكمة . والحكمة باللغة الانكليزية تعني ، كما يحدثنا قاموس وبستر « القدرة على اصدار الحكم الصحيح على قيمة الشيء ، والسلوك المزن المعقول في جميع المواقف ، ومعرفة الاشياء معرفة دقيقة وعميقة » .

لقد انقسم المشتغلون في موضوع الفلسفة الى فرق كثيرة يختلف بعضها عن بعض في كثير من الاسس الفلسفية ، ويلتقي بعضها ببعض في بعض الاسس ويختلف عنه في التفاصيل . وباستطاعتنا لغرض تسهيل دراسة الموضوع من الناحية النظرية ، ان نصنف الفلسفات المختلفة الى مجموعتين شريطة ان نأخذ بنظر الاعتبار الفروض الاساس أو المسلمات العامة التي تستند كل فلسفة عليها بعض النظر عن تفاصيل ذلك وتفرداته . واقصد بالفروض الاساس أو المسلمات العامة ما ينطوي عليه الفيلسوف من عقائد لا تقبل عنده الشك أو الجدل . هاتان المجموعتان هما :

(١) الفلسفات الروحية أو الفكرية التي تؤمن بالروح وخلودها ، وتعتبر المادة مظهراً من مظاهر الروح أو الفكر الذي هو اسبق منها في الوجود والاهمية ، وتؤمن بان فوق هذا الكون الذي نعيش فيه قوة عليا عاقلة وعادلة خلقتهم وتصرف اموره في منتهى الدقة والنظام والعدالة . (٢) الفلسفات الطبيعية أو المادية أو الدهرية التي تؤمن بالطبيعة كما تبدو لمدارك الانسان ، وتعتبر الكون محايداً من ناحية الخير والشر ، وان الخير والشر معنيان اجتماعيان نسبيا يتخلفان باختلاف الزمان والمكان ، والمجموعة الاولى اقرب الى الاديان السماوية في تفسيرها للكون وطبائع الاشياء على حين ان الثانية تجنح الى التسليم بما توصل اليه العلم من آراء في الخليفة والمجتمع والانسان .

والفلسفة التي يعتنقها جون ديوي تقع ضمن فلسفات المجموعة الثانية ، وهي

فلسفة حديثة نشأت في اوليات المتحدة في اواخر القرن الماضي ، واشهر رجالها شارلس بيرس<sup>(١)</sup> ووليم جيمز<sup>(٢)</sup> وجون ديوي . يقول بيرس ان الانسان جزء من الطبيعة بما فيها من كائنات حية وجمادة ، وانه يؤثر فيها ويتأثر بها بصورة مستمرة ، ويصدر الانسان باستمرار احكاماً معينة ( بغض النظر عن نوعها أو اختلافها احياناً باختلاف الزمان والمكان ) على جميع مكونات الطبيعة من اشخاص أو اشياء أو حوادث . وتكون تلك الاحكام تارة لها وطوراً عليها . فيصنفها مثلاً بالخير أو الشر ، بالجمال أو القبح ، بالانصياع أو التمرد ، وما شاكل ذلك مما نستطيع ان نسمي منه الكثير . وان تلك الاحكام مشتقة في حقيقتها كما يقول بيرس من سلوك الاشخاص أو الاشياء أو الحوادث التي تتسكون الطبيعة منها ، كما يبدو ذلك السلوك للانسان الذي يصدر تلك الاحكام ثم يتخذ الانسان ، على رأي بيرس ، من ذلك كله وسيلة لتصنيف تلك الكائنات الحية والجمادة الى اصناف حسب تماثل صنفيها وتآرب مظاهر سلوكها فالانسان اذن ( والمقصود بالانسان هنا النوع الانساني ) على رأي بيرس يستدل على طبائع

---

(١) شارلس بيرس (١٨٣٩-١٩١٤) من اشهر الرياضيين وعلماء المنطق الاسريكيين درس الفلسفة في جامعة هارفرد ، وعلم المنطق في جامعة جون هوبكنز ، طبع آثاره الفلسفية بعد وفاته في عدة مجلدات . كانت باكورة نتاجه افكري مقالة نشرها في احدى المجلات عام ١٨٧٨ عنوانها « كيف نجعل آراءنا واضحة ؟ » بحث فيها الفرق بين اسلوبين في التعبير : اسلوب واضح ، واسلوب مرتبك أو غامض أو مشوش . يجعل الأول الفكرة العبر عنها واضحة ، على حين ان الثاني يجاها مرتبكه أو غامضة أو مشوشة .

(٢) وليم جيمز (١٨١٢-١٩١٠) من مشاهير علماء النفس والفلسفة المحدثين ، اشتغل في تدريس الفلسفة وعلم النفس في امهات الجامعات الاسريكية . ترك عدداً من المؤلفات القيمة في علم النفس والفلسفة ، اشهرها « اصول علم النفس » وضه عام ١٨٩٠ ، و« الفلسفة العملية » وضه عام ١٩٠٧ .

مافي الطبيعة من حوادث وحيوانات ونباتات وجمادات بوساطة ملاحظته لسلوكها .  
وقد توصل الانسان (اي الجنس البشري) بعد ان مر بمراحل تطورية طويلة  
(من النواحي الجسمية والفكرية والاجتماعية) الى تصنيف ماتألف الطبيعة منه  
كل حسب خصائصه وانماط سلوكه ، فاتخذ من سلوك الاشياء في الماضي (كابدأ  
ذلك السلوك له) وسيلة للتنبؤ بسلوكها في الحاضر والمستقبل . واعتاد بمرور الزمن  
ان يتوقع من كل شيء في الطبيعة (استطاع ان يكشف عن سلوكه في الماضي  
بشكل مباشر أو بصورة غير مباشرة كأن يستدل عليه من اشياء مألوفة لديه )  
ان يسلك سلوكاً خاصاً ضمن اطار معين لايجيد عنه . وتسير الحياة الانسانية بهذه  
الطريقة كما يزعم يرس بسهولة ويسر حيث تصبح جميع تصرفاتنا تقريباً مبنية على  
سلسلة من الفروض والمسلمات والتوقعات التي لايتسرب اليها الشك اذا خالفت  
ماتوقعناه منها . فانت تترك بيتك مثلاً متوجهاً الى زيارة أحد اصدقائك بداره  
مسالماً تسليماً جازماً بان الشارع الذي يصلك اليه موجود . بصورة سليمة ، وان  
دار صديقك موجودة في محلها ، وانه بانتظارك اذا كنت معه على سابق ميعاد  
الحج ... فاذا حاذ الشيء عن تحقيق ما هو متوقع منه (كانغمار الطريق الذي يصلك  
الى دار صديقك بلماء ، أو خروجه من الدار لامر طارىء ، أو انتقاله الى دار  
اخرى) تسرب الشك الى فكرة الانسان عن ذلك الشيء وتحم عليه ان يمد  
النظر فيها لغرض تمييز سلوكه ، لان السلوك يستند على الافكار التي تتوجه . والفرق  
بين سلوك الافراد ناتج عن الفرق في توقعاتهم من مظاهر سلوك الاشياء التي تتصل  
بسلوكهم في تلك اللحظة . فالشخص الذي يمتنع عن وضع يده في النار يفعل ذلك  
تجنباً لاحتراقها لانه يتوقع من النار ان تحرق يده اذا وضعت فيها . على حين ان  
من يضع يده في النار لانغرض احراقها وانما ظناً منه بان النار تلك لا تحرقه



لسبب ما ، فإذا احترقت يده كان ذلك نتيجة خطأ وقع في توقعه ، وهكذا دواليك .  
ولتوضيح ذلك دعنا نضرب مثلاً آخر فنقول : ان الكيميائي يدعو غازاً معيناً  
بالاو كسجين . وفق خصائص معروفة وسنقرأها بصورة مباشرة أو بصورة غير  
مباشرة من سلوكه . فإذا جرى له بغاز قيل له انه او كسجين فانه يتوقع منه ان  
يساعد على الاشتعال ، وان يتحد مع الهيدروجين بنسب معينة وتحت شروط  
خاصة لتكوين الماء ، وان لا يتفاعل مع بعض الغازات ، وان تكون له خصائص  
اخرى كيميائية وفيزيائية معروفة تميزه عن غيره . وللتسليم ، من الناحية العلمية ،  
ان الغاز موضوع البحث او كسجين ، فان الكيميائي يحاول مراقبة سلوكه بواسطة  
وضعه باشكال مختلفة بحيث تتجلى خصائصه ومزاياه . فان دل سلوك الغاز الجديد  
على تحقيق ما توقعه الكيميائي منه ، فهو اذن او كسجين . اما اذا اخذ الكيميائي  
مثلاً مقداراً معيناً منه ووضعه مع مقدار معين من الهيدروجين ، بنسب كيميائية  
معروفة ، وتحت الشروط التي ينبغي ان يتكون الماء فيها ، ولم يتكون الماء (شريطة  
ان يكون الغاز الثاني هيدروجينياً) جاز للكيميائي ان يشك في صحة فكرته عن  
كون ذلك الغاز او كسجيناً . واذا دلت القرائن الاخرى على ان ذلك الغاز ليس  
او كسجيناً اصبح شك الكيميائي معقولاً وقويماً ، وتحتّم عليه ، من الناحية  
السلبية ، ان يغير فكرته عن ذلك الغاز ، وان يبحث ، من الناحية الالجابية ، عن  
اسم الغاز الجديد هذا اذا كانت خصائصه تختلف عن خصائص الغازات الاخرى  
المعروفة . وتتجلى تلك الظواهر بارضح اشكالها في المحاكم ودوائر الشرطة  
والتحقيق في التوصل الى معرفة الجرائم ومسببها .

ويصدق الشيء نفسه كما يقول بيرس على افكارنا الاخرى المتعلقة بالامور  
الدينية والسياسية وما شاكلها . فالتا نتوقع من المسلم مثلاً ان يسلك سلوكاً

خاصاً نستدل ( من ذلك السلوك الذي سبق لنا ان عرفنا اسمه العامة لافي هذا الشخص بالذات وانما في الشخص المسلم اطلاقاً ) على كونه مسلماً وبالتالي عن كون فكرتنا عن اسلامه صحيحة . والمتوقع من المسلم ، من الناحية السلبية ، ان لا يذهب مثلاً الى الكنيسة يوم الاحد لغرض اداء فريضة الصلاة على الطريقة الاسلامية ، وان تكون علاقته بغيره من الناس فيما يتصل بالزواج والطلاق والارث الخ ... موضوعة بشكل معين ، وان يؤدي طفوسه الدينية بشكل خاص ، هذا في حاة ادائه لها .... فاذا ظهر في سلوكه ما لا ينسجم مع ما اعتدنا توقعه من المسلم في الظروف الطبيعية تسرب الشك الى صحة كونه مسلماً . واذا كانت الفرائض الاخرى بجانب الشك في اسلام الرجل تحتم اخراجه في تنمكنا من حضيرة الاسلام ووضعه في حضيرة اخرى . ويمكننا ان نذبح الاسلوب نفسه فيما يتصل بالافكار السياسية كالشيوعية والديمقراطية والنازية وما شاكلها . ومما تجدر الاشارة اليه في هذا الصدد انه ينبغي للقاريء ان يميز بين قولنا «صحة كون الشخص مسلماً» و «صحة العقيدة الاسلامية» ذلك لان اهتمام بيرس كان منصباً على البحث في محتويات القول الاول ، ولا صلة له بالقول الثاني اطلاقاً .

يتضح مما ذكرنا ان فلسفة شارلس بيرس تنصب على المبدأ القائل بان طبائع الاشياء تتراعى عن طريق مراقبة مظاهر سلوكها وانما تصرفاتها . وقد ادى هذا القول بدوره الى استنتاج مبدأ آخر منبثق عنه ومستند في اسمه الى جوهر فلسفة بيرس كما شرحناها ، وان لم يكن بيرس نقله قد حرره تحريراً واضحاً وصرحاً ، بل هو امر يبدو للباحث بأنه موجود ضمناً في روح فلسفة بيرس ، مفاده ان قيمة كل شيء تقاس بنتائج التي تقررها تصرفاته في الاوضاع المختلفة . وبما ان بحث بيرس لم يكن ، كما رأينا ، متعلقاً بالقوانين الاخلاقية والشسرايع

الاجتماعية والعقائد الدينية والسياسية ، فلم يحدث رأيه ضجة في صفوف الفلاسفة والمشرعين كما فعل رأي جيمز الذي سذشير اليه في الفقرات القابلة ذلك لان وليم جيمز قد جعل مركز الثقل في تفكيره الفلسفي هو البحث في عقائد الناس من جميع نواحيها فذكر ان قيمة فعل الانسان (سلوكه) تقاس بنتائجها ، وبما ان افعال الانسان ، درافها ونتائجها ، تدخل عادة في بحث علم الاخلاق فقد اثار رأي وليم جيمز ضجة كبرى في صفوف الفلاسفة والمشرعين المحدثين . وقد تطور الجدل في هذه التلمطة فدخل موضوع الوسائل والغايات . وفسر رأي وليم جيمز ، كما سنرى ، بأنه يتضمن الدعوة الى الوصلية أو الانتهازية - الوسائل تبررها الغايات . وقبل ان نبحث في موضوع الوسائل والغايات دعنا نتطرق الى جوهر فلسفة وليم جيمز .

بدأ وليم جيمز حيث انتهى برس ، بفحص صحة المعتقدات نفسها ، دينية وسياسية فتمال ان صحة المعتقدات جميعاً في مجالات الحياة جميعها - عدا العلوم المخبرية والرياضيات بالطبع - تتوقف على مقدار مانستهيره من شعور بالقناعة والطمأنينة لدى الشخص الذي يمتتها من جهة ، وعلى مدى ايمانه بها ايماناً لا يتسرب اليه الشك من جهة ثانية ، وعلى سيره في سلوكه وفق مستلزماتها من الناحيتين السلبية والايجابية من جهة ثالثة . فاذا كان زيد من الناس مثلاً مؤمناً بعقيدة ما ايماناً مطلقاً ، ومرتاحاً لتلك العقيدة من الوجهة التمسية ، وجاعلاً سلوكه يسير بحسب مقتضاها ، فذلك كله دليل على صحة العقيدة من وجهة نظره . ان هذا الرأي يستلزم ، دون شك ، تعدد العقائد من جهة ، واتتماء المناصلة بينها من جهة اخرى . ووليم جيمز شاعر بذلك وراغب فيه . وربما كان احد اسباب ذلك ان وليم جيمز عاش في الولايات المتحدة في فترة كان فيها الخلاف

الديني بين الفرق المسيحية على أشده عنفاً ، الامر الذي حرك النوازع الانسانية والوطنية عنده فدفعه الى بث الدعوة لانساهل واحلال الوئام محل الخصام في علاقات الناس . واذا نظرنا للامر من زاوية اخرى امكنا ان نقول كذلك ان اخفاق وليم جيمز ، على ما يبدو ، في الاهتداء الى ايجاد مقياس علمي ، ثابت ومرتق عليه ، تقاس وفق مستلزمات صحة تلك العقائد بالنسبة لبعضها . يضاف الى ذلك ان وليم جيمز البارع في معرفة دخائل النفس الانسانية كان قد توصل الى الاعتقاد باستحالة اقناع الناس في عهده على نبذ معتقداتهم بسهولة ويسر . واذا كان الامر كذلك فهل ان من الانصاف والعدالة ايثار جانب على جانب ؟ وتتجلى عدم وجاهة مثل هذا الايثار اذا كان مستنداً على جوانب عاطفية .

يقول وليم جيمز في معرض التدليل على صحة رأيه : ان الناس مختلفون كثيراً فيما بينهم في قوائم الفكرية والجسمية ، وفي اختيارهم للاطعمة والملابس ودور السكنى وما شا كل ذلك حيث تلعب اذواقهم وقناعة كل منهم من الناحية العاطفية دوراً فعالاً في ذلك ، فلماذا لانحيز لهم ان يفعلوا ذلك في مجال العقائد والافكار ؟ واذا سلمنا بذلك ، كما يقول وليم جيمز ، جاز لنا ان نشك في وجاهة تفضيل عقيدة على اخرى ، على اساس غير اساس القناعة الشخصية . فكما انه لا يجوز لنا ، من الناحية العلمية ، تفضيل لون معين من اللباس على آخر ، فكذلك ينبغي ان يكون الحال في مجال العقائد والافكار . وحجة جيمز في ذلك هو ان الانسان في العادة يعتد بعقائده ( الدينية بشكل خاص ) في اول الامر على اساس المشاركة العاطفية وحدها . فاذا كانت العاطفة هي الاساس الذي يستند عليه الايمان بالعقيدة ، فلماذا لا تتخذ العاطفة نفسها اساساً لقياس صحة العقيدة ؟ وبهذه الطريقة وحدها يتسنى للناس ، كما يدعي وليم جيمز ، احترام عقائد بعضهم فتتلاشى

محاولة اجبار بعض الناس أو اقناعهم على ترك عقائدهم والايان بمقائد اخرى .  
ان مسألة الائتمال من عميدة الى اخرى يجب ان تترك دائماً للشخص نفسه ، اذا  
اقتنع بذلك من الناحية العاطفية .

واذا نظرنا الى فلسفة وايم جيمز من زاوية اخرى امكنا ان نقول انه قد  
اعتبر الجوانب العاطفية اساساً لصحة العقائد وبالتالي مبرراً للتصرفات والاعمال  
المبذمة عنها . وهذا يعني ان تصرفات الانسان هي التي تقرر نوع العقائد التي  
يحملها ، واننا عن طريق تلك التصرفات نستطيع ان نحكم على ما يحمله الانسان في  
نفسه من عقائد وآراء . وبما ان تلك العقائد ، كما سلف ان ذكرنا ، تستند الى  
الشعور بالاطمئنان عند الشخص من الناحية العاطفية ، وهذا يختلف باختلاف  
الاشخاص ، فقد فسر قول جيمز هذا كأنه يتضمن الدعوة الى ان أي عمل يشبع في  
الانسان جانباً عاطفياً يذمى له ان يذمه بانه وسيلة من الوسائل . وهذا يعني بلغة  
علم الاخلاق ان الوسائل تبررها الغايات . ان وايم جيمز ، كما يلوح لي ، اسمى  
خلاً من ان يدعو الى ذلك أو ان يحبذ ، وان اهتمامه بذلك ناتج عن تشوبه  
لفلسفته ، أو قلة استيعاب لها . ان جل ما يقوله وايم جيمز في هذا الصدد ، كما  
سلف ان ذكرنا ، هو ان الانسان يعتنق عقائده وبخاصة الدينية منها على اساس  
المشاركة العاطفية في ايل الامر على كل حال ، وان مجرد قناعته بها ، من تلك  
الناحية ، دليل على صحتها بالنسبة له . ولما كان الناس مختلفين في عقائدهم ومتباينين  
في آرائهم فلن عميدة كل منهم صحيحة بالنسبة له ، ولا تجوز المناظرة بين العقائد  
أو تفضل بعضها عن بعض . وهذا امر كما لا يخفى لاصلة له اطلاقاً بموضوع  
الوسائل والغايات .

وملأدماً في معرض البحث في موضوع الوسائل والغايات بمقدار صلته

بفلسفة وليم جيمز كما شرحناها. نود ان ننبه القارئ الى ان هذا الموضوع بشكل عام من اطرف موضوعات علم الاخلاق واكثرها تشبهاً . وقد انضم الباحثون فيه الى فرق كثيرة يختلف بعضها عن البعض الآخر . ويمكننا ان نجمل تلك الآراء ، على اختلاف انواعها ، في القول بانها تنقسم ، من حيث الاسس العامة التي تستند اليها ، الى قسمين : (١) مجموعة النظريات التي تعتبر « النية » أو « الغاية » هي الاساس في الافعال أو الاعمال بغض النظر عما يبتججه العمل نفسه من نتائج . فإنا كانت النية حسنة كان ذلك وحده مبرراً للعمل مهما كانت نتيجته - حتى قيل « ان الاعمال أو الافعال بالذات » . ويمتبر كانت (١٧٢٤-١٨٠٤) الفيلسوف الالماني الذائع الصيت الممثل الصحيح لهذه الفرقة من علماء الاخلاق . (٢) مجموعة النظريات التي تدعي بان قيمة الافعال تقاس بنتائجها بغض النظر عن النية التي سبقتها . فلذا كانت النتائج سليمة كانت الافعال سليمة . والافلا . ذلك لانه ، كما يدعي حملة هذا الرأي ، لاسبيل الى معرفة النية اطلاقاً إلا عن طريق نتائج العمل نفسه . ومن ابرز رجال هذا المذهب جري بنثام (١٧٤٨-١٨٣٢) وجون ستورت مل (١٨٠٦-١٨٧٣) الفيلسوفان الانكليزيان المشهوران . ولم يبحث وليم جيمز بشكل واسع وواضح هذه المشكلة الاخلاقية . غير ان جون ديوي قد اولاهما جل اهتمامه وتوصل الى القول بانه لا يمكن اطلاقاً فصل الغايات عن وسائلها ، وان قيمة الافعال تقاس بنية فاعلها وبتائجها كذلك . وان الوسائل النافسة لا يجوز ان تتخذ لتحقيق غايات نبيلة ، وان الوسيلة النبيلة تؤدي حتماً الى تحقيق غاية نبيلة ، وبالعكس .

.....

ذكرنا في الفقرات السابقة رأي كل من شارلس بيرس ووليم جيمز في

موضوع الفلسفة وجمال عمالها - حده الاول منها في ظاهرة التوقع ، واطلقة  
الثاني في موضوع النساهل . وقبل ان نتصدى الى ذكر رأي جون ديوي يحل  
بنا ان نشير هنا الى ان حملة الفلاسفات الروحية بصورة عامة تعتبر الفلسفة وسيلة  
للبحث فيما وراء الطبيعة ، وان القسم الكبير من حملة الفلاسفات المادية في الوقت  
الحاضر على كل حال يزعم بان وظيفة الفلسفة هي المحاولة الفكرية لتفسير الطبيعة  
تفسيراً شاملاً وعميقاً شريفة ان يستمد ذلك التفسير مقوماته من العلم الحديث  
بفروعه المختلفة .

يقول ديوي في معرض الرد على اصحاب الفلاسفات الروحية ان البحث فيما  
وراء الطبيعة ، حتى في حالة كونه ممكناً وهو ليس كذلك ، لا فائدة منه . وان  
حصر مهمة الفلسفة في ذلك حسب رأيه هي احد العوامل الرئيسة التي اوصلت  
الفلسفة الى حالتها الراهنة من التأخر والعبث والبعد عن مستلزمات الحياة الامر  
الذي جعل كثيراً من الناس يهتبر الفلسفة وسيلة من وسائل الهروب عن مواجهة  
مشكلات الحياة والمجتمع . ويرى ديوي كذلك ان وظيفة الفلسفة عند جمهرة  
الفلاسفة الطبيعيين امر لا ضرورة له في الوقت الحاضر على اقل تقدير ، ولا يجب ،  
في حالة كونه ضرورياً ، ان يقتصر على الفلسفة وحدها ، ذلك لان كل فرع من  
فروع العلم الحديث باستطاعته ، كما هو حادث فعلاً ، ان يتوسع وان يتعمق في  
البحث في مجال اختصاصه ، وان النظرة العميقة الشاملة للسكون والحياة يذبني ان  
يمهد بها الى فلسفة العلم لا الى الفلسفة اطلاقاً . اما وظيفة الفلسفة كما حددها شارلس  
بيرس فيمكن اعتبارها من وجهة نظر ديوي بداية لتثبيت وظيفة الفلسفة . وان  
الخطوة التي خطاها ويليم جيمز وان كانت طريقة الا انها ليست جريئة ولا علمية ،  
بنظره ، فانه هي اذن وظيفة الفلسفة عند جون ديوي ؟

يمتد ديوي ان وظيفة الفلسفة ( في الوقت الحاضر على اقل تقدير ) هي ان تعالج مشكلات المجتمع معالجة وسيلتها العلم الحديث ( اسلوبه ومخترعانه ) ، وهدفها المصلحة العامة باوسع معانيها . وبما ان مشكلات المجتمع في الوقت الحاضر تختلف عما كانت عليه في الزمن الماضي وجب ان تذبثق فلسفة حديثة تستمد اصولها الفكرية من روح العصر الذي نعيش فيه ، وتأخذ مآزها من طبيعة مشكلاته الفكرية والمادية ، وان يكون هدفها رفع مستوى ابناءه من الناحيتين الفكرية والمادية بغض النظر عن جميع الاعتبارات . والوسيلة المهمة التي ينبغي للفلسفة الحديثة ان تلجأ اليها للتعبير عن نفسها وبحيث يتسنى نقلها من شخص الى شخص ومن مجتمع الى مجتمع ومن جيل الى جيل هي التربية ( التي سوف نتصدى لبحثها في فصل آخر ) . اي ان التربية هي الجانب العملي التطبيقي للفلسفة - اي انها ، كما يقول ديوي ، مختبر الفلسفة ، والفلسفة بدورها مصدرها الاشعاع الذي يمد التربية بالتوجيه الفكري النظري . واذا كان الامر كذلك فلماذا لا نعرف الفلسفة ( كما يتولى ديوي ) بأنها نظرية للتربية باوسع معانيها !! والخطوة الاولى التي ينبغي للفلسفة ان يخطوها لتبيثها اذهان الناس فيما يتصل بمعالجة مشكلاتهم الاجتماعية معالجة سليمة من ناحية الوسيلة والغاية هي توعية الناس ، بوساطة التربية ، على التفاسف - أي التفكير الواسع العميق في قضايا المجتمع والحياة .

ولسكي يصبح التفكير في مشكلات المجتمع سليماً وجب كما سلف ان ذكرنا ان يستند على العلم الحديث من حيث مآزته ومن حيث اسلوبه في البحث ( الذي سوف نتصدى لبحثه في فصل قابل ) . ذلك لان التفكير الخاطيء ( غير العلمي ) يكون كذلك اما لاستزاده الى مادة غير علمية تسوقه الى استنتاج نتائج غير علمية ، لان مقدمات التفكير غير علمية ، أو يكون كذلك لاتباعه اسلوباً غير علمياً ،



فيستنتج استنتاجات مغلوبة من مقدمات لا تؤدي إليها إذا كان أسلوب التفكير سليماً ، أو للعاملين معاً . أي أن خطأ التفكير قد يأتي من المقدمات أو من النتائج المستندة إلى أسلوب خاطئ ، في التفكير ، أو منها معاً . ولكي نضمن سلامة المقدمات ينبغي لنا كما يقول ديوي أن نستمد مادة التفكير من العلوم المختلفة : فستعين لمعرفة طبيعة الكون مثلاً بالفيزياء ، ومعرفة التغيرات الجوية بعلم الجغرافية ، وطبيعة المجتمع والانسان ، بعلم الاجتماع والنفس الخ . . . . . ولضمان سلامة نتائج التفكير يجب أن نجعل أسلوب التفكير سليماً . ومن الطريف أن نذكر في هذه المناسبة أن ديوي يعرف الفلسفة ، فيما يتصل بعلاقتها بالتفكير ( الذي سوف نشرحه في فصل آخر ) بأنها تفكير في التفكير ، أو أنها التفكير المدرك لذاته من ناحية مقدماته ونتائج وأتجاه سيره .



## الفصل الثالث

### الفهم : صلته بالعلم والفلسفة

يبدأ جون ديوي بتحديد الفن فيقول : ليس الفن صورة من الصور ، ولا عميلاً من التماثيل ، ولا قطعة من الموسيقى ، ولا قصيدة من الشعر ، وإنما هو المعنى الذي نحمله تلك الصورة ، ويرمز له ذلك التمثال ، وتعبّر عنه تلك القطعة الموسيقية ، وتتضمنه القصيدة تلك . والفن ، كما هو معروف ، شيء معنوي ، ليس له وجود مادي كوجود المعبرات عنه - وهي الأدوات في الموسيقى ، واللغة في الشعر ، والجلوس أو غيره في التماثيل ، والورق والاصباغ في الرسم . أي ان الفن بمحد ذاته وان كان يدرك عن طريق الحواس ، وينتج عن طريقها بوساطة المادة ، الا انه ليس شيئاً مادياً . فوسائل الفن ( مادته من حيث التعبير ومن حيث الايصال أو النقل أو التسلم ) مادية دون شك . غير ان طبيعته فكرية عاطفية . ونحن نشعر به شعوراً عاطفياً نفسياً ، مع العلم باننا في الوقت نفسه نستمد ذلك الشعور من جوانب ادراكنا الحسي لمظاهر الفن المعبر عنها في اللغة ، أو الموسيقى ، أو الرسم ، أو النحت وما شاكلها .

والمعنى الفني كما هو واضح تمازجه العاطفة بممازجة شديدة وتطغى عليه من حيث الانتاج والتعبير ومن حيث التسلم والتقدير . أي انه ليس من نوع المعاني العقلية ( الخالية من الجوانب العاطفية تقريباً ) التي تعبّر عنها رموز الرياضيات

والعلوم بشكل عام . وعلى هذا الأساس يمكننا ان نقول بصورة عامة بان لكل موضوع يحدث ادراكه ارتياحاً للانسان من الناحية العاطفية يتضمن معنى فنياً . ولا بد لوجود الفن من اركان ثلاثة يلازم بعضها بعضاً ملازمة الظل لذي الظل : هي الانسان ( في حالتي التعبير والتقدير ) من جهة ، وشيء غير الانسان ( وهو الصورة أو النصيدة أو التمثال الخ .. ) من جهة ثانية ، وصلة فنية تصل بينهما . تكون الصلة الفنية جزءاً من الشيء لانها صادرة عنه ، ويكزن الشيء بنفسه جزءاً منها لانها انصت بالانسان وانارت فيه احساساً فنياً يتجاوز الحدود المكانية لذلك الشيء . وينبج الفن عن العلاقة بين الانسان والشيء الفني . فليس الفن اذن موجوداً في عواطف الانسان وحدها ، ولا هو موجود في الشيء الفني الذي يستثيره وحده ، وانما هو موجود فيهما معاً بقدر واحد . فهو موجود في الشيء الفني باعتبار ان ذلك الشيء مصدره ، هذا في حالة التتمير ( اي وجود شيء فني يتمتع برؤيته أو سماعه أو قراءته احد الناس ) . اما في حالة التعبير ( أي اثناء عملية الرسم ، أو العزف ، أو نظم الشعر ) فان عناصره ومكوناته مستمدة دون شك من اشياء قد تكون موجودة بشكل متميز في الطبيعة ، جمها المنان والف بينها ، وخصاؤها بشكل جديد . والفن موجود في الانسان ، من الناحية المجازية ، في حالة تمديده للقطعة الفنية الموجودة باعتباره ( حسب معلوماتنا الحاضرة ) المخلوق الوحيد الذي يستجيب للفن ويتأثر فيه . فالفن اذن شيء موضوعي وذاتي في آن واحد ، ولا بد لحدوثه - كما اسلفنا - من وجود موضوع وذات ووسط يصل بينهما .

يتعمق المشتغلون بموضوع الفن من الناحية التاريخية على تقسيمه الى قسمين : يدعى اولهم بالفن الجميل أو الرفيع ، ويسمى الثاني بالفن الصناعي أو التطبيقي . فالفن الرفيع ، على حد قولهم ، هو ما كانت قيمته ذاتية كاملة في جوهره واهتمامه

بطبيعة تركيبه . وبعبارة أخرى هو كل فن لاعلاقة لقيمه بفائدته ، وإنما تتعلق قيمته في ما يثيره من إعجاب عاطفي منبث من طبيعته ومكوناته . فالقطعة الموسيقية الرائعة والصورة الجميلة والتمثال البديع أمثلة من هذا القبيل . ولا نرى ضرورة ماسة الى ان نتطرق هنا الى البحث في المقاييس التي يستند اليها الحكم على روعة القطعة الموسيقية أو جمال الصورة أو بداعة التمثال . ويكفي هنا ان نشير الى انه على الرغم من وجود بعض المقاييس العامة عند المختصين بتلك الفنون فان للعوامل الذاتية أثراً في ذلك من جهة وان تلك المقاييس مع هذا كثيراً ما تختلف باختلاف الزمان والمكان .

اما الفن التطبيقي فهو كل فن ترتبط قيمته الذاتية بمدى الحاجة اليه . فطهي الطعام مثلاً فن تطبيقي ، وكذا بناء المساكن وخياطة الملابس ، والنجارة والحدادة وغيرها . فطهي الطعام يجهز الانسان بغذاء تتوقف فنيته على مدى قيامه بسد الحاجة اليه . وبناء المساكن يعد اما كن يأوي اليها الانسان ويحفظ فيها امتعته واثائه من التمرض للتلف أو الضياع . غير ان تلك الفنون التطبيقية يمكن ان تتحول الى فنون رفيعة اذا فتمدت فائدتها من الناحية التطبيقية . فالكرسي الصغير الذي لا يصلح للجلوس ، بل يعمل لاجل المتعة يدخل ضمن حدود الفن الجميل أو الرفيع ، وهكذا .

يحدثنا المؤرخون بان فكرة تقسيم الفن الى نوعين (وتقسيمه فعلاً) قد نشأت بين اليونانيين قبل زهاء خمسة وعشرين قرناً . ويقولون بان هذا التقسيم مستمد من طبيعة المجتمع اليوناني آنذاك حيث كان منقسماً الى فئتين : فئة الاحرار وفئة العبيد . ولعل من المناسب ان نشير هنا الى ان الفرق بين الاحرار والعبيد فيما يتعلق بتركيب المجتمع اليوناني لم يكن مبنياً على اختلاف في الوان بشراتهم ،

بل كان منتزعا من انواع مهنتهم ومراكزهم الاجتماعية . فالطبقة الموسرة من ارباب  
النفوذ والجاه وهي اعمدة الحكم كانت تؤلف طبقة الاحرار . على حين ان طبقة  
العبيد كانت مؤلفة من ارباب المهن على اختلاف درجاتها وانواعها . ومما تجدر  
الاشارة اليه في هذا الصدد ان الفن الرفيع بدوره مؤلف من مجموعتين احدهما  
فوق الاخرى في الامة هما : (١) فن السياسة وفن الدين و (٢) الفنون الرفيعة  
الاخرى التي سلف ان ذكرناها . وسبب ذلك راجع الى ان فن السياسة متصل  
بإدارة شؤون الملك وفق مبدأ العدالة المطلقة ، على رأي افلاطون ، وهو شيء  
يتجدى الزمان والمكان ويسمو فوق الطبيعة والانسان ، اما فن الدين فامر متصل  
كما يدعي افلاطون ، بتربية الروح وصقلها مما علق بها من ادران المادة نتيجة  
لاتصالها بالجسد . حيث هبطت اليه من العالم العلوي ، فهي اذن ارقى من الجسد  
الذي تمزداً اليه يد التغيير ويكتنمه التفسخ والانحلال . وما دام فن السياسة ونفن  
الدين ارقى بطبيعتهما من سائر الفنون ارفيعة فان المشتغلين فيهما ارقى من سائر  
الاحرار الذين ينصرفون الى الانشغال فيما تبقى من الفنون الرفيعة ، وهؤلاء  
بدورهم ، كما ذكرنا ، ارقى من العبيد الذين يتعاملون الفنون التطبيقية والمهن المعروفة .  
وقد قسم اليونان التربية الى قسمين : التربية الحرة والتربية المهنية . والتربية  
الحرة ، وهي خاصة بطبقة الاحرار كما لا يخفى ، هي ما تعلقت بتربية النوق دون  
الالتفات الى ما يجنيه صاحبها من فوائد مادية منها . اما التربية المهنية فاهتمامها  
متعلق بتعلم الحرف المعروفة ولا علاقة لها بالذوق . وسبب ذلك ، كما سلف ان  
ذكرنا ، ان الاحرار آنذاك لم يكن لهم عمل سوى التمتع بما ينتجه العبيد من امور  
العيش . لذلك رغبتوا عن العمل الجسمي وترفعوا عن تعاطيه . ولكي يجتهدوا  
ما يستطيحون بوساطته صرف الوقت لجا بمض مفكرتهم الى فتح المدارس وتزويدهم

بالمعرفة التي لاهداف لها سوى الزود من المعرفة ذاتها . ولعل من الطريف ان نذكر في هذه المناسبة بان كلمة « مدرسة » تعني في الامة اليونانية « المحل الذي يصرف المرء فيه وقت فراغه » . ولما كانت المدرسة اليونانية قد اسست ليجد فيها الاحرار من المتع المعنوية ما يقضون فيه وقت فراغهم ( وجل وقتهم كان فراغاً ) اقترح افلاطون وارسطو بان تدخل في مناهج التدريس الفلسفة والدين والرياضيات والمنطق والشعر والموسيقى والرسم والنحت وسائر الفنون الرفيعة . وقد رتبت هذه المواد في منهج الدراسة حسب تسلسلها في الالهمية من الناحية النظرية . ذلك لان المادة المدرسية كلما ابتعدت عن الحياة التي يحياها الناس اصبحت ، بنظرهم ، اقرب الى مزاج طبقة الاحرار . والعكس صحيح كذلك - فلا غرو ان احتلت الفلسفة ( على الشكل الذي كان شائعاً في زمن اليونان - أى التأمل الخيالي فيما وراء الطبيعة ) الصدارة في هذا المضمار ( وهي الاساس الذي يستند اليه فن السياسة ) ، وتلاها الدين فالرياضيات ( وبخاصة هندسة اقليدس ) فالمنطق (منطق ارسطو النظري المجرد) فسائر الفنون الرفيعة المعروفة كالشعر والموسيقى والرسم والنحت وما شاكلها . اما سبب وضع الفنون الرفيعة في آخر القائمة فنتاج عن ان من يتعاطاها يستعين بحواسه ( وهي امور مادية ) من جهة ويتعامل مع المادة المتغيرة : فالرسام مثلاً يستعين بالقلم والورق الخ ... من جهة اخرى ، وعلى هذا الاساس لا تكون التربية حرة بالمعنى المراد ، على رأي افلاطون ، الا اذا تروفت عن حواس الانسان وعن المادة كذلك . ومن جهة تفضيل التربية النظرية على التربية العملية يقول افلاطون ، فيما يتصل بالمهنة ، ان صاحبها يستطيع ان يتقن عملها ولا يستطيع ان يحكم بمدى الفائدة منها أو بضرورتها . فصانع الاحذية مثلاً ، كما يقول افلاطون ، يستطيع بحكم اختصاصه ان يصنع الخذاء الجيد غير

انه ، بحكم اختصاصه كذلك ، لا يستطيع ان يقول فيما اذا كان من الافضل للانسان ان يلبس الخذاء ام لا . ويصدق الشيء ذاته على الطبيب الذي يستطيع بحكم اختصاصه ان يميز بين حالتي الصحة والمرض ، ولكنه لا يستطيع ان يصدر حكماً في انه هل من الافضل للانسان ، ان يظل حياً أو يموت ، وامر المفاضلة بين الاشياء يعود الى المختصين بفن السياسة وحدهم .

اما طبقة العبيد فتمد اوجدها افلاطون وارسطو ماسمياها بالتدريب المهني - أي التعليم المختص بالمهن المختلفة من زراعة وصناعة . ولما كان هذا النوع من التدريب مبنياً على استعمال الحواس من جهة وعلى المادة المتغيرة ( مثل الخشب والارض والحديد وما شاكلها ) من جهة ثانية لم يكن ضرورياً ، بنظر افلاطون وارسطو ، نقله من شخص الى شخص عن طريق التعليم النظري المدرسي ، بل يتم تعليمه عن طريق الاشتراك في العمل خارج جدران المدرسة . فمن يريد ان يصبح نجاراً في المستقبل عليه ان يشتغل مع نجار حاذق ليكتسب منه التجارة . ويصدق الشيء نفسه على الحدادة والزراعة والمهن الاخرى .

يتضح مما ذكرنا ان الواجب الاساس لطبقة العبيد كان القيام بجميع الاعمال التي تتطلب جهداً جسمياً - وهي تشمل سائر المهن التي يتوقف عليها استمرار الحياة بمعناها المادي . على حين ان العكس هو الذي كان شائعاً بين الاحرار . وبما ان الشقة بعيدة البون بين مراکز الاحرار والعبيد وبين مهنهم فتمد نشأت ، كما سلف ان ذكرنا ، هوة اخرى لا يقل غورها عمقاً عن زميلتها بين الفن الرفيع والفن الذي يتصل بالحياة التي يحياها الناس ، وقد نتج عن ذلك بمرور الزمن انه كلما ازدادت حياة الخاصة ترفاً ابتعدت عنهم عن الحياة واصبح رفيعاً بالمعنى المراد . وكلما كندحت العامة بعدت عن الفن الرفيع وانحطت الى عالم قريب من عالم غير الانسان . فالتقسام

الفن الى رفيع وغير رفيع وان كان انعكاساً عن المجتمع اليوناني القديم قد عمل بدوره ، كما يقول جون ديوي ، على زيادة الشقة بين ابناء الامة الواحدة ابعد بعضهم عما تتطلبه الحياة اليومية من اعمال واورثهم الفرقة والسكل وطوح بالبعض الآخر حتى كاد ان يفقده الذوق السليم . وقد اخذ ايمان الناس بسلامة تقسيم الفن الى نوعين في الازدياد على مر الايام . فالحركة التي ظهرت حديثاً في اوربا وفي الولايات المتحدة ، والتي دعت الى طلب الفن لذاته كانت في بعض مظاهرها صدى لهذا التقسيم . هذا الى انه من جهة اخري يمكن ان يقال عن تلك الحركة بانها رد فعل لحياة مادية ميكانيكية تقلص فيها الميل للجمال والفن وذوى حب الناس لاخير وانصب اهتمامهم على طلب المادة بمعناها الضيق .

ان الحياة المادية تجرد الفن عن وظائفه الاجتماعية وتسلبه مسؤوليته الادبية ذلك لانها حياة شغلتها المسؤولية بمعناها المادي عن تلمس مواطن الجمال في الحياة . ولهذا فان بعض الناس ، كما يقول ديوي ، بعد ان ضاقوا بالحياة المادية اخذوا يتامسون الجمال في البحث عن كثير من المصنوعات الخزفية وادوات الحروب القديمة وما شاكلها ، وصاروا يخزنونها في اماكن خاصة وينفقون عليها بسخاء معتبرها مصادر للفن ومنابع للجمال مع العلم بان تلك الفنون كانت في زمانها ادوات تدخل في صميم الحياة ولا تخرج عن كونها فنوناً تطبيقية ، كما اخذت الحكومات في الامم المتحضرة في بناء المتاحف ودور الآثار لخزن بعض مظاهر ثروتها الفنية وآثارها العسكرية والمدنية من جهة واعرض ما استطاعت الحصول عليه من غيرها من الامم من جهة اخرى ، هذا من ناحية الاعزاز بمخلفات الماضي من الجوانب الفنية . غير ان المشاهد من الجهة الثانية ان دور الآثار ومتاحف الازياء وما شاكلها قد اصبحت وسيلة من وسائل التعرف والعبث بالوقت والجهود والمال ،



وانها كذلك ، في الاعم الاغلب ، متمصورة على الفئة المترفة من ابناء المجتمع .  
فكان الحكومات بهذه الطريقة تعمل ( وبعضها ربما لا يكون شاعراً بذلك ) على  
ابعاد الجماهير عن تماس مواطن الجمال في الفن . يضاف الى ذلك ان تلك الحكومات  
كثيراً ما تتباعد عن مرض منتجات رجالها الفنيين المعاصرين ، وتشجع فنهم الرفيع  
بجميع الوسائل الممكنة لعله يسمو فوق المستوى العام للجماهير . وكما تعذر التمتع  
بالانتاج الفني على افراد الشعب جميعاً اصبح اصحابه محل اعجاب الفئة المترفة وموضع  
تقديرها ومبعث تشجيعها .

وبقدر ما يتعلق الامر بنوعي الفن اللذين اشرنا اليهما فان جون ديوي يدعو  
الى تقرب الشقة بينهما ليجد العامل والفلاح لذة في عملها من جهة ، ولينتج الفنان  
فنّاً تطبيقياً نافماً للمجتمع الذي يعيش فيه . كما انه يدعو كذلك الى تربية العامة  
تربية تحب لهم تذوق الفن لذاته ، وتربية الخاصة تربية تجعلهم يخلعون بعض  
مظاهر فنهم الرفيع على الفنون التطبيقية .

.....

ذلك ما يتصل بتحديد الفن وتوضيح وظائفه . اما ما يتصل بملاقة الفن بكل  
من الفلسفة والعلم فيمكننا ان نقول بان بعض الباحثين في موضوع الفن يرون  
انعدام الصلة بين الفن والعلم من جهة ، وبين الفن والفلسفة من جهة اخرى ، وحجتهم  
في ذلك ، فيما يتصل بالفروق بين الفن والعلم هي ان الفنان يشتغل بعواطفه وليس  
لعقله أو تفكيره دخل في ما ينتج . أي ان الفنان - كما يدعي هؤلاء - يفكر بعاطفته  
التي تسيطر عليه وتصبغ نتاجه الفني بصبغتها التي تحدد تفكيره وتشله ان لم تقض  
عليه . اما العالم ، بنظر هؤلاء ، فعلى العكس من ذلك تماماً . فهو يحاول ، ان كان  
علماً بالمعنى المطلوب ، كبت عواطفه والخضوع لسيطرة العقل خضوعاً تاماً أو قريباً

من ذلك . وبمقدار ما يستطيع العالم الحد من مجال تدخل عواطفه في انتاجه يكون ذلك الانتاج اكثر دقة واقرب الى العلم منه الى اي شيء آخر . وجرباً مع هذا المنطق يصبح كل من العالم والفنان على طرفي نقيض . تناس قيمة الانتاج العلمي بمدى تجرده من التأثير بالعواطف ، وبمقدار اعتماده على التفكير وحده ، بينما تحدد اهمية الانتاج الفني بمقدار تجرده من التفكير واعتماده على العاطفة وحدها .

يقول جون ديوي ان الفكرة التي تفصل بين العلم والفن الى ذلك الحد ليست صحيحة على هذا الوجه من وجوه الاطلاق ذلك لان العالم لا يتجرد من عواطفه في مختبره من جهة ، ولا ينعدم التفكير عند الفنان مطلقاً من جهة اخرى . ولكن مع هذا فهناك فرق بين الحالين ، والفرق هذا يحدده مدى التدخل أو الشكل الذي يأخذه كل من العقل والعاطفة في الانتاج . اي ان الفرق بين تدخل العاطفة والعقل في كل من العلم والفن هو فرق في السك لافي النوع . فلما لم نواجه الجمالية والفنية المتعلقة بنجاح تجاربه أو اخفاها وبخاصة في العلوم المختبرية وفي المجالات الصناعية المتصلة بالاصباغ والالوان والمحاليل العطرية وما شاكلها . وللفنان مشاكله الفكرية التي يريد حلها بطريقة عاطفية لا تخلو من التفكير على اقل تقدير . والفرق بينهما ، كما سلف ان ذكرنا ، فرق في تغلب العقل على العاطفة أو بالعكس . فتتغلب العاطفة على العقل في الفن ويتغلب التفكير على العاطفة في العلم . ولكن في المجالين ، مع هذا ، تفكيراً وعاطفة لا يسهل فصلهما .

ثم ان لسلك من الفنان والعالم قوانينها الخاصة التي يتبعانها في التطبيق . غير ان تلك القوانين اكثر ثبوتاً نسبياً في مجال الفن ، وان كانت اقل عدداً فيه منها في العلم . وسبب ذلك على ما يبدو سعة مجال العلم وتشعبه بالنسبة للفن من جهة ، ووجود ظواهر ( الا المختبرية منها ) بشكل لا يدخل للانسان فيه الا بمقدار

استنباطه للتعاونين التي تخضع لها تلك الظواهر من جهة أخرى . على حين ان الامر في موضوع الفن ينحصر منحى معاكساً لذلك في الاغلب . كما ان العنصر الشخصي ( اي الجانب الذاتي الذي يختلف عادة باختلاف الافراد وباختلاف الزمان والمكان ) اقل تدخلاً في البحث العالمي منه في الفن . غير ان الفرق بينهما في هذه الناحية مع هذا كمي لانوعي ، فرق في الدرجة لافي النوع ، في مدى التعلب لافي وجوده كلياً في جانب وازدماه اطلاقاً في الجانب الآخر . والعالم وان بدا انه قد يجوز له في بحثه ان يخرج على بعض قواعد العلم المسلم بها في زمانه فان ذلك يصدر عن طريق الاسلوب العلمي نفسه . والامثلة على ذلك كثيرة لايسهل حصرها والفنان كذلك وان كان اكثر مرونة في عدم التقييد ببعض القواعد العامة في الفن ( فيما يتعلق مثلاً بتركيب الالوان وتناسقها - في حالة الرسم - أو التزام بعض البادىء العامة في نظم الشعر ، وفي العزف على الآلات الموسيقية وما الى ذلك - ) أقول وان كان الفنان اكثر مرونة في عدم التقييد من تقيد العالم بالقوانين العلمية الا انه ينبغي للفنان ان يستند في مرونته اذا بلغت حد الخروج على بعض ما هو مسلم به من القواعد الفنية العامة على قاعدة فنية سابقة او لاحقة ربما يكون هو البادىء بوضعها ولوبشكلها العام غير المسلم به . ثم ان كلاً من الفنان والعالم يستعين بالرموز لاداء مهمته . ولكن هناك فرقاً بينهما في طبيعة الرموز التي يستعملونها . فالرموز التي يستعملها العالم تكون في العادة مؤلفة من ارقام وحروف لها معان ومدلولات خاصة يمرنها المختصون . غير ان تلك الرموز ، مع هذا ، ليست واحدة من حيث الفاظها ومعانيها في مختلف العلوم ( اذ ان لسلك علم في العادة رموزه الخاصة به ) . وقد يستعمل رمز معين في اكثر من علم واحد من حيث اللفظ مع اختلاف في المعنى والمدلول . وللفنان كذلك رموزه الخاصة به . غير انه يندر ان تكون تلك الرموز ارقاماً أو حروفاً ،

وأما هي الوان في حالة ارتسم مثلاً ، وانغم في حالة الموسيقى الخ . . . هذا الى ان  
كلاً من الفنان والعالم يتأثر عقلياً وعاطفياً بالعمل الذي يقوم به ، فهناك علاقة وثيقة  
بين المجال الذي يعمل المرء فيه وبين تفكيره وشعوره . والاختلاف بين المجالين  
ايضاً هو اختلاف في درجة التشبع بالمجال لافي نوعه ، اي ان الفنان يتأذى بفنه  
عاطفياً وعقلياً ، على حين ان العالم يتمتع بعلمه عقلياً وعاطفياً .  
أما القول بانعدام الصلة بين الفيلسوف والفنان فلا يخلو كذلك ، من وجهة  
نظر ديوي ، من مبالغة وتطرف . واساس ذلك التطرف وتلك المبالغة ناتج عن  
الاعتقاد بان الفنان يبدأ عمله متأثراً بمظاهر الطبيعة بما فيها من كائنات حية وجمادة  
كما تدر كها الحواس من ابصار ولمس وما شا كلهما . والفنان بنظر هؤلاء لا يفارق  
الطبيعة مطلقاً طوال عمله الفني ، وان حارل احياناً ان يسمو بفنه عن بعض  
مظاهرها . بينما يبدأ الفيلسوف عمله ، كما هو الشائع عند هؤلاء الباحثين ، مبتعداً  
كل الابتعاد عن الطبيعة كما تظهر لحواسه ومعتمداً كل الاعتماد على غير المحسوسات  
من الاشياء . هذا الى ان الفيلسوف بنظر القائلين ببعده عن الفنان يتعامل من  
الكليات والمطلقات ( القوانين العامة التي تخضع لمعومها قوى الطبيعة ) . بينما يبدأ  
الفنان عمله من الاجزاء والمقترات . فيبدأ الفيلسوف حسب رأيهم من البحث فيما  
وراء الطبيعة ، وهو شيء يتحدى الزمان والمكان . في حين ان الفنان يبدأ عمله  
بالمواد المألوفة لديه حيث يصوغ منها صنوف فنه . والفيلسوف بنظر هؤلاء يحلل  
ما يدركه عمله من قوانين جامعة وثابتة تخضع لها قوى السكون والمجتمع والانسان ،  
ثم يهبط منها الى الاجزاء والتفاصيل . بينما يحاول الفنان ان يركب بين الاجزاء  
صوراً واشكالاً على هيئة كليات ، وان كانت اقل في نطاقها سعة من الكليات  
التي يبحث فيها الفيلسوف ولاحق ثبوتاً منها كذلك . اي ان الفيلسوف يحلل

المطالقات الثابتة الازلية ، بنظرم ، كما تنراهى له كالحق والخير والجمال ، وهى امور  
تسمو فوق الادراك الحسي والفكري الانسان . بينما يركب الفنان اجزاء معينة  
من مواد مألوفة وشائعة لغرض احداث اشكال واجسام جميلة تسبق المرء الى قلبه  
فتمثلسكه عليه . هذا الى ان الفنان يهتم بالخلق والابداع ، بينما ينصب اهتمام  
الفيلسوف على الاكتشاف . اى ان مجال الفيلسوف ، حسب وجهة النظر هذه ،  
حتماتق كلية ومطلقة وازلية موجودة في عالمها الخالد ، ومهمته اكتشافها أو العمل  
المستمر على اكتشافها بوساطة التفكير المجرد الذي يسمو فوق مدارك الانسان من  
الناحية الحسية . ويقرب الفيلسوف ، بنظرم ، من اكتشاف تلك الحقائق بمدى  
تموده فوق الحواس وفوق المادة كما تدركه الحواس . اما اهتمام الفنان فنصب على  
الابداع وخلق شي جديد من مواد موجودة في عالم المحسوسات . وتتوقف  
براعته على مدى ابداعه وصوغه تلك المواد صوغاً جديداً لم يسبقه احد قباه  
الى ذلك .

يقول ديوي في معرض التمليق على الرصل بين العلم والفن ، ان هذا الفصل  
بالشكل الذي مررت الاشارة اليه مبني على فهم للفلسفة بمعناها القديم ، ذلك المعنى  
الذي تحدرت اصوله ، مع تحوير بسيط في تفاصيله لافي اسمه ، منذ عهد سقراط  
وافلاطون . وهو رأي ، كما يلوح للباحث على حد تعبير جون ديوي ، لم يأخذ  
بنظر الاعتبار ما حدثته الثورة الفكرية التي بدأت في اربا قبل زهاء ثلاثة قرون  
تربياً ( وما زالت كذلك ) من ضجة عنيفة حول موضوع الفلسفة وبجهاها الامر  
الذي حدا بكثير من الفلاسفة التردامي والمحدثين ان يعتبروا الفلسفة علماً كسائر  
الملوم الاجتماعية ، كعلم النفس والسياسة والاجتماع ، وسبب ذلك على ما يبدو هو  
ان الفكرة القديمة القائلة بان في يد الفلسفة مفاتيح اسرار الكون قد تقضمها تقدم

العلم الحديث في فروعها المختلفة اذا أصبح العالم الحديث ، عن طريق اعتماده على منطق الاسلوب العلمي في البحث والملاحظة ، يكسر اسرار الكون واحداً بعد الآخر . غير ان العلم مع هذا ، كما يقول ديوي ، يبحث في وصف مظاهر الكون وصفاً دقيقاً ومنظماً دون ان يتطرق ، في وضعه الحاضر على كل حال ، الى تفضيل بعض تلك المظاهر على بعض آخر ، ودون ان يتصدى لاصدار احكام خلقية عليها . اي ان العلم لا يلبج بحث الاخلاق حيث تبدأ المفاضلة بين انماط السلوك وانواع التفكير بين الناس داخل حدود الامة الواحدة وبين الامم كذلك في مختلف العصور والامكنة . واذا كانت الفلسفة عالماً اجتماعياً فان مجالها التفضيل واصدار الاحكام المختلفة على مظاهر السلوك عند الفرد وبين الامم كذلك . ولكي تكون احكاماً سليمة ، كما يقول ديوي ، يجب على حملتها ان يستفيدوا ، كما سلف ان ذكرنا ، من تقدم العلم الحديث ( مادته وطريقته ) لبحث مشكلات المجتمع ، وقد كثير من مما يبره في السياسة والاخلاق ، ان فهم الفلسفة بهذا الشكل ، كما يقول ديوي ، يقربها كثيراً الى الفن حتى يجعل الحد الفاصل بينهما غير واضح . ذلك لان الفلسفة ، حسب هذا الرأي ، تبدأ من الحياة كما يدركها الانسان وكما يحياها كذلك ، وترجع اليها ثانية لاصلاح ما فسد منها ، وبذلك تكمل الفلسفة ما يريد الفنان ان يقومه مما اعوج من مظاهر الحياة . واذا صح ما ذهبنا اليه جاز لنا ان نقول ان الفيلسوف فنان في كثير من مظاهر سلوكه من جهة وان الفنان لا يستطيع ان يتجرد من جوانبه الفلسفية من جهة اخرى . قال افلاطون على لسان سقراط « الفلسفة نوع رقيق من الموسيقى » . هذا الى ان كلاً من الفلسفة والفن يدعو الى حطم القيود المادية والاجتماعية التي تقسم البشر الى جماعات غير متجانسة يكيد بعضها لبعض آخر وثيقته .

فالفن والفلسفة والعلم ، وسائر مظاهر نشاط الانسان على وجه البسيطة ، يجب ان تتعاون ، كما يقول ديوي ، في رفع مستوى الحياة الانسانية من الماديتين المادية والفكرية ، فمعي اذن وسائل لتحقيق تلك الغاية الانسانية . وعلى هذا الاساس يمكن ان تسمى فلسفة جون ديوي بفلسفة الوسائل أو « الذرائع » شريطة ان لا يلصق بها مطلقاً ، كما سلف ان ذكرنا ، موضوع الانتهازية وموضوع « الوسائل تبررها الغايات » .



## الفصل الرابع

### الحرية : معناها ووظيفتها

يعتقد جون ديوي ان الحرية تعني ، في كل زمان ومكان ، تحرر فئة معينة من الناس من بعض القيود . فالحرية بنظره اذن شيء نسبي لا مطلق ، يتغير معناه بتغير الزمان والمكان . وتتجلى وجامعة هذا القول اذا استعرضنا موضوع الحرية من الناحية التاريخية ، واسهولة البحث دعنا ننظر الى تاريخ الحرية في الاقطار الاوربية منذ عهد اليونان الى الوقت الحاضر . لقد كانت الحرية تعني في عهد اليونان ، قبل زهاء خمسة وعشرين عاماً ، تمتع طبقة صغيرة من السكان بالعيش الرغيد ، حسب امكانيات زمانها ومكانها ، على حساب الاكثية الساحمة من السكان . اي ان الحرية عند الشعب اليوناني ، الذي كان مقسماً الى فئتين : فئة الاحرار وفئة العبيد ، كما سلف ان ذكرنا ، كانت تعني ، بتمامها الحاضرة ، عبودية اكثية السكان وخضوعهم للاقلية الحاكمة . وسبب ذلك على ما يحدتنا ارسطو في كتاب « السياسة » هو ان العبيد يولدون كذلك باسرها من الآلهة العادلة ، وان ليس من الانصاف في شيء ولا من مصلحة المجتمع ومصالحتهم ان يعاملوا خلاف ذلك لما تستلزمه طبائعهم . ثم اصبحت الحرية تعني في اوروبا طوال القرون الوسطى ( حيث انتشر الاقطاع في معظم ارجاء القارة ، وحيث كان اعتماد السكان على الزراعة وملحقاتها ) تحرر الفلاحين من عبودية الارض ، اي من بعض مظاهر



النظام السياسي الذي كان شائعاً آنذاك حيث كان الفلاح يعتبر جزءاً من الارض التي يفلحها ويزرعها (والتي يملكها غيره ويملكه معها) ولا يحق له الانتقال منها مطلقاً ، سواء اكان ذلك الانتقال يتضمن التحول الى ارض اخرى او الى مهنة اخرى . واصبحت الحرية تمني ( في انكلترة بشكل خاص حيث بدأ المجتمع يتحول من الزراعة الى الصناعة والتجارة ) اثناء ظهور الثورة الصناعية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر السماح للافراد بالتعبير عن آرائهم وممارسة معتقداتهم السياسية والدينية - بغض النظر عن نوعها او اختلافها عن آراء الفئة الحاكمة - من جهة ، وضرورة رفع الحواجز التجارية ، داخل حدود الامة وبين الامم كذلك ، من جهة اخرى . وسبب ذلك على ما يبدو ، بقدر ما يتعلق الموضوع بالتجارة على كل حال ، زيادة الانتاج الصناعي وحاجة اصحابه الى تعريفه في الخارج من جهة ، واستيراد المواد الاولية الضرورية لانتاجه من جهة ثانية ، وفتح ابواب القطر ( الذي اخذ بالتصنيع ) امام المنتجات الزراعية والحيوانية من جهة ثالثة . يضاف الى ذلك ما تتركه الاسفار من اثر في الميل الى التساهل نظراً للاحتكاك بين اقوام مختلفة ، ذات لغات مختلفة وتقاليد مختلفة واديان ومذاهب شتى . واصبحت الحرية تعني في الوقت الحاضر الدعوة الى تحرير الناس من الفقر والجهل والارض من جهة ، وعدم الوقوف في سبيل حرية الفكر من جهة اخرى . واذا نظرنا الى موضوع الحرية من زاوية اخرى واستعرضنا تاريخ الفكر السياسي الاوربي ، من الناحية النظرية التشريعية ، في الفترة التاريخية الواقعة بين ظهور اليونان ومطلع القرن الحاضر ، امكننا ان نقسم الفلاسفة والمشرعين والباحثين الاجتماعيين ، حول موضوع الحرية وكيفية تحقيقها ، الى فريقين متعارضين اشد التعارض . يرى الفريق الاول ، وهو احدهما تكويناً ، ان الحرية لا تتحقق على

وجهاً الا كمال الا اذا تمتع الفرد ( اي فرد بغض النظر عن عقائده السياسية والدينية و لغته ولون بشرته الخ . . . ) بجميع حقوقه وامتيازاته . ولا يتم ذلك المتمتع كاملاً ، بنظرهم ، الا عن طريق تفلسف ظل الحكومة تفلسفاً كبيراً وضعف سلطانها على الافراد . ومن اشهر دعاة هذا المذهب مونسيكو (١٦٨٩-١٧٥٥م) وفولتير (١٦٩٤-١٧٧٨م) وجان جاك روسو (١٧١٢-١٧٧٨م) في فرنسا ، وجيري بنثام (١٧٤٨-١٨٣٢م) وآدم سميث (١٧٢٣-١٧٩٠م) وجون ستورت مل (١٨٠٦-١٨٧٣م) في انكلترة . وقد نتج عن آرائهم تلك ظهور مذاهب الحرية الفردية في الاقتصاد المعروف . ويسمى مذهبهم بـ *Literalism* ، وتدعى تطبيقاته الاقتصادية بـ *Laissez Faire, Laissez Passez* . اما الفريق الثاني فيرى ان الحرية لا تتحقق على وجهها المطلوب الا عن طريق خضوع الفرد للدولة ذلك لانه يرى ان الفرد لا يصبح انساناً ، له لغته وتقاليده ومثله العليا في الحياة الا اذا انضوى تحت لواء دولة معينة . فهو مدين لها من حيث وجوده الاجتماعي ووجوده المادي كذلك ( لان تكوينه المادي لا يتم الا عن طريق الزواج والدين الذي يتم وفقاً لشرائع المجتمع ، كما ان وسائل عيشه ومصادر رزقه تأتيه من المجتمع كذلك ) . فهو مدين للدولة اذن بحياته المادية والاجتماعية . وبما ان الدولة هي السلطة الوحيدة التي بوساطتها ينتشر النظام ويسود القانون ويسهل الاتصال الفكري والاجتماعي والمادي بين الافراد ، وبما انها - حسب وجهة النظر هذه - احرص على مصالح الشعب من الافراد الذين يسعى كل منهم في العادة لتأمين مصالحه على حساب غيره ، فان اطاعتها واجبة والانصياع الى انظمتها وقوانينها من اقدس الامور . ان هذا الرأي يتضمن قلة اهتمام حملة هذا الرأي بالحرية الفردية . ومن اشهر حملة هذا الرأي من القدامى

شيخ الفلاسفة افلاطون ( ٤٢٨ ق.م - ٣٤٧ ق.م ) ومن المحدثين هيكل ( ١٧٧٠ - ١٨٣٢ م ) في المانية وكروتشي ( ١٨٨٧ - ١٩٥٣ م ) في ايطالية .  
ويجمل بنا ان نشير هنا الى ان الفريقين الآتي الذكر قد اختلفا كذلك على شرعية ثورة الشعب أو بعضه على الحكومة التي يعتبرها فاسدة بمقاييس . فذهب الفريق الاول الى القول بان الثورة عمل مشروع يحق للشعب بل يجب عليه احياناً ان يقوم به لانتفاء على الحكومة التي تنتكح عن السبيل السوي في الحكم . ذلك لان وظيفة الحكومة ، حسب رأيهم ، هي خدمة ابناء الشعب والعمل المستمر على رفع مستوياتهم من الناحيتين المادية والفكرية ، وان اخلاها بذلك يعتبر مبرراً مشروعاً لمناهضتها واقصائها بالقوة المسلحة ( اذا فشلت جميع الوسائل الاخرى ) في الدولة تمهيداً للمجيء بحكومة افضل منها . على حين ان الفريق الثاني قد ذهب الى الناحية المعاكسة فاعتبر الثورة امراً محرماً من ناحية العرف العام والتشريعات الاجتماعية . وسبب هذا الاختلاف أو التناقض بين الرأيين راجع الى اختلاف واضح بين نظريتي الفريقين في اصل الدولة وكيفية نشوئها . يعتبر الفريق الثاني الدولة كالانسان من حيث التركيب الجسمي والنشاط والوظائف . وممثل الافراد الذين تتألف الدولة منهم من حيث صلاتهم ببعضهم وبالدولة كممثل اعضاء الجسم الانساني لسكل منها ووظيفة معينة . غير ان تلك الاعضاء جميعاً تتعاون ، مع وجود ذلك التخصص ، لخدمة الجسم كله . وقد يأخذ بعضها وظيفة بعض آخر وبخاصة في حالة المرض . والدولة بنظر حملة هذا الرأي سابقة الافراد في الوجود والاهمية . فيجب على جميع الافراد والحالة هذه ان يخضعوا لسلطانها وينصاعوا لاوامرها حتى وان بدا لهم أو لبعضهم ان تلك الاوامر لا تتفق هي والمصلحة العامة بله مصالحهم الخاصة . وينبغي للافراد كذلك ان يكونوا دائماً على اتم استعداد

للتضحية في سبيل الدولة كما اقتضى الامر ذلك من وجهة نظر القائمين بتصريف شؤونها - وهم الاعضاء الذين يمثلون الراكز العليا في الحكومة . فكما ان مصلحة الجسم قد تستلزم قلع الاسنان مثلا أو استئصال احدى الرئتين اذا اشار بذلك المختصون من الاطباء فكذلك الحال اذا اقتضت مصلحة الدولة كما يراها اصحاب المراكز العليا في الحكومة للقيام بعملية تطهير داخلية أو اعلان حرب على عدو من الخارج . ووجه الشبه بين الدولة والانسان يتضح اذا نظرنا للامر من زاوية اخرى . فكما ان بعض اجزاء الجسم ارتقى من بعض آخر من حيث الوظيفة والمركز ، كما يقول حملة هذا الرأي ، فكذلك افراد المجتمع ، يقع بعضهم فوق بعض من حيث نوع العمل واهميته . ويتسلسل الامر الى ان يصل الى الزعيم ، وهو الدماغ المفكر في جسم الدولة . هذا من ناحية صلات الافراد ببعضهم داخل حدود الامة الواحدة ، اما من ناحية صلات الدول ببعضها فانها تخضع كذلك لهذا التسلسل التصاعدي المار ذكره . فيقع بعض الدول فوق بعض آخر من حيث الاهمية والزعامة . ويقاس رقي الدولة وتقدر مكانتها في سلم التطور بمدى الانسجام الموجود في علاقات افرادها فيما بينهم ، وفي علاقتهم بالدولة . فاذا فقد هذا الانسجام عن طريق تمرد بعض الافراد على السائد من القوانين اصبحت الدولة سقيمة ، كما يزعم هؤلاء ، وتبوءت منزلة تتناسب هي ونوع ذلك السقم ودرجته . غير ان الافراد حتى الدول السقيمة ، كما يدعي انصار هذا الرأي ، لا يجوز لهم ان يشوروا على الشائع من المفظة لغرض احداث تغيير في كيانها لان الدولة ( حتى في حالة مرضها واحتضارها ) ارتقى ، بنظر هؤلاء ، من كل فرد من افرادها وارتقى منهم مجتمعين ، ذلك لان رقي الفرد في كل دولة يقاس بمدى انسجامه معها وانصياعه لقوانين حكومتها . اما الفريق الاول فيعتبر ان نشوء الدولة كان نتيجة لاجتماع

الافراد وتمامهم . ويتلخص هذا الرأي في ان الافراد اسبق في هذا الوجود  
والاهمية من الدولة والحكومة . وانهم في فترة من فترات التاريخ الماضي اجتمعوا  
بمحض ارادتهم وتمامدوا بشكل شمولي على ما يظن فيما بينهم على انشاء الدولة  
والحكومة لغرض القيام بخدمة مصالحهم والمحافظة على حقوقهم المكتسبة وبخاصة  
حق التملك . وبكون الافراد على هذا الاساس على الدولة حقوق والتزامات . واذ  
ثبت الافراد ان الدولة قد انحرفت عن السبيل السري ، واخذت بواجباتها تجاههم  
اصبح من حق الافراد بل من واجبهم ان يثوروا عليها ويحطموا كيانها . وتدخل  
ضمن هذا الرأي نظرية كارل ماركس ، مع اختلاف لانرى ضرورة للدخول في  
تفاصيله لانه خارج نطاق بحثنا . ونفوى نظرية ماركس ان الدولة ( والحكومة  
راسها ) مؤسسة ظالمة ، اوجدتها الفئة الحاكمة لغرض المحافظة على مصالحها  
المركزة المبنية على اساس سلب الفئات المحرومة حقوقها المشروعة . وعلى هذا  
الاساس يصح من حق الافراد ومن واجبهم كذلك ان يعلنوها حرباً شعواء  
لاهوادة فيها على الدولة والحكومة للقضاء على الفئة الحاكمة السائدة تمهيداً  
لاستلام زمام الحكم وانشاء حكومة يديرها مندوبون عن الجماهير والطبقات  
المحرومة لغرض الانتمال مع الزمن الى ايجاد مجتمع غير طبقي ينتفي فيه وجود  
الدولة والحكومة لانتفاء الحاجة اليهما .

.....

يقول ديوي في معرض التعليق على الرايين الآتني الذكر ان الرأي الثاني في  
الواقع ، على الشكل الذي عرضه دعائه ، يسلب النرد حريته تحت ستار التنظيم  
الاجتماعي . وهو رأي لا يأتلف والمكرامة المرديفة في العصر الحاضر . وانه ، من

الناحية التاريخية ، سلاح بيد الفئة الحاكمة توجهه انى تشاء وكيفما تريد ضد من تحدثه نفسه تحدي مصالحها ؛ هذا الى ان تشبيه الدولة بجسم الانسان لا يخلو من تضليل ومغالطة وبخاصة اذا نظرنا الامر من ناحيته العملية الواقعية لا من ناحيته النظرية المثالية كما فرض حملة هذا الرأي . فافراد الدولة والحكومة كاعضاء الجسم يشد بعضها بعضاً ، ويؤثر بعضها في بعض ، وتتعاون جميعاً ، رغم تخصصها ، لخدمة الجسم ، وهذا صحيح اذا كان الافراد يتبوءون مرا كرمهم كل حسب كفاءته واختصاصه ، وهو ما ينبغي ان يكون اما ان توزع المناصب على اسس اخرى غير اسس الكفاءة والاختصاص ، ويطلب الى الناس الانسجام مع ذلك برغم انه ضرورة تتمتضيه المصلحة العامة فامر لا تنتفع به الا الفئة الحاكمة التي تأتي الى الحكم على غير الاسس الشعبية ، وتتخذ منه وسيلة لتركيز نفوذها وتثبيت مصالحها التي لا تنسجم في العادة والمصلحة العامة كما تقرها الجماهير . وعلى هذا الاساس ، كما يرى ديوي يمكننا ان نقول ان حملة هذا الرأي لا يدعون الى الحرية اطلاقاً بل يسعون الى طمسها . غير ان هذا القول لا ينبغي ان يفسر بان ديوي يهمل جانب التنظيم الاجتماعي في فلسفته السياسية والحق ان ديوي يهتم في هذا الجانب بقدر اهتمامه بالحرية الفردية لانه يرى ان كلاً منهما يكمل الآخر ويعتمد عليه ويتركز فيه ، ولا معنى ، الا لفرض الدراسة النظرية ، لتجريد احدهما عن الآخر واعتباره منفصلاً عنه . غير انه يعترض ، بقدر ما يتعلق الامر بجانب التنظيم الاجتماعي ، على نوع ذلك التنظيم ومدى ضعفه على الحرية الفردية من جهة ، وعلى مصدره وصلة ذلك بالشعب من جهة اخرى . فاذا كان التنظيم الاجتماعي مفروضاً من قبل الهيئة الحاكمة دون اهتمام كبير بموقف الشعب منه فلان ذلك يحد ذاته كما يقول ديوي يعني لشجبه . اما اذا انبثق عن الشعب بوساطة

ممثلية (الذين ينتخبون انتخاباً حراً سليماً) فإنه التنظيم الذي ينبغي تشجيعه حتى وان كان اقل نضجاً مما ينبغي ان يكون عليه هذا في حالة قلة نضج الشعب من الناحية الفكرية . غير ان ذلك التشرييع اذا كان صادراً من الشعب ورامياً الى رفع مستواه الفكري والمادي فإنه ، مع قلة نضجه ، سوف يعمل على رفع مستوى الشعب الذي سوف يسعى بدرجة الى سن تشريع ارقى . وهكذا دواليك . فديوي اذن يشجب التنظيم المفروض من الفئة الحاكمة على الشعب ويجبذ التنظيم المنبثق عن الشعب نفسه .

اما حملة الرأي الاول فانهم قد ذهبوا الى الجهة المعاكسة . فالحرية الفردية دون شك مبدأ سام ينبغي لسلك فرد ان يسمى الى تحقيقه . غير ان الدعوة الى رفع النفود ، عن التجارة مثلاً ، مع عدم السماح للحكومة بالتداخل في تنظيم علاقات الافراد من الناحية الاقتصادية ، ما هي في الواقع الادعوة لحماية جانب من الشعب على حساب جانب آخر اي انه يتضمن السماح لمن سبق له ان اصبح في وضع يساعده على الانتاج على نطاق واسع لاصدار ما يريد اصداره الى الخارج لكسب اكبر كمية ممكنة من الارباح . وهذا يعني من الناحية الثانية ان تنف الحكومة مكتوفة اليدين تجاه اقلية ابناء الشعب الذين لم تسمح لهم الظروف بالتمدد الاقتصادي . فكأن الداعين الى هذا النوع من الحرية الفردية يريدون اطلاق يد كبار التجار واصحاب المعامل في الاثراء من جهة ، وابقاء اقلية الشعب مكتوفي الايدي من الناحية الاقتصادية من جهة اخرى ، اي انهم يريدون ابقاء الاوضاع غير العادلة كما هي واكسابها صفة قانونية مشروعة من الناحيتين النظرية والعملية . وعلى هذا الاساس يمكننا ان نقول ان الحرية الفردية

فما يتملق بالجوانب الاقتصادية في الوقت الحاضر ينبغي ان يشملها التفسير  
الاجتماعي العادل الذي يهدف الى ضمان عدالة توزيع الثروات والخدمات بين افراد  
الشعب جميعاً بحيث يتسنى القضاء على ظاهرة استغلال بعض افراد الشعب بجهود  
بعض آخر . ( سوف نشرح فلسفة ديوي الاقتصادية بشيء من التفصيل عندما  
نبحث في الاشتراكية الديمقراطية كما يراها ديوي ) . هذا ما يتصل بالحرية الفردية  
في الجوانب الاقتصادية ، اما ما يتملق بالحرية الفردية في النواحي العاطفية  
والفكرية فان مجرد التساهل والسماح للافراد بممارسة حرياتهم الامامة في مجال الابداع  
والسياسة وما شاكلها غير كاف بنظر جون ديوي وبخاصة في الحالات التي يصعب  
فيها توخي التساهل نظراً لتضارب الافكار والمواقف وتصادمها . وليكي تضمن  
الحرية الفردية في هذه الجوانب ينبغي لنا كما يقول ديوي ان توجد التشريعات  
اللازمة المبنيّة على اساس التفكير السليم والرامية الى خدمة المصلحة ومن ثم نطلق  
العنان للحرية الفردية تسير ضمن ذلك الاطار لا خارجه .

يتضح مما ذكرنا ان كلاً من ديوي من جهة وبنجام وجون ستورت مل  
وزملائهما من جهة ثانية يؤمن بالحرية الفردية وان اختلف مع الآخر في مفهومها وكيفية  
تحقيقها . ويعود سبب ذلك الاختلاف الى ان بنجام وزملاءه . كانوا يظنون ،  
من الناحية النفسية ، ان كل شخص سوي له قدرة على التفكير والتأمل بوساطة  
عقله Reason الذي من طبيعته ارشاد الانسان على القيام بالعمل الصالح . وان هذا العقل  
الفردى في العادة تسده التوازن الشائمة في المجتمع نظراً لتساها ومجانبتها المصلحة  
العامّة لذلك نراه كثيراً ما يدفع صاحبه من الناحية الواقعية الى تعاطي الافعال  
الخبيثة . وليكي تضمن للعقل الفردى السير وفق طبيعته السامية وجب علينا ان  
نخلصه من قيود المجتمع وانظّمته غير العادلة ، ولا يتم ذلك الا اذا اقلعنا عن



فكرة تشريع القوانين وسنها - مهما كان نوعها - وفسحنا المجال واسعاً امام كل فرد ان يفكر تفكيراً سليماً وفقاً لطبيعة عقله . وبما ان العقل متوافر في جميع الافراد الاسوياء بنسب متكافئة فانهم دون شك يفكرون تفكيراً متماثلاً فيتقارب أنماط سلوكهم ولا يحدث التصادم بينهم الا عرضاً وفي حالات شاذة يقل عددها الى حد التلاشي كلما كان السلوك مبنياً على اساس التفكير السليم مجرداً عن كل العوامل الاجتماعية . وبما ان كل فرد يسمى الى تطين مصالحه الخاصة والمصلحة الخاصة جزء من المصلحة العامة ، فان ذلك يعني ان كل شخص يسير بطريقة المعينة ووفق جهوده الى خدمة المصلحة العامة التي هي مجموع مصالح الافراد . في كل ذلك يكون الفرد خاضعاً لقوانين وقواعد ذاتية صادرة من طبيعة تفكيره لامفروضة عليه من المجتمع الذي يعيش فيه . وبما ان تلك القوانين الذاتية متماثلة في جميع الافراد اذا تركوا لطبايعهم الخاصة فان مظاهر سلوكهم ، كما سلف ان ذكرنا ، تماثل كذلك . وبهذه الطريقة ، يسير جميع افراد المجتمع متعاونين ومتكاتفين في خدمتهم للمصلحة العامة .

اما ديوي فيرى استحالة فصل الانسان عن المجتمع وتركه لنفسه من الناحية العملية . فالانسان ، كما هو واضح ، يولد طفلاً ضعيفاً من جميع الوجوه ، محتاجاً ، لكي يستمر على الحياة ، الى عناية مستمرة يقوم بها الراشدون من بني جنسه . ويكون هذا الطفل ، من الناحية الجسمية ، اكثر ضعفاً من صغار كثير من الحيوانات . هذا الضعف البادي على الطفل من الناحية الجسمية مصحوب بضعف آخر من الناحيتين الفكرية والاجتماعية - اذ يولد الطفل بلا لغة أو قومية أو دين أو أي معتقد من المعتقدات السياسية . وكلما نما الطفل وضح اثر المجتمع في تكوينه

العاطفي والفكري (كما سنرى ذلك بوضوح عند بحثنا في موضوع التربية). وإذا كان الامر كذلك، كما يقول ديوي، ألا يجوز لنا ان نسمى الى تكوين اولئك الاطفال تكويناً اجتماعياً سليماً عن طريق سن تشريعات وقوانين سليمة - علمية في وسائلها وانسانية في اهدافها؟ ونقطة البداية في ذلك عند ديوي هي تشجيع الحياة الديمقراطية البرلمانية على الشكل الذي سوف نشرحه عند البحث في الاشتراكية الديمقراطية كما يراها جون ديوي.

ولعل من المناسب ان ننبه الفارئ، قبل الانتقال الى نقطة اخرى في البحث الى ان ديوي لا يعترض على الرأيين الاول والثاني من حيث المبدأ - لانه يهتم جد الاهتمام بكل من الحرية الفردية والتنظيم الاجتماعي. ولكنه يخالفهما من حيث الشكل الذي اتخذته كل منهما وبخاصة من الناحية الواقعية. وقبل ان نعرض رأيه في هذا الصدد بشيء من التفصيل يجمل بنا ان نتبسط في بحث موقفه من الرأيين الآتني الذكـر مجتمعين، بعد ان ذكرنا رأيه في كل منهما على انفراد. ذلك لانهما بنظره يستندان على مسلمات متماثلة فلا غرو ان تعرضا لاغلاط مشتركة. واول تلك الاخطاء ان دعواتها اعتبرا كلاً من الحرية الفردية والتنظيم الاجتماعي مبدأين متعارضين فتبنى حملة الرأي الاول مبدأ الحرية الفردية، وخالفهم حملة الرأي الثاني فاعتنقوا مبدأ التنظيم الاجتماعي. وقد اعتبر انصار مبدأ الحرية الفردية تداخل الحكومة في شؤون الافراد اعتداء على حرياتهم، بينما خالفهم دعاء التنظيم الاجتماعي فاعتبروا الحرية الفردية خروجاً على النظام لمبدأ الحرية نفسه. ويرجع سبب ذلك من الناحية النفسية، على مايقول ديوي، الى ان الباحثين الاجتماعيين، ومعظم الناس، في الاعم الاغلب، يميلون الى اعتبار الحرية اساس الحياة السياسية

حينما يرون الدولة تتداخل لعرقلة تلك الحرية تداخلاً لا مبرر له بنظرهم .  
والجانب السلبي لهذه الظاهرة هي العزوف عن التنظيم الاجتماعي من حيث الاساس  
لامن حيث المظهر الذي يأخذه فتمط . فكان مظهره الصارم يصبح صفة ملازمة له  
في كل زمان ومكان ، وعلى هذا الاساس ترتفع اصوات الفلاسفة السياسيين مطالبة  
بالحد منه أو الغائه ان امكن . وتتعكس الآية عندما تأخذ الحرية الفردية شكلاً  
بمبدأ عن التنظيم وعن المصلحة العامة بنظر قسم آخر من الفلاسفة السياسيين  
فيدعون الى وضع القيود التي يرونها ملائمة لتحديد حرية الافراد كي يسود النظام  
والقانون . اي انهم يتخذون مما يشاهدونه في زمانهم من تسيب وضعف في النظام  
العام وسيلة لاعتبار كل حرية فردية نوعاً من انواع التسيب وخرقاً للنظام بغض  
النظر عن الزمان والمكان .

والاوضاع السياسية التي عاش فيها الباحثون الاجتماعيون الذين ذكرنا اسماءهم  
توضح مآزبنا اليه في الفقرة السابقة توضيحاً كبيراً . فتمدعاش دعاة الحرية الفردية  
في ظروف سياسية كان تداخل الحكومة في شؤون الافراد عنيفاً صعب الاحتمال  
الامر الذي دفعهم الى الدعوة الى تقلص ظل الحكومة لاطلاق حرية الناس . بينما  
عاش اصحاب نظرية التنظيم الاجتماعي في ظروف سياسية تضامل فيها نفوذ  
الحكومة الامر الذي دعاهم الى اعتبار تمتع الفرد بحريته نوعاً من انواع التسيب  
والفوضى وفقدان النظام ، فدعوا الى عكسه . فانبرى فولتير وروسو ، حينما ساءما  
كثيراً تداخل الحكومة والكنيسة في امر حرية الافراد ، الى مهاجمة التنظيم  
الاجتماعي مهاجمة عنيفة ، وحمل جرمي بنثام وجون ستورتمل وآدم سميث حملات  
صارمة على تداخل الحكومة في حرية الافراد من الناحيتين السياسية والاقتصادية ،  
ونادى كل منهم بوجوب رفع الحواجز التي وضعتها الحكومة لكي يصبح

الافراد احراراً . ولعل من المناسب ان نذكر القاريء في هذه المناسبة ان الدين في اوربا بشكل عام آنذاك لم يكن منفصلاً عن الدولة كما هي الحال في الوقت الحاضر ، فلا غرابة ان التقت مصالح الفئة الحاكمة مع مصالح رجال الدين فقاومت جميع الافكار التي لا تأتلف هي والوضع القائم آنذاك . وبتقدير مايتعلق الامر بفرنسا في الفترة التي عاش اثناءها كل من فولتير ومونتسكيو وجان جاك روسو ، وقبل ذلك ، يمكننا ان نقول ، فيما يتصل بالحرية الفردية في مجال الدين ، بان التعصب الديني قد بلغ اشده ضد الطوائف المسيحية غير المنتمية الى المذهب الرسمي للحكومة . فاضطهد البروتستنت الفرنسيون (الهيكونوت) ولم يسمح لهم بالتوظيف أو التعليم أو الخدمة في الجيش أو السككى في باريس والمدن الفرنسية الكبرى ، كما لم يعتبر زواجهم شرعياً . اما قضية استبداد الفئة الحاكمة في فرنسا بمصالح الشعب من جميع البواحي قبل اندلاع نيران الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ فاشهر من ان تذكر . فلا عجب اذن ان رأينا رجال الفكر الحر في فرنسا في اواخر القرن الثامن عشر واثناء القرن التاسع عشر يدعون الى الحرية الفردية على الشكل الذي وصفناه . ولم يكن الوضع العام في انكلترا آنذاك احسن مما كان عليه في فرنسا . فتمد كانت الوظائف الكبرى في الدولة (مدنية وعسكرية ودبلوماسية) مقصورة على الطبقة الارستقراطية المكونة من كبار المزارعين وارباب المال والجاه واغلبهم من اتباع الكنيسة الانكليكانية (المذهب الرسمي للحكومة البريطانية) . وكان متوقعا والحالة هذه ان لا يسمح لبناء الطوائف الاخرى من بروتستنت وكاثوليك الا باسغال المناصب الحكومية المتواضعة وقد بلغ الضغط الفكري على الكاثوليك درجة صعب عليهم معها التمتع بممارسة شعائرهم الدينية بشكل مكشوف . وكانت ابواب كثير من المعاهد العالمية مغلقة بوجه ابناء تلك الطوائف . فتمت امتنع كثير

من المدارس الخاصة امثال ايتون وهارو ووينجستر عن قبول الاطفال الكاثوليك والبروتستانت في عـ اذ طلابها . هذا من ناحية التعليم في مراحلہ الاولى . اما الدراسة الجامعية فان اكسفورد وكمبرج لم تفتحها ابواً بما لابناء تلك الطوائف الا في عام ١٨٥٤ واسكن ضمن شروط خاصة منها انهم لا يتمتعون باؤفائف التي تؤهلهم لاشغالها شهاداتهم المدرسية ، وانه لا يسمح لهم كذلك نيل شهادة الـ A. A. أو الدكتوراه ، وان لا يدخلوا كلية اصول الدين ( لان تلك الكلية لا تدرس الا اصول المذاهب الانكليكان ، وهو المذهب الرسمي للحكومة ) . فلا عجب ان اثار ذلك كله الكتاب والمفكرين فدعوا الى ضرورة نشر العدالة الاجتماعية عن طريق القضاء على النظام السائد واحترام الحرية الفردية .

على حين ان حكم الجماهير ( الناتج عن تمتعهم بحرياتهم الفردية على الشكل الذي كان شائعاً عند اليونان ) بالتمثل على سقراط ( لانه كان بنفسه عمول الناشئة ويدفهم الى الشك في وجهة التمايلد ) قد آلم تلميذه الوفي افلاطون ، فنغر من الحرية الفردية ودعا الى ضدها . كما اتعب فوندار التنظيم الاجتماعي في المانية ، الفيلسوف هيكل طوال انفترة التي عاش اثناءها ، الامر الذي افند المانية ، بنظره ، القدرة على تأدية رسالتها التاريخية للعالم « لاجراجهم من الظلمات الى النور » من جهة ، وجعلها تمرض لمهاجمة الجيوش الفرنسية تحت قيادة نابليون من جهة اخرى ، فنادى هيكل بوجوب القضاء على الحرية الفردية ، ونشر النظام والقانون في ربوع ذلك القطر .

.....

يقول ديوي ان الحرية الفردية والتنظيم الاجتماعي شيئان متلازمان ، لا يمكن ان يتحقق احدهما على وجهه الاثم على حساب الثاني . فاذا انعدمت الحرية الفردية

انعدم وجود التنظيم الاجتماعي واصبح المجتمع خاضعاً لمشيئة الفئة الحاكمة . واذا انعدم التنظيم الاجتماعي انعدمت الحرية الفردية كذلك واصبح الافراد سائرين وفق قاعدة التسبب والفوضى ، وعلى هذا الاساس يمكننا ان نقول على حد تعبير ديوي ، ان التنظيم الاجتماعي لا يحصل الا اذا رافقته حرية فردية ، والحرية الفردية بدورها لا تزدهر دون وجود حارس ومنظم .

والصراع بين الحرية والضغط عليها قديم قدم الحياة الاجتماعية ذاتها . ولا يوجد عهد مرت الانسان فيه دون ان يتمتع بعض الناس بالحرية في بعض المجالات ويحرم آخرون من ذلك . غير ان الدعوة الى الحرية ، من الجهة الثانية ، لا ينبغي ان تفسر بانها تتضمن الخروج على مبدأ السلطة ، وانما هي محاولة للقضاء على النظام السائد ( الذي يظن بانه فاسد ) لغرض تغييره باحسن منه ، وذلك عن طريق احداث تغيير في نوع السلطة السائدة وفي مجالها . اي ان الدعوة الى الحرية ما هي الا محاولة لاحداث تغيير في موقع السلطة وفي مجال عملها السياسي لا القضاء على السلطة نفسها من حيث المبدأ . فهي اذن ، بعبارة اخرى ، عملية استبدال سلطة باخرى . وعلى هذا الاساس يمكننا ان نقول ان السلطة والحرية موجودتان جنباً الى جنب في جميع الاحيان والامكنة مع اختلاف في الشكل من جهة وفي كمية احدهما بالنسبة لكمية الاخرى من جهة ثانياً والمقصود بكمية احدهما هنا هي مقدار الافراد الذين يتمتعون بذلك من جهة ومدى ما يتمتع به كل منهم من جهة اخرى .

ورب معترض يقول ان وجود السلطة والحرية معاً يتلشى في وقت الهزات الاجتماعية العنيفة السياسية والعسكرية ، التي يتعرض المجتمع لتأثيرها حيث تتلشى هيبة السلطة القائمة وينعدم سلطانها على الافراد ولو لمدة قصيرة من الزمن ، كما

تتلاشى حريات الافراد كذلك . كما حصل ذلك مثلاً في فرنسا اثناء ثورتها الكبرى عام ١٧٨٩ ، وفي روسيا ايام قيام ثورتها الدامية عام ١٩١٧ . وللاجابة على ذلك نقول ، بتقدير مايتعلق الامر بالسلطة ، ان حال المجتمع في وقت الازمات الاجتماعية لا تعني انعدام السلطة من حيث المبدأ ، بل تعني ان هناك نزاعاً على السلطة بين اكثر من جهة واحدة . فليس حدوث الازمات اذن زمناً تنعدم فيه السلطة بل هو وقت يظهر فيه تعددها حيث يستمر النزاع بين اكثر من سلطة واحدة الى ان تتم الغلبة لواحدة منها . والخروج على وضع اجتماعي معين ، بقوة الفكر أو السيف أو بهما معاً ، لا يدل على فئدان السلطة بتمتد دلالاته على تجزئتها . فهو وان دل من حيث الاساس على ضعف السلطة القائمة من وجهة نظر اولئك الذين ينازعونها البقاء غير انه من الجهة الثانية يتضمن حتماً التبشير بظهور سلطة جديدة تتحدى الاولى وربما تحتل محلها في المدى القريب أو البعيد والخروج على الانظمة والقوانين السائدة لا يعني الخروج على الانظمة اطلاقاً بل يعني الدعوة الى نشر نوع آخر من الانظمة والقوانين - هي ، بنظر دعايتها ، اكثر صلاحاً من القوانين السائدة والانظمة المرعية . هذا من ناحية السلطة ، اما من ناحية الحرية الفردية فانها كذلك لا تتلاشى في وقت الازمات الاجتماعية من حيث الاساس وانما هي تختلف من حيث الشكل والمظهر من جهة ومن حيث المدى أو السعة من جهة اخرى . فهي تزداد من ناحية فيما يتعلق ببعض افراد المجتمع وبمدى ما يتمتع به منها كل منهم . وتنقص من ناحية اخرى فيما يتعلق ببعض آخر وبمدى ما يتمتع به منها كل منهم . فالافراد الذين يريدون تغيير السلطة القائمة أو قلب نظام الحكم تتجلى حرياتهم في هذه الناحية ويتسع مداها . غير ان تلك الحريات مع هذا تأخذ شكلاً منظماً لاشكلاً فردياً مهماً . وتنعكس الآية فيما يتعلق بالسلطة القائمة حيث

تتضاءل حريتها في بعض المجالات من حيث عدد تلك المجالات وسعة الحرية في كل منها .

.....

يبدأ جون ديوي بحثه فيما يتصل بمعنى الحرية في الوقت الحاضر بتوجيه طائفة من الاسئلة ثم يحاول تلمس اجوبة يراها ووجهة ، لتوضيح وجهة نظره فيما ينبغي ان تكون عليه الحرية في هذا العصر الذي نعيش فيه . ومن اعم تلك الاسئلة ما يلي : ما الحرية ؟ ولماذا يرغب الناس فيها ؟ ايرث الانسان الميل الى الحرية كما يرث صفاته الجسمية ؟ ام ان الحرية شيء مكتسب يأتي الى الانسان من البيئة الاجتماعية التي يشاركها حياتها كما يأتيه اسمه ودينه ومقاييسه في السياسة والاخلاق ؟ هل الحرية غاية بحد ذاتها ؟ ام انها وسيلة لتحقيق غايات اخرى ؟ هل ينبغي حتماً ان يرافق الحرية شعور بالمسؤولية ؟ ام ان الحرية تعني ان يفعل المرء ما يشاء ؟ هل تعني الحرية التحرر من جميع القيود ؟ ام انها تقتصر على التغلب على بعض القيود تحت ظروف سياسية واقتصادية معينة ؟ واذا كانت الحرية تعني التحرر من بعض القيود فهل يزول الميل للحرية عند زوال تلك القيود ؟

يقول ديوي ان تلمس الاجابة المقنعة على هذه الاسئلة ليست من الامور الهينة ، وان الباحث ، لكي يحاول ان يجيب عليها اجابة مشرفة ، ينبغي له ان يلم بعلم النفس فيما يتصل بمعرفة الطبيعة البشرية ، وفي علم الاجتماع فيما يتعلق بمعرفة القوى الاجتماعية التي يخضع المرء لها فتتمدد طبيعته وسلوكه . ثم يقول : انني شخصياً اميل الى الاعتقاد ، وربما كنت غير محق ، بان الحرية الفردية شيء مكتسب يتعلمه الانسان من البيئة الاجتماعية التي يشاركها حياتها . لذلك ترى معنى



الحرية الفردية يختلف باختلاف الزمان والمكان . وبما ان الحرية تظهر في المجتمع البشري بأشكال مختلفة فإن الانسان في العادة يدعو الى تحقيق الشكل الذي يرى ضرورة وجوده في زمانه ومكانه معتبراً فقدانه فئدانا للحرية بكاملها وتحقيقه تحقيقاً لها . والحرية ، بنظر جون ديوي ، وسيلة لا غاية بحد ذاتها . اي ان الانسان عن طريق تمتعه بالحرية يسعى الى تحقيق غايات اخرى . ثم ان الحرية ينبغي ان يصاحبها شعور بالمسؤولية والانتقلت الى فوضى وفقدت اهميتها من الناحيتين الفردية والاجتماعية . وناحية المسؤولية في الحرية هي الجانب الاجتماعي الذي تدير تصرفات المرء وفق هديه وتوجيهاته . وهذا الجانب ، كما يقول ديوي ، هو الذي يجعل الانسان يزن تصرفاته وزناً اجتماعياً من حيث آثارها ونتائجها عليه وعلى الآخرين في المدى القريب والبعيد ، وهو الذي يعصم الانسان من الاستسلام الى الجموح في تصرفاته . وبما ان الحرية تظهر بأشكال مختلفة وتتكون من جوانب متعددة فإن ميل الانسان لا يزول بمجرد تحقيقه النوع الذي يرى ضرورة تحقيقه بالنسبة لظروفه الزمانية والمكانية ذلك لان الحياة عملية مستمرة وعلاقات الافراد ومصالحهم تتأثر بالزمان والمكان المتغيرين باستمرار الامر الذي يؤدي دائماً الى الدعوة الى تحقيق انواع جديدة من الحرية . اي ان تظمين الانسان ، بعبارة اخرى ، لجانب معين ( او اكثر ) من جوانب الحرية يدفعه حتماً ( نظراً لطبيعة الحياة نفسها ) الى المطالبة بتحقيق جوانب اخرى تختلف باختلاف الزمان والمكان . هذا من جهة ومن جهة ثانية فإنه ما دام المجتمع الانساني ناقصاً من ناحية نشر العدالة الاجتماعية باكملها بين الناس ، وما دام بعض الناس يتمتعون بحريات اكثر من غيرهم على اساس غير اساس العدالة الاجتماعية فإن الميل الى المطالبة

بالحرية عند بعض (مع تغيير في نوع هذا البعض ومقداره باختلاف الزمان  
والمكان) سيبقى ما بقي المجتمع الانساني .

وإذا سلمنا بان الحرية شيء مكتسب يتلقفه المرء من بيئته الاجتماعية ( كما  
يتلقف عاداته وعقائده في الدين والاجتماع ) جاز لنا ان نقول بان تحقيقها ( في  
الوقت الحاضر على كل حال ) لا يتم الا عن طريق التنظيم الاجتماعي والتشريع  
السياسي . وهذا يعني ان المرء يكتسب حديثه بوساطة تداخل الحكومة في تعيين  
ماله من حقوق وما عليه من واجبات غير ان تداخل الحكومة في تعيين حقوق  
الافراد وواجباتهم ، كثيراً ما يتم بشكل يحدد حريات الافراد ويقلصها ان لم يقض  
عليها . والمشكلة الكبرى التي ينبغي مواجهتها عند بحث تداخل الحكومة في  
تعيين مال الفرد وما عليه هي نوع ذلك التداخل ومداه . اى كيف تتداخل  
الحكومة تداخلاً معقولاً في هذا الصدد فلا تترك المبل على الغارب للافراد  
يعملون ما يشاؤون تحت ستار الحرية وفي الوقت نفسه لا تضغط على الحرية  
فتصادرها تحت شعار التنظيم الاجتماعي والقضاء على الفوضى . هذه مشكلة اجتماعية  
عويضة تواجهها ، بدرجات مختلفة ، جميع الدول المعاصرة . وقد صعب كثيراً  
حلها . وقبل ان يقترح ديوى ما يراه مناسباً لعلاجها يعود مرة اخرى لبحث  
الحرية بمعناها الاجتماعي .

يقول ديوى ان الحرية الفردية ، من الناحية الاجتماعية ، تتحقق بوساطة اعادة  
النظر في قضية توزيع علاقات افراد مجتمع من المجتمعات في وقت ومكان معينين  
لغرض وضعها على اسس جديدة . أي ان الحرية تستند في وجودها على اجراء  
عملية تغيير في كمية حصص الافراد والجماعات التي تكون ذلك المجتمع من حيث

حقوقها وواجباتها بالنسبة لبعضها . فترداد حرية بعض وتنقص حرية بعض آخر من حيث عدد مجالات ظهورها ومن حيث سعة كل مجال منها . وإذا نظرنا الى الحرية من ناحية الافراد الذين تقلصت حرياتهم في المجالات التي مسها ذلك التقلص امكنا ان نعرف الحرية بانها مالا يستطيع المرء عمله في وقت معين وزمن خاص . ذلك لان عدم قدرة شخص من الاشخاص ، من الناحية الاجتماعية ، على القيام بعمل ما ، تحت ظروف معينة ، تعني ، اذا ما نظرنا للحرية من ناحية الافراد الذين ازدادت حرياتهم ، فسح المجال امامهم كي يقوموا بذلك العمل نفسه أو بعمل معين آخر في تلك الظروف ، حسب مبدأ توزيع الحصص الذي المعنا اليه . ويتجلى ذلك بوضوح اذا شبهنا الحرية العامة بركة السباحة ، وشبهنا افراد المجتمع بالسباحين ، فاذا نظمت علاقات السباحين وفق قاعدة عادلة فان تحديد نشاط بعضهم وقتياً وفضماً لتلك القاعدة معناه من الجهة الثانية ، انطلاق الآخرين . وهكذا . وعلى هذا الاساس يمكننا ان نقول : إننا لكي نعرف الحرية السائدة في مجتمع من المجتمعات ينبغي الا ننظر الى ما يستطيع بعض الناس ان يفعلوه فقط ، بل والى مالا يستطيعون ان يفعلوه كذلك . وسبب ذلك راجع ، من الناحية الاجتماعية الواقعية ، الى ان افراد المجتمع ، في الوقت الحاضر بشكل خاص ، يعيشون معتمدين على بعضهم اعتماداً كبيراً . وكلما ارتقى المجتمع سلم التطور الثقافي ازدادت درجة ذلك الاعتماد ، واصبحت اعمال الفرد وآراؤه ذات أثر كبير في غيره من الافراد . فحرية الفرد ، في القول وفي العمل ، متعلقة بحرية غيره اشد التعلق . واذا وقعت مؤقتاً حرية فرد معين في محل ما ، تحت ظروف معينة ، فان ذلك يعني . كما سلف ان ذكره ، بدء تحرك حرية فرد آخر او افراد آخرين . وهكذا . وعلى هذا الاساس لا ينبغي للمرء ان يتصدى للبحث في حرية فرد من الافراد او جماعة من الجماعات البشرية ،

كما سلف ان ذكرنا ، دون ان يأخذ بنظر الاعتبار حرية الافراد الآخرين والجماعات  
الآخري التي تشارك ذلك الفرد أو تلك الجماعة حياتها . ولما كانت مصالح الناس  
متشابكة ، تتراحم بالمناكب وتتدافع بالراح ، لا بد للحكومة من ان تقوم بقسطها  
في تنظيم توزيع علاقات الافراد تجنباً لاصطدام بعض المصالح وابعاداً لعيب بعض  
الافراد بحقوق بعض آخر . ولا بد للافراد ، كي يحافظوا على حرياتهم ويتمتعوا  
بحقوقهم ويقوموا بالتزاماتهم ان يخضعوا للحكومة في هذا المضمار . والافراد ،  
في الاعم الاغلب ، يخضعون للحكومة ، كما يقول ديوي ، يحصلون على قسط من  
الحرية اكبر مما قد يصيبهم في حالة نفذ الحكومة يدها عن القيام بعملية التوزيع  
كما انهم كذلك يتخلصون من كثير من اوجه الكفاح السليبي حين تحاولتهم غمط  
حقوق بعضهم وتوسيع مجالات حريتهم على حساب اشخاص آخرين . غير ان  
اعضاء الحكومة ، من الجهة الثانية ، قد لا يترددون عن اساءة استعمال سلطتهم  
فيقتلون الحرية تحت ستار الدفاع عنها وذلك عن طريق تمتعهم بكميات من الحرية  
( من حيث عدد المجالات وسعة كل منها ) يسلبون قسماً كبيراً منها من افراد  
الشعب بطرائق شتى . أي ان اعضاء الحكومة قد يصل غرامهم بالسلطة التي  
يمارسونها حداً يجب لهم وضع اكبر كمية ممكنة منها في ايديهم وتقليص حريات  
الآخرين وسلطاتهم الى حد يقربها من التلاشي لغرض استعمال سلطتهم تلك للقضاء  
على من تحدته نفسه ان يحاول احداث تغيير في الوضع العام تتعرض معه الهيئة  
الحاكمة الى الخطر . والحكومة التي يقل الجموح في تصرفاتها المتعلقة بالحرية  
الفردية هي التي تكون منبثقة عن الشعب . والعكس صحيح كذلك .

فهل هناك من وحدة قياسية يمكن ان يتفق عليها الحاكم والمحكوم في تعيين

مدى الحرية التي ينبغي ان يتمتع الفرد بها سواء أكان حاكماً أم محكوماً؟ لاشك ان الاتفاق لا يتم بسهولة حتى في تعيين وحدات قياسية متفق عليها تتعلق بالاوزان والاطوال وغيرها من الامور المادية . فالوحدات المستعملة لقياس الاطوال والاوزان لا تختلف باختلاف الاقطار حسب بل هي كذلك تختلف احياناً باختلاف القطر نفسه في زمنين مختلفين ، أو في القطر نفسه واسكن في منطقتين منه مختلفتين ، ويتعقد الامر كثيراً بطبيعة الحال فيما يتعلق بايجاد وحدات قياسية متفق عليها لقياس الامور المعنوية كالحرية والنظام والعدل وما شاكلها . غير ان ديوي ، مع هذا ، يعتقد بإمكانية حصول مثل تلك الوحدة . هي بنظره المصلحة العامة التي تسمو فوق مصالح الافراد سواء أكانوا حكاماً أم محكومين . والمصلحة العامة بنظره تتضمن رفع مستوى جميع ابناء الشعب ( بغض النظر عن جميع الاعتبارات) من الناحيتين المادية والفكرية ، وجعلهم جميعاً يتناسمون خيرات البلد بشكل عادل ويساهمون في ادارة شئونه كل حسب كفاءته واختصاصه كما يقدرها العلم الحديث . وليسير وفق تلك الوحدة القياسية ينبغي للحاكم ان يوجه لنفسه طائفة من الاسئلة قبل ان يقوم بأي عمل معين أو سن تشريع من التشريعات الاجتماعية والسياسية فيقول مثلاً : ما المصلحة العامة في مثل هذا التشريع ؟ هل ان في الامكان سن تشريع آخر يؤدي الغاية نفسها في الظروف الراهنة ولكنه في الوقت نفسه اقل ضغطاً على حريات الافراد من هذا التشريع ؟ هل ان هذا التشريع بالذات ضروري في الوقت الحاضر ؟ كما يجب على المحكوم ان يوجه لنفسه اسئلة مماثلة فيما يتصل بموقفه من ذلك التشريع والتشريعات جميعاً . فيقول لنفسه مثلاً : هل ان موقفي ازاء هذا التشريع ، سواء أكان ذلك الموقف سلبياً أو ايجابياً يتفق هو والمصلحة

العامة؟ هل ان تعاوني مع الحكومة في هذه القضية بالذات يحقق نفعاً - من حيث المصلحة العامة - اكثر منه فيما اذا وقفت موقف المعارض؟ او المحايد؟ هل ان المعارضة أو التأييد أو الحياد تجاه جميع افعال الحكومة وتصرفاتها تتلاءم هي والمصلحة العامة؟ ام ان المرء يجب ان يعارض حيث تكون المعارضة نافعة من ناحية المصلحة العامة؟ ويؤيد كذلك؟ أو يبقى على الحياد؟ واذا سلمنا بان الموقف الاخير هو المفضل فانه، دون شك، كما يقول ديوي، يستلزم حتماً توافر درجة كبيرة من الثقافة وضبط النفس والتحرر من ضيق التفكير والانانية التي يتم تحقيقها على أساس التفريط بالمصلحة العامة. لذلك فالحرية بمعناها النفسي، بنظره، هي القدرة على التصرف المرن المعقول الزامي الى خدمة المصلحة العامة (أو تحقيق المصلحة الذاتية ضمن اطار المصلحة العامة لا على حسابها) في جميع الاوضاع الاجتماعية، وما رفع القيود المادية لغرض تحقيق حرية الحركة الا وسيلة لحرية التفكير والارادة وحسن التصرف. والدعوة الى حرية الفكر لامعنى لها اذا لم يضحبها تعبير لحرية الفكر في مجالات الحياة العملية. ذلك لان الفكر بمعناه النفسي الشخصي غير المعبر عنه حر الى حد بعيد. والدعوة الى حرية الفكر انما هي في الواقع دعوة لتحقيق السلوك الحر الموزون المنبثق عن الفكر الحر. وما رفع القيود السياسية أو الاجتماعية عن شخص لم يصل بعد الى درجة معينة من النضج الفكري (بحيث يتامس ولو بشكل عام نتائج افعاله على نفسه والآخرين في المدى البعيد والقريب بحيث يكون سلوكه موزوناً ورامياً الى تحقيق مصالحه الخاصة ضمن اطار المصلحة العامة) قد يكون عاملاً من عوامل هدم حريته الفردية بدلاً من تحقيقها. اذ ان هذا الفرد يقع عادة في رسة للدعاية أو للسير وفق مصلحة الطمعة أو الانصياع لمواظفه التي ليس لعقله سلطان كبير على ضبطها وتوجيهها.

## الفصل الخامس

### التربية : مجازها وفلسفتها

تشتمل التربية ، من وجهة نظر ديوي ، على جميع الآثار التي تتركها الطبيعة والمجتمع ( بما فيه من تعليم مدرسي وصحافة واذاعة وصلات عائلية وتقاليد اجتماعية وعقائد دينية وسياسية ) في الافراد الذين يتعرضون لآثارها فتتجلى في مظاهر سلوكهم وفي تكوينهم الفكري والعاطفي والاجتماعي . أي ان التربية ، بعبارة أخرى ، حسب رأي ديوي ، تأتي من منبعين : المدرسة ( ابتدائية أو ثانوية أو عالية ) ، والبيئة الاجتماعية وفي مقدمتها البيت بما فيه من نظم وتقاليد ومعتقدات . وفي معرض الموازنة بين اثر البيت واثر المدرسة يميل ديوي الى الاعتقاد بان اثر البيت اعمق بكثير من اثر المدرسة ، وبخاصة في السنوات الخمس الاولى من حياة الانسان . غير ان ديوي ، مع هذا ، يرى ان اثر المدرسة يكون عميقاً فيما يتصل بتكوين المعايير الخلقية والاجتماعية لدى الطلاب وبخاصة في مرحلة التعليم العالي حيث يتعرض الطلاب في العادة الى نوع من التعليم كثيراً ما ينتج عنه تغيير كبير في فلسفتهم الاجتماعية واحكامهم الخلقية المشتقة عنها . ويتوصل ديوي الى القول فيما يتصل بهذه النقطة الى انه اذا جاز لنا القول بان البيت اعمق اثراً من المدرسة في صوغ الاطفال اثناء مراحلهم الدراسية الاولى وبخاصة اذا تذكرنا انفعال المدرسة الابتدائية بصّب المعلومات النظرية الجردة في اذهانهم

الطلاب دون ان تحاول المدرسة بشكل جدي معالجة انماط سلوكهم ومعتقداتهم  
واساليب تفكيرهم فانه لا ينبغي لنا افعال الأثر العميق الذي يمكن ان يتركه التعليم  
العالمي في سلوك الطلاب وفي تبديل كثير من معتقداتهم الدينية والسياسية  
والاجتماعية .

يتضح مما ذكرنا ان ديوي يستعمل كلمة « التربية » لتدل على جميع الآثار  
التي يخضع لها سلوك الانسان بغض النظر عن المنبع الذي تأتي تلك الآثار منه .  
أي ان اهتمام ديوي في التربية ( من حيث الآثار التي تظهر في سلوك الانسان )  
منصب على مجرد حدوث تلك الآثار ، ولا صلة له بنوعها ( أو ما يصح ان يطلق  
عليه بالسلوك الحسن أو الفبيح ) . ولا يكون الفرق بين الناس ، حسب وجهة النظر  
هذه ، من النواحي الخلقية الفاضلة فقط بل يشمل في نظره التربية بمظهرها الحسن  
والسيء . فالتا حين نصم شخصاً بالانعدام التربية أو بقلتها ( عندما نفر من اسائه  
مثلا كلمات بذئية من وجهة نظرنا لا يستطيع احتباسها ) نشير في الواقع الى انعدام  
نوع من التربية لا انعدام التربية اطلاقاً . فكأننا نريد ان نقول ان هذا الشخص  
ليست لديه التربية التي نرضيها له . ذلك لان السلوك الذي يدعوه بعض الناس  
بالقبيح ( الذي يتخذ دليلاً على انعدام التربية أو قلتها بنظر بعض الناس ) ما هو  
الاتاج نوع خاص من التربية - قد لا يكون كذلك من وجهة نظر صاحبه .

ويتجلى اثر التربية ، مهما كان نوعها وبغض النظر عن منبعا في سلوك الافراد  
اذا ما تذكرنا ان الطفل يولد ضعيفاً من جميع الوجوه ، ومحتاجاً ، لكي يستمر على  
الحياة ، الى عناية مستمرة يقوم بها الراشدون من بني جنسه ؛ ويكون هذا المخلوق  
من الناحية الجسمية ، أكثر ضعفاً من صغار كثير من الحيوانات . هذا الضعف  
البادي على الانسان من الناحية الجسمية مصعوب بضعف آخر من الناحية الفكرية



والاجتماعية - اذ يولد الطفل بلا لغة أو قومية أو دين أو أي معتقد من المعتقدات السياسية . ولا يتضح ضعف الطفل بموازنته بصغار الحيوانات حسب ، وإنما هو يتضح كذلك بالنظر له من حيث علاقته بالراشدين الذين يكونون المجتمع الذي يعيش فيه . هذا من جهة ومن جهة ثانية فإن المجتمع يسعى الى تنشئة اطفاله تنشئة تتفق هي وتقاليدده في الحياة ، وهو لا يحاول ان يجعل اطفاله اقوياء في اجسامهم فقط ، بل واقوياء في ايمانهم بسلامة معتقداتهم في الدين والسياسة والاخلاق . وعلى هذا الاساس تصبح الوظيفة الرائدة للتربية ( وبخاصة التربية المدرسية ) هي اشاعة نوع معين من التربية - التربية «الصالحة» . غير ان المجتمعات ، نظراً لاختلاف تقاليدها ومثلها في السياسة والاخلاق ، لا تتفق دائماً على تحديد كلمة «الصالحة» التي لا يختلف معناها باختلاف المجتمعات حسب بل وفي المجتمع نفسه في فترات مختلفة من تاريخه . والتربية الصالحة بنظر ديوي هي التي تربي الناشئة على التعاون للمنفعة العامة ، وعلى الثقة المتبادلة ، والاحترام المتقابل ، وعلى حب الخير واحترام الذات البشرية ، والقدرة على التفكير السليم ، والاعتراف بمبدأ الكفاءة والاختصاص في تدوير شؤون الملك .

يقول ديوي انه اذا كانت التربية تشتمل على جميع الآثار ( الصالحة والطالحة الآتية من الطبيعة والمجتمع والمدرسة ) التي يتكون حسب مقتضاها سلوك الافراد وامزجتهم وانماط تفكيرهم ، فإن التربية قديمة قدم الانسان . اما التربية بمعنى التعليم المدرسي فحديثه التكوين نسبياً . والتربية في الحالة الاولى تنتقل من شخص الى آخر ومن جيل الى جيل آخر ومن مجتمع الى مجتمع بوساطة المشاركة السلوكية المباشرة التي يقوم بها الافراد بطريقة متدرجة في الصعود حسب مراحل نموهم المختلفة من حيث اوجه النشاط التي يبدونها الراشدون في مختلف مناحي

الحياة . أي ان هذا النوع من التربية لا يتم عن طريق التلقين النظري المعروف  
للهم الا فيما يتعلق بالنواحي النظرية للعقائد الدينية والمبادئ الخلقية التي يرى  
المجتمع ضرورة غرسها في نفوس الناشئة تمهيداً لجعلهم يسيرون في سلوكهم وفقاً  
لمستلزماتها . على حين ان اسلوب التلقين هو الشائع في التعليم المدرسي . أي ان  
المدرسة مؤسسة اوجدتها المجتمع لغرض تلقين الاحداث مخلفات السلف من علوم  
ومعارف نظرية وبخاصة تلك التي لا يتسنى للبيت نقلها الى الاطفال نظراً لاتساعها  
من جهة ، ولقلة صلتها بالحياة التي يحياها سكان البيت من جهة اخرى - وهي  
تشمل كما ذكرنا جميع المعارف التي تتضمنها مناهج الدراسة في مختلف مراحل  
التعليم . وقد اخذت المدرسة منذ تشكيلها بتباعد ، مع مرور الزمن ، عن الحياة  
اليومية التي يحياها افراد المجتمع بشكل عام والطلاب بشكل خاص ، شاغلة نفسها ،  
كما سلف ان ذكرنا ، بصب المعلومات النظرية المجردة في اذهان الطلاب لغرض  
الاحتفاظ بها لفترة معينة من الزمن ثم استعادتها منهم ايام الامتحان . ومن يلق  
نظرة مها كانت سريعة الى مناهج التعليم في أي قطر من الاقطار ، ولاية مرحلة  
من مراحل التعليم ، فانه يجد نفسه امام مجموعة كبيرة من المعلومات النظرية المجردة  
المنفصل بعضها عن بعض انفصلاً يكاد يكون تاماً من جهة والتي لاعلاقة قوية  
بينها وبين الحياة اليومية التي يحياها الطلاب خارج جدران المدرسة من جهة  
اخرى . فتؤلف جميع المواضيع المدرسية تقريباً كتلاً مرصوفة من التعاريف  
والاصطدامات والمفاهيم المجردة التي ينوبها عنها كاهل الطلاب . يشرح المدرسون  
للطلاب بعض الدساتير والحقائق المتعلقة بالمعلومات التي سبقت الاشارة اليها  
ويطلبون اليهم استظهارها استظهاراً لفظياً في اغلب الاحيان دون اهتمام كبير  
بفهم تطبيقاتها أو علاقتها بالحياة . فطرق التدريس في العادة تغلب عليها ناحية

التكرار اللفظي الملل . وهي تهدف الى تدريب الطلاب على التذكر دون اهتمام كبير في تعويدهم على التمسك بالذقة في التفسير بله الانتفاع بمعلوماتهم تلك في حل مشكلاتهم الاجتماعية أو العمل على رفع مستوى الحياة العامة للمجتمع بشكل عام . وينصب اهتمام المدرسين ، في الاعم الاغاب ، حتى في المدارس العالية ، على النقل الحرفي من الكتب لغرض ايصال ماني بطونها من معلومات الى الطلاب . فلا غرو ان اصبح هم الطلاب رجوع ما يتساهونه من تلك المعارف النظرية الى المدرسين اثناء الامتحان . وقد لا يتردد بمض الطلاب اذا ما خائته ذاكرته أو صرفه عزوفه عن المدرس لجودها ( أو لسبب آخر ) ان يلجأ الى الغش في الامتحان . وقد رافق ذلك كله ونتج عنه ان ترفع التعليم عن العمل الجسمي وانصب اهتمامه على الحفظ اللفظي النظري .

يقول ديوي في معرض التعليق على التلميم المدرسي الشائع ان المدارس بشكهاها المعروف لا تنتمف من يتخرجون منها ان كان المنصود بالثقافة شيئاً اكثر من مجرد حفظ معلومات كثيرة مترابطة أو غير مترابطة ذلك لان الثقافة السليمة بنظرة هي الزود بتلك المعلومات لغرض الافادة منها في التغلب على مشكلات الحياة الخاصة والعامة من جهة ، والعمل المستمر على جعل تلك المعلومات تخدم المجتمع ومن ورائه الانسانية جمعاء من جهة اخرى . وان كل علم لا يرفع من قيمة الحياة للمادية والتفكيرية لصاحبه وللجنس البشري ، أو لا يهذب من خلقه ويرفع من مستويات تفكيره وعواطفه هو عقيم لا طائل تحته ، وربما يكون ضرره اكثر من نفعه . غير انه من المحزن ان يقال عن التلميم الشائع بانه ابد ما يكون عن ذلك منذ نشأته حتى كتابة هذه السطور . ومن مظاهر الضعف الاخرى في التلميم الشائع ، بنظرة ، ضعف الروابط الروحية بين الطلاب واساتذتهم من جهة وبين الطلاب انفسهم

من جهة اخرى . وباستطاعة الباحث ان يصف تلك العلاقات بانها في الاعم الاغلب علاقات شكلية متكلفة وميكانيكية ، وهي مبنية في اسسها على ما يستطيع الطالب ان يحصل عليه من منفعة ذاتية ، مادية ، في الغالب ، كالدراجات العلمية . هذا الى ان كثيراً من الطلاب يمتدرون المدرسة نوعاً من السجن الاختياري لا يبرر بقاءه فيه واستمراره على الخضوع لانظمته الا للنجاح في آخر العام . وتعتبر العطل المدرسية نوعاً من الهروب المؤقت من هذا السجن . ومن الادلة على ذلك ان بعض الطلاب يحاول ان يرعج بعض المدرسين ، ويعبث ببناية المدرسة أو اثاثها ، بمختلف الوسائل . ومن الطريف ان نذكر في هذه المناسبة ان الكثيرين من الطلاب يمتدشرون بغياب احد مدرسيهم ، بغض النظر عن سبب ذلك الغياب ، ولعل ذلك راجع الى ان ذلك الغياب يخفف جزءاً من العبء الملقى على عواتقهم من الناحية التلميمية النظرية . ومن المظاهر الاخرى في التعليم الشائع انه لا يمس اخلاق الناشئة ولا مثلهم العليا وفلسفاتهم الاجتماعية مساً عميقاً لانشغاله ، كما ذكرت ، بالتلقين والحفظ . وهو بوضعه هذا يهيء الطلاب ، تهيئة غير مقصودة ، ليقعوا فريسة للدعاية وتقبل كثير من الآراء والمبادئ تقبلاً عاطفياً ليس للتفكير نصيب كبير فيه . ويتضح خطر هذه الصفة من صفات التعليم المدرسي الشائع في الوقت الحاضر اذا ما تذكرنا اننا نعيش في زمن انتشرت فيه الدعاية انتشاراً كبيراً وتعددت اساليبها . ومما يؤسف له حقاً ، كما يقول ديوي ، ان التعليم الشائع لا يحلول القضاء على ما كانت قد غرسته البيضة ( وبخاصة البيت ) في نفوس الناشئة . من تعصب ديني أو مذهبي أو اقليمي كثيراً ما يتخذ اساساً ، بطريقة لاشعورية ، للحكم على قيم الاشخاص أو الاشياء أو الاحداث .

يقول ديوي ، من الجهة الثانية ، ان سياسة التعليم تتأثر بالسياسة العامة للبلد

الذي ينشأ فيه . وكل اضطراب أو قلت في الوضع العام للمجتمع يرافقه حتماً  
تبلبل في سياسة التعليم واهدافه ووسائل تحقيقها . فكأننا ، والحالة هذه ، ندور  
في حلقة مفرغة لايسهل الخروج منها : يتأثر التعليم بالسياسة الامامة التي هو جزء  
منها وتتأثر السياسة العامة بنوع التعليم الذي انشأته لكي يحافظ على كيانها .  
ولا تستطيع التربية السليمة اداء مهمتها الا اذا اصبحت سياسة التعليم مستقرة  
واهدافه واضحة وسليمة وخططه شاملة وعميقة ومرنة ، واذا استقر التعليم  
( والاستقرار غير الجمود ) واتضح اهدافه وسامته ، وكانت خططه شاملة  
وعميقة ومرنة اصبحت اداة فعالة في توجيه المجتمع وفي استقراره شريطة ان توجه  
ذاك كله وتنفذه ايداً نظيفة وبارعة تشعر بمسئولياتها الاجتماعية وتحرص على اداء  
واجباتها ، ولجانب التنفيذ أو التطبيق ، فيما يتصل بالخطط والاهداف ، على رأي  
ديوي ، الارجحية على جانب الصوغ على الرغم من ترابط الجانبين . ذلك لان  
وضع الخطط السليمة لا يؤدي من نفسه حتماً الى تنفيذها . وربما حدث العكس  
اذا جيء بنوع المحترفين أو الذين لا يرتفع كفاءاتهم الى مستوى المسئوليات المطلوبة  
منهم . ويكفي للبرهنة على وجاهة ذلك ان نتذكر ان الكثيرين من الناس في كثير  
من الاقطار في الوقت الحاضر يشكون شكوى مرة لامن سوء الانظمة والقوانين  
المتعلقة بالتعليم وبغير التعليم بل من تعطيل تطبيقها ومن جموح بعض المشرفين على  
تنفيذها عن الصراط المستقيم .

يتضح مما ذكرنا ان للتعليم السائد في الوقت الحاضر آثاراً كثيرة ، فكرية  
وخلقية ، غير مرغوب فيها . اهمها ، كما سيأتي ان ذكرنا ، انصباب اهتمام كثير من  
الطلاب ، فيما يتصل بمجهودهم المدرسية ، على مجرد ارضاء المدرس للحصول على  
الدرجات العالية . ولا غرو ان يخرج الكثيرون منهم يعوزهم الاعتراز بالكرامة

ويهتمقرون الى التحن بالصراحة في الدفاع عن آراء يعمقون بصحتها . ومن  
المؤسف حقاً ان تحاول المدرسة ومن ورائها الحكومة بتشكيلاتها المختلفة اذلال  
المدرسين والطلاب ورميهم بشئ انواع التهم في حالة تكوينهم لآراء خاصة بهم  
ودفاعهم عنها بجرارة وايمان ، متجنبه مهمتها في الارشاد والتوجيه في هذا  
الشأن . يرافق ذلك وينتج عنه ان يصبح كثير من المدرسين والطلاب « مزدوجي  
الشخصية » كما يقول الباحثون الاجتماعيون ، فيستخذي الشخص امام رئيسه  
ويستضري امام مرؤوسه .

.....

يعتمد ديوي بان امر التفكير في مسألة ربط المدرسة بالمجتمع ، أو تكوين  
جسر يصل بينهما قد اصبح مشكلة من اعوص مشكلات فلسفة التربية في الوقت  
الحاضر . فلا غرو ان دعا الى ضرورة جعل الصلة بينهما وشيجه . وبقدر ما يتعلق  
الامر بالمدرسة نراه يقترح ان ينصب اهتمامها باستمرار على جعل مناهجها واساليب  
تدريسها وجميع تصرفاتها متجهاً الى ضرورة جعل طلابها يتزودون بالمعرفة العلمية  
والاجتماعية السليمة لغرض رفع مستوى تفكيرهم وعواظفهم وسلوكهم ومسئولياتهم  
الاجتماعية خدمة للمصلحة العامة وبما ان تلك المعارف يتعلق شطر منها بتقاليد  
كل مجتمع ومثله العليا في السياسة والاخلاق ، وبما ان تلك التقاليد والمثل تختلف  
باختلاف المجتمعات اصبحت التربية ، في بعض وجوهها ، مختلفة ، من حيث اهدافها  
ووسائلها وموضوعها ، باختلاف المجتمعات كذلك . اي ان الاسس العامة لفلسفة  
التعليم في كل مجتمع من المجتمعات البشرية مشتقة من الفلسفة العامة للمجتمع  
الذي ينشأ ذلك التعليم فيه . ولا بد لمن يتعمدى للبحث في نوع التربية السائدة

في مجتمع ما إلا بفعل امر البحث في نوع العقائد والتقاليد والمثل العليا في الدين والاخلاق التي تنتظم المجتمع الذي يخضع له ذلك التعليم .

.....

غير ان الباحث ، من الجهة الثانية ، يستطيع ان يقول ان تاريخ الفلسفات الاجتماعية للجنس البشري يشير الى ان هناك اتصالاً مستمراً بينها من جهة ، وتأثيراً متبادلاً بينها من جهة اخرى . ومع التبادل الذي اشرنا اليه ، فان الفلسفات الاجتماعية للشعوب القوية في تنظيماتها العسكرية وتشكيلاتها السياسية تصبح في العادة بوضع يساعدها على التقلب على الفلسفات الاجتماعية للشعوب الضعيفة ، هذا اذا حدث اتصال من أي نوع كان من تلك الشعوب ، قويتها وضعفها ، سواء أ كان ذلك الاتصال ايجابياً ، كما هي الحال في التجارة والاسفار ام سلبياً ، كما يحدث في الحروب والمنازعات . والفلسفات الاجتماعية كلها تقريباً تتضمن عنصرين رئيسيين يستحيل الفصل بينهما من الناحية الواقعية . يتجلى احدهما في نظرة المؤمنين بتلك الفلسفة الاجتماعية الى طبيعة الكون وموقع الانسان فيه من جهة ، والى نوع العلاقة بين الانسان وقوى الطبيعة من جهة ثانية . ويتضح العنصر الآخر في نوع صلة افراد المجتمع ببعضهم وبالمهينة الحاكمة من جهة ، وفي نوع الاحكام التي يصدرها افراد ذلك المجتمع على قيم الحوادث والاشياء والاشخاص من جهة اخرى .

وللفلسفة الاجتماعية بعنصرها على الفرد سلطان قل ان يتم ، فأثارها موجودة في تكوينه النفسي والاجتماعي ، في اعماله واقواله ، في تفكيره وعواطفه ، بشكل يستحيل معه في كثير من الاحيان فصلها عنه اللهم الا تعرض الدراسة النظرية التحليلية . فلا غرو ان اصيحت الصلة وشيجة بين الانسان والفلسفة الاجتماعية التي

يدين بها الامر الذي يجعل تلك الفلسفة ( في حال عدم استبداله بها فلسفة اخرى ،  
وحتى في حالة عزوفه عن جميع الفلسفات اذ ان عدم وجود فلسفة معينة للشخص  
هو فلسفة بحد ذاته ) ترافق صاحبها من المهد الى الابد . غير ان عمق اثر الفلسفة  
( ومداه ) في سلوك الانسان يختلف باختلاف مدى الصلة بينهما . وكلما انقطعت  
الصلة بين الانسان وفلسفات المجتمعات الاخرى التي تختلف عن مجتمعه كان اثر  
فلسفة مجتمعه في سلوكه عميقاً وواسعاً يصعب استئصاله والمكس صحيح كذلك .  
فلا غرابة ان جاء نقد الفلسفة الاجتماعية ( السائدة في قطر معين ) من الاشخاص  
الذين اتاحت لهم ظروفهم فرصة الاحتكاك بافراد يؤمنون بفلسفات اجتماعية اخرى ،  
أو تسنى لهم الاتصال الفكري عن طريق الدراسة المنظمة أو العارضة ، بتلك  
الفلسفات . وربما كان سبب ذلك راجعاً الى ان هذه الصلة الفكرية بالفلسفات  
المختلفة تهى أصحابها مؤقتاً الى ان ينظروا الى الفلسفة الاجتماعية ( التي نشأوا  
وهم يتعرضون لتأثيرها ) بشيء من الموضوعية والتجرد العاطفي فيما يتصل بما لها وما عليها .  
تمتاز الفلسفة الديمقراطية من الناحية النظرية كما يحدثنا ديوي بأنها قائمة على اساس  
الاهتمام بالفرد واحترام آرائه وصون حقوقه على القدر المستطاع وعلى الشكل الذي  
لا يبخس الآخرين حقوقهم . والفلسفة الديمقراطية قائمة كذلك على اساس اعتبار  
الحكومة وسيلة يستعين بها افراد الشعب في تنظيم علاقاتهم السياسية والاقتصادية  
والثقافية ، وان على الشعب وفق الاسس البرلمانية المعروفة الحق في تغيير الحكومة  
التي يرغب عنها . في حين ان الجناح الايمن من الفلسفة الجبرية تبنى على اساس  
ان للحكومة مطلق التصرف بشؤون الشعب من الناحيتين الداخلية والخارجية ،  
وان الشعب فاقد لتأثيره في توجيه سياسة الحكومة في اسسها وفي تفاصيلها ،  
وليس له كذلك حق تغيير الحكومة التي لا يرغب فيها أو حق التفكير في احداث



مثل ذلك التغيير . اما الجناح الايسر من الفلسفة الدكتاتورية فهو وان كان مبنيًا في اسسه النظرية على اسس قريبة من الاسس الديمقراطية الا انه في وضعه الانتقالي الحاضر ( كما يبدو في الاتحاد السوفياتي ) لا يسير بهذا الاتجاه بل باتجاه يقرب من الاتجاه النازي - الفاشي من حيث سيطرة الحكومة المطلقة على الشعب واخضاعه الى حكم دكتاتوري عنيف يحمي على الناس انفسهم السياسية والاجتماعية ويحاسبهم وفقاً لذلك . اي ان جناحي الفلسفة الجبرية يشتركان ( على الرغم مما بينهما من فروق كثيرة ) في السيطرة على الفرد والحد من نشاطه الفكري وتوجيه سلوكه العام توجيهاً خاصاً يجعله متفقاً ( أو غير متعارض على الاقل ) مع اهداف الحكومة . يضاف الى ذلك ان الفلسفة الجبرية بجناحيها تعتبر ان من حق الحكومة استعمال جميع الوسائل الزجرية الممكنة ( كالنفي والسجن والشنق الخ ) للقضاء على من تحدته نفسه ان يخرج على طاعتها . غير انها ، من الجهة الثانية ، لا تسمح للشعب أو بعضه ان يفعل ذلك . فاستعمال القوة المادية كوسيط لحل النزاع بين الحكومة وخصومها في هذا النوع من المجتمعات ، حسب منطق فلسفتها ، حق من حقوق الحكومة صيانة الامن ومحافظة على النظام ، اما اذا لجأ الشعب أو بعضه الى ذلك فانه يعرض نفسه لشتى صنوف العقاب . على حين انه لا يجوز ، حسب رأي ديوي ، في الفلسفة الديمقراطية ان تلجأ الحكومة أو الشعب الى استعمال العنف كوسيط لحل المشكلات الاجتماعية في الحالات الشاذة النادرة التي تتعارض هي وروح الفلسفة الديمقراطية . فالاجوء الى العنف في حل مشكلات المجتمع هو القاعدة في الفلسفات الجبرية . والعكس هو الشائع في الفلسفة الديمقراطية . أي ان في كليهما سلباً وعنفاً ولكن مع اختلاف الدرجة والمدى .

ويجدر بنا ان ننبه القارئ في هذا الصدد الى اننا لحد الآن كنا نتكلم عن

الفلسفة الديمقراطية والجبارية من الناحية النظرية بشكل عام . اما جوانبها التطبيقية فتبدو واضحة في كثير من الاقطار في الوقت الحاضر . غير ان المشاهد يدل ، كما يقول ديوي ، من الجهة الثانية ، على انه لا توجد في الوقت الحاضر ( من حيث سلوك الشعب وتصرفات الحكومة ) دولة ديمقراطية مثلى في جميع تصرفاتها ، سواء اكانت تلك التصرفات متعلقة بشعوب ( أو حكومة ) دول اخرى بشعبها أو حكومتها من جهة ، أو بعلاقة افراد شعبها ببعضهم وبحكومتهم من جهة اخرى . وعلى هذا الاساس يمكننا ان نقول ان في الدول الديمقراطية كثيراً من الصفات غير الديمقراطية ، وان في الدول الدكتاتورية كثيراً من الصفات غير الدكتاتورية ، والفرق بينهما ينحصر في مدى تغلب احدى هاتين الصفتين على زميلتها . تتغلب الاولى على الثانية في المجتمع الديمقراطي . وتنعكس الآية في المجتمع الثاني . وبما ان ديوي يسلم من حيث الاساس بتفضيل المبدأ الديمقراطي لذلك مجده يعتبر نواحي الضعف في المجتمعات الديمقراطية المعاصرة ناتجة عن وجود الصفات غير الديمقراطية في تصرفات حكوماتها وشعوبها من الناحيتين الداخلية والخارجية . اما نواحي القوة في المجتمعات الجبارية فناتجة ، بنظره ، عن وجود الصفات غير الدكتاتورية في تفكير شعوبها وحكوماتها وفي تصرفاتها من الناحيتين الداخلية والخارجية .

.....

ذلك من ناحية التفكير العام للمجتمع . اما صلة ذلك بالتربية فيقول ديوي : ان حكومات الدول الديمقراطية والجبارية تتخذ ، مع اختلاف اساس في الاهداف والوسائل ، من التربية ، وبخاصة التعليم المدرسي ، وسيلة لفرس مبادئها العامة في الاجيال المتعاقبة لافراد مجتمع كل منهما . وتسعى حكومات كل منهما سعياً

حينئذ ، مستعينة بجميع الوسائل الممكنة ، لتثبيت تلك الاسس وجعل الصحافة  
والاذاعة وغيرها من وسائل النشر والاتصال الفكري ، على القدر المستطاع ،  
وضمن امكانية كل منهما وما تسمح لها به قوانينها المرعية ، متعاونة مع المدرسة  
في اداء مهمتها على وجهها الاتم . وعلى هذا الاساس يحاول المشرفون على شؤون  
التعليم في حكومات الدول الجبارية تدريب الناشئة على اطاعة زعماء البلد ، في  
الماضي والحاضر ، وتعويد الناشئة على احترام القادة العسكريين والسياسيين وتقبل  
آرائهم دون مناقشة . أو تردد . ولعل من المناسب ان نشير هنا الى ان هناك فرقاً  
جوهرية ، من الناحية النظرية ، بين منزلة الزعيم في النظام الجباري الايمن وبين  
منزلته في النظام الجباري الايسر . فقد تمتع هتلر في المانيا طوال وجوده في  
الحكم بقدسية روحية بالاضافة الى قدسيته الزمنية ، واصبح بنظر اتباعه رمزاً  
للقوة والحق . على حين ان ستالين لم يتمتع طوال حياته الا بقدسية زمنية .  
ولسكن قدسية هتلر ، بعنصرها الزمني والروحي ، مع هذا ، لم تكن اكثر سيطرة  
على اتباعه من قدسية ستالين ذات العنصر الزمني . ولعل سبب ذلك راجع الى  
اختلاف في طبيعة كل من الفلسفتين النازية والشيوعية من حيث نفاذ كل منهما  
الى اذهان اتباعها وعواطفهم وسلوكهم . ويدل المشاهد على ان الشيوعية اكثر  
نفاذاً الى نفوس كثير من الناس واكثر سيطرة عليهم من النازية . وعلى هذا  
الاساس يمكننا ان نقول انه اذا كان المبشرون بالبدء النازي بحاجة الى ادخال  
العنصر الروحي لسكسب ولاء الجماهير لزعماءهم فان دعاة المذهب الشيوعي  
لا يحتاجون الى شي . اكثر من مجرد ذكر اسم ماركس مضافاً اليه مبدأ ككفاح  
الطبقات مثلاً لسكسب مثل ذلك الولاء . ولدفع الجماهير زرافات ووحدانا نحو  
فعل ما يريدون منهم ان يفعلوه .

يسعى المهيمنون على شؤون التعليم في حكومات الدول الجبارية جهد طاقة لهم لكسب ولاء الطلاب ، من الناحية العاطفية ، لتعاليمهم الفلسفية والاجتماعية ، ولا يشجعون التفكير أو النقد عند الطلاب الا بالقدر الذي يجدون انفسهم بحاجة اليه وعلى الشكل الذي يريدونه . ويسود في مدارسهم نوع من النظام الجامد ، لا يختلف كثيراً عن النظام المعروف لدى ضباط الجيش والجنود . فيخضع الطلاب ، نتيجة لذلك ، لسلسلة متصلة الحلقات من الواجبات ولا يتمتعون الا بمقدار ضئيل من الحقوق . هذا الى ان المربين ( ومن ورائهم الحكومة بتشكيلاتها المختلفة ) يزعون الى اثاره الشعور بالخوف من عدو خارجي لدى الطلاب وبخاصة في المراحل الاخيرة من التعليم كي يكسبوا ولاءهم للحكومة من جهة ، ويضمنوا وحدتهم الداخلية من جهة اخرى . ويتخذ المربون ، للغرض نفسه ، من ماضي الامة وحياة رجالها وسيلة فعالة لغرس حب الامة في نفوس الطلاب والدفاع عن مجادها . وبعبارة اخرى ، يحاول جميع المسؤولين في الدولة ، كل بأسلوبه الخاص وضمن نطاق عمله ، جعل الناشئة تؤمن ايماناً قوياً بسلامة مثلها العليا وعقائدها وتقاليدها . فلا غرو ان رأينا جميع الموظفين وبخاصة المشتغلون بالتعليم خاضعين لادارة مركزية عنيفة تتسلسل فيها الالقاء والرتب وتسير فيها الاوامر باستمرار من المركز الى الاطراف . وبالعكس . ويكون الواجب الاساس للمدرسين من حيث صلتهم بالوضع القائم ان يبشوا الولاء لتثبيت ركائز ذلك الوضع . ويقاس مدى نجاح المدرسين في القيام بامهامهم بمدى استطاعتهم ان يبشوا الولاء للحكومة بين الطلاب ويجعلوهم يسرون في تصرفاتهم وفق اهدافها . واذا تقاعس احدهم عن ذلك الواجب ، أو اعتقد المسؤولون بانه تقاعس تعرض الى صنوف من الازدى تناسب هي ونوع التقاعس الذي اسند اليه ومداه .

اما التربية في البلاد الديمقراطية فتتحو منحي معاكساً للتربية التي شرحناها .  
فليست هي مركزية ( الاماندر ) . وهي مبذية في اسسها النظرية ( على كل حال )  
على مبدأ التعاون المتبادل لابن الطالب والمدرس حسب بل بين جميع المشتغلين  
فيها بغض النظر عن مراكزهم الاجتماعية ونوع الوظائف التي يشغلونها . هذا الى  
انها تهدف الى تربية التفكير والنقد عند الطلاب ، وتسمى الى تعاونهم على التعاون  
واحترام آراء غيرهم من طلاب واساتذة وما شاكلهم وان اختلفت عن آرائهم .  
ويتمتع الطلاب ، في النظام الديمقراطي بحقوق لا تقل اهمية وسعة عن الواجبات .  
ويكون احد اهداف التربية في التعليم الديمقراطي هو ان يعتاد الطلاب على الدفاع  
عن آرائهم والمحافظة على كرامة كل منهم ، والتمتع بحرية لاتقيض من المسؤولية  
الاجتماعية . ولكن دفاعهم عن آرائهم ، مع هذا ، لا يجذب الا على الشكل الذي  
يعطيهم مجالاً للتعبير عنها وتوضيحها ، لا ان يجعلهم يستخفون بآراء الآخرين أو  
يحاولون ان يقضوا عليها . وهم يتشربون كذلك في العادة بفكرة ترك الآراء التي  
يظهر بطلانها ، أو تصبح صعبة الانسجام مع منطلق العلم وروح العصر الذي  
يمدشون فيه . ومما تجدر الاشارة اليه في هذا الصدد هو ان الآراء التي يسمح  
باعتناقها والدفاع عنها أو التبشير بها يجب ان تكون جارية ضمن اطار النظام  
الديمقراطي نفسه ومنسجمة مع روح التسامح العلمي واحترام الآراء المختلفة .  
غير ان المذهب الديمقراطي مع هذا لا يشجع الآراء التي من شأنها ان تستأصل  
روح التسامح العلمي وتدعو الى وأد الآراء التي تخالفها . اي ان الديمقراطية  
شأنها كشاف غيرها من النظم الفلسفية ، لا تسمح الآراء التي تناهضها بالظهور  
والانتشار باساليب غير ديمقراطية كي تحافظ على نفسها وتضمن بقاءها .

يؤمن ديوي بان اوظيفة الاساس للتربية في البلاد الديمقراطية ينبغي ان تنصب على استئصال جذور الاندفاع والقيش الفكري عند الناشئة . والاندفاع بنظر ديوي ، هو التسرع في اصدار الاحكام على قيم الاشخاص أو الحوادث أو الآراء من الناحية الفكرية ، أو القيام باعمال اندفاعية مرتجلة تفتقر الى الدقة والتريث من الناحية العملية ، أو هو توافر الجانبين ( الفكري والسلوكي ) . والاندفاع في الحالة الاولى اقل خطراً على كيان الفرد والمجتمع منه في الحالة الثانية ، ويبلغ خطر الاندفاع نهايته في الحالة الثالثة . ويقول ديوي اذا نظرنا لظاهرة الاندفاع ، من زاوية اخرى ، اصبح بمقدورنا ان نصف تلك الظاهرة بانها محاولة غير ناضجة يبذلها بعض الناس في بعض الاحيان عندما يحاولون حل مشكلة من المشكلات التي يواجهونها بغض النظر عن نوع المشكلة ومقدار صعوبتها ، والاندفاع كما سلف ان ذكرنا ، صفة فكرية وسلوكية تعبير النضج الفكري والاتزان السلوكي تمام المغيرة . ولا يشترط دائماً ان تكون هناك صلة كبيرة بين نضج الشخص في تفكيره وسلوكه وبين مقدار السنين التي يصر فيها الشخص في الحياة . اذ ان المشاهد يبرر القول بان كثيراً من الاشخاص الذين تبدو على مظاهرهم امارات النضج يمكن وصفهم بانهم « اطفال » في كثير من تصرفاتهم العامة والخاصة ، من الناحيتين الفكرية والعاطفية . وقد اوجد علماء النفس مقاييس خاصة ( لازالت في بداية تكوينها ) لقياس نضج الانسان من الناحية الفكرية ومن الناحية العاطفية بالنسبة لسنه من الناحية الزمنية . وبهذه الطريقة يكون للشخص الواحد ثلاثة « اعمار » هي عمره الزمني المعروف ، وعمره العقلي ، وعمره العاطفي . وللعلماء في كيفية حساب ذلك طريقة لا ترى لزوماً للدخول في تفاصيلها ، ومن الطريف ان نذكر هنا ان بحوثهم كثيراً ما اثبتت وجود فروق كبيرة بين تلك الاعمار في الشخص

الواحد كأن يكون عمر زيد مثلاً ثلاثين عاماً ، على حين ان عمره العقلي يكون  
عشرين سنة ، وعمره العاطفي خمس عشرة سنة . اي ان زيدا هذا على الرغم من  
انه في عداد الاشخاص الذين تبلغ اعمارهم ثلاثين عاماً فانه ، بمستوى تفكيره  
ونضجه العقلي ، يقع ضمن حضيرة ذوي عشرين السنة من العمر ، ويكون ضمن  
حضيرة من اعمارهم خمس عشرة سنة في نضجه العاطفي .

ويمزو ديوي ظاهرة الاندفاع الى عوامل شخصية او فردية وعوامل اجتماعية  
بيئية . وبقدر ما يتعلق الامر بالجانب الفردي يقول ديوي ان هناك عاملين رئيسين  
تستند اليهما ظاهرة الاندفاع هي : ميل ، ربما كان فطرياً في اسسه ، يدفع الانسان  
الى التسرع في اقواله وافعاله ، ويرافق هذا الميل ميل آخر ، ربما كان فطرياً  
في اسسه كذلك ، يجعل الانسان يميل الى تصديق ما يسمعه او يقرؤه من الآراء  
والحوادث اذا لم يظهر له ما يؤيد بطلانها . اما العوامل الاجتماعية او البيئية فتأتي  
من البيت والمدرسة والمجتمع . وكلما كانت الآراء التي تأتي للمرء من بيئة مندومة  
ومتسرة اصبحت مجال تسرعه كبيراً . والعكس صحيح كذلك . والوسيلة الوحيدة  
التي تساعدنا على معرفة الاشخاص المندفعين هي تأمل سلوكهم ومراقبته وبخاصة  
عندما يجابهون بعض المصاعب او يتعرضون لبعض الازمات النفسية والاجتماعية .

ويظهر الاندفاع في سلوك الافراد بشكل مختلفاً حسب مستوى نضجهم من  
جهة ، وحسب نوع الموضوع الذي يظهر تسرعهم فيه من جهة اخرى . ويتضح  
الاندفاع باجلى مظاهره على شكل تعصب عاطفي لا يدع مجالاً للتفكير والمناقشة  
في تأييد الآراء او رفضها ، او عند محاولة القيام ببعض الاعمال او الامتناع عن  
القيام باعمال اخرى . وسبب ذلك راجع الى ان الشخص المندفع ، في القول او  
المعل او فيهما ، لا ينظر الى الموضوع الذي بين يديه نظرة شاملة وموضوعية

وعميقة ، تتصل به من جميع جوانبه ومن حيث علاقته القريبة والبعيدة بغيره من  
المواضيع ، بل يركز اهتمامه في بعض جوانبه بشكل مجسم مكبر . هذا الاندفاع  
يصيب الامم كما يصيب الافراد . وللاندفاع كثير من الآثار السيئة من الناحيتين  
الفردية والاجتماعية . ويتوقف مدى خطره على مقدار الافراد الذين يحسهم وعلى  
مركز الشخص الذي يتصف به . ومن سوء حظ كثير من الامم - ومن عوامل  
تأخرها كذلك - كما يقول ديوي ، ان يتقلد زمام امورها العامة اناس مندفعون  
ذلك لان مراكرهم تجعلهم في وضع يستطيعون ان يلعبوا على عواطف الناس من  
جهة ، ويطوحوا بالمصلحة العامة في سبيل ارضاء نزواتهم الجائحة من جهة  
اخرى . وللتخفيف من حدة الاندفاع ينبغي تشجيع العوامل التي تستأصله ، وفي  
مقدمتها تعويد الناشئة على التفكير السليم ( الذي نشرحه في فصل قابل ) .





## الفصل السادس

### الاشتراكية<sup>(١)</sup> الديمقراطية

يعتبر جون ديوي من اشهر دعاة الاشتراكية الديمقراطية في الوقت الحاضر .

(١) يجمل بنا ان ننبه القارىء الى انه توجد بشكل عام ثلاثة انواع من الاشتراكية هي الاشتراكية الديمقراطية والاشتراكية الطوباوية ( وهي موضوع بحثنا في المتن وقد نعمتها ماركس واتباعه بالطوباوية أي الخيالية التي لا يمكن تحقيقها لانها تستند في تحقيقها من حيث وسائلها الى التشريع والتفاهم وهي امور ، بنظر ماركس ، غريبة اذ لا يمكن تحقيق الاصلاح المنشود الا بالثورة والعنف ) ، والاشتراكية الوطنية ، والاشتراكية الماركسية . والاشتراكية الوطنية هي الجانب الاقتصادي للحركة النازية التي اوجدها هتلر واعوانه في المانيا بعد الحرب العالمية الاولى . اعتمدت تلك الاشتراكية في وضع قواعدها الفكرية على الفاشية ( التي اوجدها موسوليني واتباعه في ايطاليا آنذاك ) وعلى آراء الفلاسفة الالمان الذين عاشوا في القرنين الماضيين . وبدأت حياتها في حانة الخمر في مدينة ميونيخ عام ١٩٢٠ ، وكتب لها النصر النهائي في الداخل عام ١٩٣٣ الامر الذي قوى الحزب النازي الذي بسط قبضته الحديدي على الفكر السياسي الالمانى وادى الى احداث دكتاتورية عسكرية عنيفة تستند الى الصرامة والعنف والاعتقال والسجن والابعاد والاعتقال للقضاء على خصومها . اما الاشتراكية الماركسية ( وهي التي يبدو انها الآن مطبقة في الاتحاد السوفياتي ) فهي الخطوة الوسطى بين المجتمع الطبقى والمجتمع الشيوعى الذي يدعى حملة المذهب الماركسي بانه مجتمع يقضي فيه وجود الطبقات والحكومة بما فيها من تشكيلات مختلفة ، وتزول فيه جميع مظاهر الاستغلال التي يقوم بها عدد من الناس على حساب اكثرية السكان . وفي الاشتراكية الماركسية ينفي وجود الملكية الخاصة وتصبح وسائل الانتاج ملكاً للحكومة وتصبح المبدأ الاقتصادي السائد « من كل حسب قدرته الى كل حسب اتاجه » وتسود فيها ، من الناحية السياسية دكتاتورية طبقة العمال ( البروليتاريا ) حيث يخضع المجتمع للحكومة مركزية صارمة مثل الحكومة النازية . ويتم الوصول الى هذه الاشتراكية عن طريق « حرب الطبقات » أي الثورة الدموية المسلحة التي يقوم بها العمال ضد الفئمة الحاكمة ، كما حدث ذلك في روسيا عام ١٩١٧ .

وتستند هذه الاشتراكية ، من حيث جذورها التاريخية ، الى الافكار الاشتراكية التي انتشرت في اوربا وبخاصة في فرنسا وانكلترا طوال القرنين الماضيين . وقبل ان تنصدى للبحث في اسس الفلسفة الاشتراكية من الناحية التاريخية يجول بنا ان نشير هنا الى ان المقصود بالاشتراكية ، بشكها العام ، انها حركة فكرية واجتماعية تنزع الى نشر العدل الاجتماعي من الناحية الاقتصادية بين افراد المجتمع جميعاً كل حسب امكانياته الفكرية وكفاءته العلمية في موضوع تخصصه . والاساس الذي تستند اليه الاشتراكية الديمقراطية من الناحية الاقتصادية هو جعل اهم وسائل الانتاج ملكاً للدولة لضمان عدالة توزيع المنتجات والارباح بين السكان . أي ان الاشتراكية الديمقراطية ، مع كونها تؤمن بمبدأ الملكية الفردية الخاصة وتشجع التثبث الفردي ، الا انها لا تشجع ذلك في مجال الصناعات الكبرى والمشاريع الضخمة تفادياً لما قد ينتج عن ذلك من انتفاء وجود العدالة الاجتماعية في توزيع المنتجات والارباح بين المالكين والمنتجين والمستهلكين ، ويختلف حملة هذا الرأي فيما بينهم كثيراً على المجال الذي ينبغي ان يفسح للدولة في صدد الاستيلاء على وسائل الانتاج الكبرى . غير ان الاشتراكيين الديمقراطيين ، مع هذا ، وان اختلفوا فيما بينهم كثيراً على مدى سيطرة الدولة على وسائل الانتاج ، الا انهم متفقون على ضرورة سيطرة الحكومة ( وهي الجهاز التنفيذي للدولة من الناحية السياسية ) على قسم من وسائل الانتاج بالطرق القانونية التشريعية . اي ان الاشتراكية الديمقراطية ، بعبارة اخرى ، تستند الى الديمقراطية السياسية ( لا على دكتاتورية طبقة العمال كما هي الحال في الاشتراكية الماركسية ) . والديمقراطية السياسية مبنية بدورها على اسس التشريع البرلماني المعروف .

بدأ ظهور الاشتراكية الديمقراطية بشكل واضح اول ما بدأ على ما يظن في

القارة الاوربية على اثر مقالة نشرتها المجلة التماونية التي كان يشرف على اصداؤها عدد من اتباع الكتائب الانكليزي روبرت اوين عام ١٨٢٧ ، وفي كتابات الكتائب الفرنسي سانت سايمون في فرنسا في تلك الفترة . واخذت الافكار الاشتراكية بالانتشار مع الزمن فانضحت خطوطها العامة ، من ناحية الفكرة التي تستند اليها ومن ناحية الوسيلة لتحقيقها ، في النصف الاول من القرن الماضي وبخاصة اثناء قيام ثورتي عام ١٨٣٠ و ١٨٤٨ . ومما تجدر الاشارة اليه في هذا الصدد ان الفكرة الاشتراكية كانت في الفترة التي سبقت القرنين الماضيين في اوربا لم تخرج على وجه العموم عن كونها محاولة مستندة الى الجوانب الدينية المسيحية الزامية الى كسب عطف ذوي اليسار في المجتمع لمساعدة الطبقات المحرومة من ابناءه . أي ان الدعوة الاشتراكية ، بعبارة اخرى ، كانت مبنية على اساس كسب عطف الموسرين لتوزيع الاحسان والصدقات على الفقراء . غير انها دخلت منذ منتصف القرن الماضي مرحلة جديدة من حيث اساسها العامة فبرزت فيها الناحية الاجتماعية ، واصبح دعائها ينادون بتحقيق العدل الاجتماعي فيما يتصل بمعالجة الفقر حيث اصبحت تلك المشكلة موضوعاً يهم المجتمع بتشكيلاته السياسية والاجتماعية ، لا امراً مقصوراً على الدعوة التي يوجهها بعض رجال الدين والمصلحين الاجتماعيين لسكسب ولاء المثريين من الناحية العاطفية لتوزيع الصدقات على المعوزين وقد دخلت الفكرة الاشتراكية منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر مرحلة جديدة من مراحل تطورها ، واصبحت قضية معالجة الفقر ولاحقاته ضرورة اجتماعية . وفي تلك المرحلة انتقل مركز الثقل في المطالبة باصلاح الاوضاع الاقتصادية (للطبقات المحرومة) الى تلك الطبقات نفسها باعتبار المطالبة نفسها حقاً من حقوقها المشروعة . وهذا يعني انه قد صار من حق الطبقات المحرومة ان تستعي

بنفسها لتحقيق العدالة الاجتماعية والقضاء على كل ما من شأنه ان يجعل بعض الناس يستغل بعضاً آخر .

يتضح مما تقدم ان الفكرة الاشتراكية بدأت في أول الامر مستندة الى التعاليم الدينية ، ثم انتقلت الى الميدان السياسي والعمل الاجتماعي المنظم داعية المجتمع الى ضرورة التفكير في امر القضاء على الفقر وملحقاته . ومن ثم انتقلت الفكرة الاشتراكية الى الدعوة الى ضرورة قيام الطبقات المحرومة ذاتها بتحرير نفسها من الفقر وملحقاته وملحقاته . وقد انشطر الاشتراكيون في تلك المرحلة الى شطرين ، شطر يدعو ( وهم الاشتراكيون الديمقراطيون الذين نحن بصدد البحث في فلسفتهم ) الى الاستعانة بالنشريع والطرق البرلمانية لتحقيق العدالة الاجتماعية بين الناس . على حين ان كارل ماركس واتباعه نادوا بوجود تكتل الطبقة المحرومة وتكاتفها لتحرير نفسها بطريق الثورة وقلب نظام الحكم للاستيلاء على مقاليدته والتصرف بتوزيع الثروة على اسس جديدة .

تستند الاشتراكية الديمقراطية على اسس كثيرة اهمها ( من الناحيتين الاقتصادية والسياسية ) اعتبارها للمؤسسات الاجتماعية والسياسية بما فيها الحكومة ، وسائل خدمة ابناء الشعب جميعاً عن طريق فسخ مجال العمل والعيش والثقافة لسكل منهم على الشكل الذي يتفق هو وامكانياته الفكرية ( التي تكشف عنها التربية التي تصبح ملكاً مشاعاً لجميع الافراد ) . والاشتراكية تدعو كذلك ، خدمة للمصلحة العامة ، الى جعل المناصب الحكومية على اختلاف درجاتها وانواعها مقصورة على ذوي الكفاءة والاختصاص والخلق الاجتماعي السليم . وتعتبر التربية الصحيحة ( واولى مستلزماتها تنمية التفكير الحر وتربية المسؤولية الاجتماعية ) الوسيلة الوحيدة التي باستطاعتها احداث اصلاح جذري شامل في كيان المجتمع

وصلات افراده ، وعن طريقها كذلك يتجه سلوك الافراد وانماط تفكيرهم  
واساليب انصاهم الفكرية والعاطفية اتجاه اساليبهم يعود بالنفع على الفرد وعلى المجتمع  
وعلى الانسانية . والتربية السليمة ايضاً تعود الناس على التعاون في سبيل المصلحة  
العامة وعلى الاتصاف بالثقة المتبادلة واحترام الآراء ومناقشتها مناقشة عامية وهي  
امور من اهم مستلزمات الثقافة الديمقراطية . والاشتراكية ، كما سلف ان ذكرنا ،  
تعتمد في تحقيق اهدافها على الديمقراطية السياسية التي تجعل للشعب ، من الوجهة  
النظرية والعملية ، اهمية كبيرة تتصل بتوجيه سلوك الحكومة ، وتجعل له كذلك  
حق التخلص من الحكومة التي يرغب عنها شريطة ان يسند فكرة ذلك التخلص  
دفاع عن المصلحة العامة وشريطة ان يتم ذلك التخلص بالطرق البرلمانية المعروفة :  
اما عن طريق التصويت ضد الحكومة القائمة و نزع الثقة عنها في البرلمان الذي  
يجتمع فيه ممثلو الامة ، أو بواسطة سير الشعب ضمن تشكيلاته السياسية والحزبية  
سيراً يؤدي الى تغيير تلك الحكومة عندما يحين موعد الانتخاب الجديد .  
يتضح مما ذكرنا ان الاشتراكية ( التي بحثناها ) هي الجانب الاقتصادي  
للمتعة الديمقراطية البرلمانية . وعلى هذا الاساس يمكننا ان نقول انه ( على الرغم من ان  
الجانبين السياسي والاقتصادي متلازمان كل التلازم ، يؤثر كل منهما في الآخر  
ويتأثر به ) لا بد ، لكي يتحقق الجانب الاقتصادي ، من ان يتوافر الجانب السياسي ،  
اي ان الديمقراطية السياسية ، بعبارة اخرى ، لا بد من ان تسبق الديمقراطية  
الاقتصادية فتمهد لظهورها السبيل . والديمقراطية السياسية بدورها ذات جانبين  
متلازمين كذلك هما جانب الشعب وجانب الحكومة ، فالحكومة الديمقراطية  
شرط اساس لتكوين شعب ديمقراطي . والعكس صحيح كذلك . فكأننا هنا  
ندور في حلقة مفرغة لا سبيل الى الخلاص منها . غير انه يمكن ان يقال ، من

الناحية التاريخية ، ان الحكومة الديمقراطية تسبقت في الوجود الشعب الديمقراطي .  
وان الشعب بدوره كلما قرب من الديمقراطية في تفكيره وسلوكه كان اكثر  
قدرة على تقرب حكومته من السير وفق المبادئ الديمقراطية . هذا من جهة  
ومن جهة ثانية فان الديمقراطية السياسية من الناحية النظرية اسبق في الوجود من  
الديمقراطية التطبيقية ، ويصدق الشيء نفسه على الديمقراطية الاشتراكية او  
الاشتراكية الديمقراطية . واول تاريخ انكلترا ( وهي اعرق الامم في النظم  
الديمقراطية البرلمانية ) يوضح مآزها اليه توضيحاً مقبولاً . فقد بدأت الفكرة  
الديمقراطية سياسياً ، من الناحية النظرية ، في ذلك النظر قبل القرن السابع عشر ،  
ولم تتأقق بمض جوانبها وبخاصة ما يتصل منها بضرورة جعل الشعب يسام في  
انتخاب حكامه بشكل مباشر وحر ( نسبياً ) الا في القرن التاسع عشر . وعملت  
الحكومات المنتخبة ( من بين اعضاء مجلس العموم الذي ينتخبه الشعب بطريقة  
حرة ومباشرة منذ اواخر القرن الماضي وطوال ما انصرم من القرن الحاضر )  
بدورها على جعل الشعب اكثر ديمقراطية ، كما رفعت مستواه الثقافي والاجتماعي  
بوساطة ما احدثته من تشريعات ثم ان تركيز الديمقراطية السياسية قدامى منذ  
مطلع القرن الحاضر الى انتشار الفكرة الاشتراكية من الناحية النظرية ، والى  
تطبيقها في منهج وزارة العمال الثالثة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥ ،  
ولو بشكل غير كامل كما هو معروف .

واذا نظرنا لموضوع الديمقراطية السياسية بشكل عام من الناحية التاريخية  
امكننا ان نقول انها بدأت بشكلها العملي في المدن اليونانية القديمة قبل زهاء خمسة  
وعشرين قرناً . وكانت تعني آنذاك اجتماع من يتوافر فيهم شروط معينة من  
ابناء الشعب في محل خاص ووقت معين ، كلما دعت الضرورة الى ذلك واشترأكم

جميعاً في التعبير عن آرائهم وفي التداول بشؤونهم العامة وتبادل وجهات النظر في ذلك للتوصل الى حلول يرونها معقولة وصالحة لمعالجة مشكلاتهم المادية والفكرية . وكان رأي كل فرد من المجتمعين يتبر مساوياً في الاهمية لرأي اي فرد آخر . ويتم قبول الآراء في حالة اختلاف وجهات النظر ، على اساس آراء اكثرية الحاضرين عن طريق التصويت المباشر بطريقة مكشوفة . ونظراً لتعمد الحياة الاجتماعية في اوربا بعد عهد اليونان ، وزيادة عدد السكان ، وتكوين الدول على اساس الاقاليم لا اساس المدن ، فتمت استحالة اجتماع جميع افراد الشعب (من تتوافر فيهم الشروط الخاصة) في مكان واحد وزمان واحد كذلك . وعلى هذا الاساس فقد استحدث نظام التمثيل البرلماني المبني على اساس الانتخابات الحرة المباشرة حيث يسمح لكل فرد تتوافر فيه شروط خاصة باختيار من يراه صالحاً لتمثيله في البرلمان بطريقة الاقتراع السري ضماناً لحرية الانتخابات وتغدياً لما قد يحصل من الضغط على حرية الناخبين . والغرض من السماح للشعب بانتخاب نوابه هو جعل اولئك النواب مسئولين امام الشعب مباشرة ، وجعل الحكومة (الوزارة) مسئولة امام النواب مباشرة وامام الشعب بصورة غير مباشرة .

.....

تدعو الاشتراكية من الناحية الايجابية ، الى ضرورة تمتع جميع افراد الشعب بحقوقهم كاملة من جميع نواحيها وذلك عن طريق القضاء على امتيازات بعض الافراد من جهة وفسح مجال التعليم والتمتع بخيرات البلد والمساهمة بادارته من جهة اخرى . ولا تميل الاشتراكية (الديمقراطية) كما ذكرنا الى استعمال العنف في حل مشكلات المجتمع من الناحيتين الداخلية والخارجية . ونقطة البداية في العمل الاشتراكي ، كما سلف ان ذكرنا . هي القيام باصلاح المؤسسات الحكومية .

وفي مقدمتها البرلمان (الديمقراطية السياسية) . وجعلها بشكل يضمن توزيع العدالة الاجتماعية بين الناس . والاشتراكية الديمقراطية تختلف عن الاشتراكية الماركسية في تشجيعها للتشبيث الفردي شريطة ان لا يتعارض هو والمصلحة العامة ، ولا تقف دونه الا اذا أخذ منه اصحابه وسيلة لاستغلال غيرهم والارتفاع بجهودهم . والسكن الاشتراكية الديمقراطية من الجهة الثانية لا تقف ضد التطبيقات ذات المصالح الخاصة بل ضد المصالح الخاصة نفسها .

يتضح مما ذكرنا ان الاشتراكية الديمقراطية تسعى لبإلوان اهدافها عن طريق تغيير المؤسسات السياسية بشكل تدريجي بآداء بالام فإلهم ، غير تاركة في المدي البعيد مؤسسة سياسية دون ان تعرضها لتبديل جوهرى يجعلها اكثر انسجاماً مع المصلحة العامة . ذلك لان دعاة الاشتراكية (في الوقت الحاضر على كل حال) يعتقدون بان تغيير تلك المؤسسات هو الوسيلة الوحيدة لضمان تغيير تفكير الافراد الذين يقعون تحت تأثيرها . اي ان الاشتراكية الديمقراطية (بعبارة اخرى) تسير وفق خطة متدرجة في الارتفاع (كالمسلم) تستند كل خطوة منها على ما قبلها وتؤدي الى ما بعدها ، ويتضح في كل خطوة مقدار من النفع الام اكثرتشتمولا من ذي قبل . وينشطر العمل الذي تقوم به الى شطرين : شطر تقوم به الحكومة وفقاً لامكانياتها المادية والفكرية ، وشطر تقوم به المنظمات الاجتماعية والهيئات الخاصة . ويتعاون الجانبان في كثير من المجالات الاجتماعية كالتعليم والصحة وما شاكلها .

يلوح للباحث ، في ضوء ما ذكرنا ، ان الاشتراكية الديمقراطية تأخذ المجتمع كما هو في فترة من فترات تاريخه ، وتحاول تحليل مؤسساته تحليلاً دقيقاً ونزيهاً لمعرفة مواطن القوة والضعف في كل منها لغرض العمل بطريقة اشريفة على ترقية ..



نواحي القوة وتوسيع مجالها من جهة وتقليص نواحي الضعف والسير بها نحو التلاشي من جهة اخرى . وغرضها من ذلك هو تطبيق مبدأ العدل الاجتماعي في توسيع مرافق الحياة . اي انها تسير بصورة متدرجة ومستمرة نحو توسيع دائرة اشراك افراد المجتمع بخيرات وامكانياته المادية والفكرية ، وفي تحملهم المسؤوليات الفردية والاجتماعية كل حسب اختصاصه وكفاءته وشعوره بالمسؤولية .

تعتبر الاشتراكية الديمقراطية الفقر<sup>(١)</sup> في الوقت الحاضر ظاهرة اجتماعية ناتجة عن سوء توزيع الثروة بين السكان . ويقول دعاؤها انه اذا جاز للانسان ان يعتبر الفقر في الماضي ناجماً ، في الاعم الاغلب ، عن وجود عوامل طبيعية ( تؤثر في الانتاج الزراعي والصناعي من حيث نوعه ومقداره ) لا سيطرة قوية للانسان عليها فان الانتاج الحديث في الصناعة والزراعة - ذلك الانتاج الكبير الذي حصل نتيجة تقدم العلم وتطبيقه في مجالات الزراعة والصناعة والتجارة يجمنا ان نعتبر الفقر ناجماً في جوهره عن القوانين والانظمة الاجتماعية المرعية غير العادلة التي يخضع لها توزيع الثروة والبضائع والخدمات بين الناس . فلا غرو ان رأينا الاشتراكيين الديمقراطيين ينادون بضرورة تعديل تلك القوانين وجعلها بشكل يخدم المصلحة العامة . غير انهم من الجهة الثانية يدركون الصعوبات التي

---

(١) الفقر والفاقة اسراراً نسبياً يختلفان باختلاف المجتمعات ، وباختلاف المجتمع نفسه في فترات من تاريخه . فكثير من فقراء الوقت الحاضر يمكن اعتبارهم اغنياء بما ييسر المجتمع الغابر . وبعض فقراء الولايات المتحدة في الوقت الحاضر يجوز اعتبارهم اغنياء بالنسبة لكثير من سكان الهند والعراق . ولكن المنقبم لتطور المجتمعات البشرية يستطيع ان يقول مع هذا ان الفجوة بين الغنى والفقر والفاقة في الوقت الحاضر اكبر منها في الماضي وذلك لكثرة الانتاج وتركيز الثروات الكبرى في ايدى قليلة نسبياً من جهة وكثرة الحاجات وتمدد دوره العرف من جهة اخرى .

تقف في طريقهم والعقبات التي يضعها خصومهم للحيلولة بينهم وبين تحقيق ماتصوبو نفوسهم اليه .

تقسم القوى التي تحاول الحيلولة بين الاشتراكيين وبين تطبيقهم مناهجهم الى قسمين : الفئة الحاكمة المؤلفة من الاحزاب اليمينية والهيئات الرجعية واصحاب المصالح المركزة والانتهازيين من جهة ، والاحزاب اليسارية والفوضويين والهيئات المتطرفة من جهة ثانية . تحاول الفئة الاولى ابقاء المجتمع على ما هو عليه تلميناً لمصالحها ، وتسعى الثانية جاهدة الى بث الفلج والفوضى والتدمير بين الناس تمهيداً لزعزعة النظام السائد وتأليب الناس عليه للقيام بثورة دموية مسلحة ( ان امكن ) على الحكومة القائمة لغرض اسقاطها واستلاب الحكم منها . وكما كان المجتمع الذي يحاول الاشتراكيون رفع مستواه الفكري والمادي متخلفاً عن ركب الحضارة في مكان وزمان معينين اصبحت مهمتهم شاقة . وزداد صعوبة تلك المهمة في المجتمعات التي تتظاهر الفئة الحاكمة فيها باتباع المبادئ الديمقراطية ( من حيث شكلها في الظاهر فقط ) اذ ان الديمقراطية المزيفة وسيلة يستعين بها اصحاب المصالح المركزة والرجعيون للاحتفاظ بالمجتمع واقفاً في المكان الذي هو فيه بوساطة وضع المؤسسات السياسية وفي مقدمتها البرلمان ( في حالة وجوده ) - من حيث اسلوب انتخابه وطريقة معالجته للفضايا العامة - بشكل يجعلها تتصرف تصرفاً يمتنع جوهر الديمقراطية فتسير وفق تشريع مصححي مستمد من اكثرية مصطنعة في البرلمان تؤيدها . ولعل هذه الظاهرة تفسر لنا شدة التزام دعاة الاشتراكية بضرورة البدء بتغيير المؤسسات الاجتماعية - وفي مقدمتها البرلمان - لانهم يؤمنون بان اصلاح البرلمان هو حجر الزاوية في جميع الاصلاحات الاخرى . وتتضمن وجهة البدء باصلاح البرلمان اذا تذكرنا ان انكثرتا ( وهي اعرق

الامم في التقاليد البرلمانية) لم يستطع قادة الفكر السياسي فيها ان يغيروا نظام عيشها ومرافق سياستها جميعاً الا عن طريق اصلاح الحياة البرلمانية فيها بسلسلة من الاجراءات . وقد مر اسلوب الاصلاح البرلماني في انكلترا بمرحلتين : حددت في المرحلة الاولى منها سلطات الملك وزادت حريات البرلمان . على حين ان الاصلاح في المرحلة الثانية كان منصباً على احداث تغييرات اساس في البرلمان نفسه . وقد جرى ذلك كله ضمن النظام الملكي وفي حدود امكانيات البلد في كل مرحلة من مراحل تاريخه . ولعل ذلك هو السبب الرئيس في استمرار التاج البريطاني والمرش وتقويتها والتفاف الشعب حولها . وربما كان انه تمام الاصلاح البرلماني هو العامل الاساس الذي طوح بكثير من التيجان واصحابها في كثير من الاقطار . ويستطيع المرء ان يتصور عمق الاصلاحات البرلمانية في انكلترا ومداهها اذا تذكر ان البرلمان البريطاني بده كهيئة استشارية (مكونة من رجال الدين والفرسان والاقطاعيين) ينتخبها الملك (ويمزها) متى شاء ولاي سبب يراه وجبها . وقد استمرت الحال على هذا المنوال حتى اوائل القرن الرابع عشر حيث استطاع رجال الدين والنبلاء (تحت اشراف الملك وهاشيتيه) ان يوجدوا مجلساً خاصاً بهم سمي «مجلس اللوردات» . كما استطاع الفرسان والاقطاعيون ان يوجدوا (بالتعاون مع المسؤولين) «مجلس العموم» . وقد تعرض ، كما سنرى ، كل من المجلسين الى سلسلة من التغييرات ولازالا كذلك حتى كتبت هذه السطور .

ومما يساعد على معرفة الآثار التي تركها البرلمان البريطاني بشمكاه الحاضر في حياة المجتمع ونظام عيشه وصلات افراده ببعضهم وبالالحكومة اذا تذكرنا الدور الذي لعبه التشريع البرلماني في القضاء على التعصب (بشئى صورته وبخاصة الدين والظائفي منه) الذي كان منتشراً آنذاك فيما يتصل بالتوظيف والتعليم وبممارسة

الحريات العامة . فتمد كانت الوظائف الكبرى في الدولة مثلاً ( مدنية وعسكرية ودبلوماسية ) مقصورة على الطبقة الارستقراطية السكونة من كبار الاقباة عين وارباب المال والجاه والنفوذ ( واغلبهم من اتباع الكنيسة الانكليكانية - المذهب الرسمي للحكومة ) . وكان متوقفاً ، والحال هذه ، ان لا يسمح لابناء الطوائف الاخرى ( البروتستنت والكاثوليك ) الا باسغال المناصب الحكومية المتواضعة . وقد بلغ التعصب الطائفي ضد الكاثوليك درجة صعب عليهم معها التمتع بممارسة شعائرهم الدينية بشكل مكشوف .

وكانت ابواب التعليم ( وبخاصة العالي ) موصدة باوجه اولادهم . فامتنت المدارس الخاصة مثلاً ( ايتون وهارو ووينجستر ) من قبول الاطفال الكاثوليك في عداد طلابها . ولم تفتح جامعتا كمبرج واوكسفورد ابوابها امام الطوائف المختلفة الا في عام ١٨٥٤ ضمن شروط خاصة منها الا يتمتعوا بالوظائف التي تؤهلهم شهادتهم المدرسية لاشغالها ، ومنها الا يسمح لهم بنيل شهادة الـ M A والدكتورا ، ومنها الا يدخلوا كلية اللاهوت ( التي يقتصر التدريس فيها على الفقه الانكليكاني ) . وقد استمرت الارستقراطية البريطانية ( البنية على اساس التفريق المذهبي بين ابناء الامة الواحدة ) مستولية على الوظائف الكبرى في الادارة والنضاء والجيش والبرلمان والكنيسة والسلك الدبلوماسي . وقد بلغ التمييز الطائفي ( وبخاصة ضد الكاثوليك ) حداً جعل المتطرفين من انصار مذهب الحكومة ان يهينوا في القرن السابع عشر لائحة تقضي باقصاء الامير جيز عن ولاية العهد لمولاه الكاثوليكية الامر الذي ادى الى انقسام الارستقراطية على نفسها الى قسمين : قسم يؤيد المزل ( حزب الهويك الذي عرف بعد منتصف القرن الماضي بحزب

الاحرار) ، وقسم لا يؤيده ( حزب التوري الذي عرف منذ عام ١٨٣٢ بحزب المحافظين ) .

يتألف حزب الهويك ، بصورة عامة ، من كبار رجال المال واصحاب المعامل وقد بدأ نفوذهم بالظهور نتيجة للثورة الصناعية ، ومعظمهم من غير المنتمين الى المذهب الرسمي للحكومة . على حين ان اعضاء الحزب الآخر ( وغالبيتهم من كبار الاقطاعيين ) ومن اتباع الكنيسة الانكليكانية . ولسكن قادة الحزبين مع هذا قد ارتبطا بروابط الزواج والمصاهرة والمصالح المتبادلة . وقد اخذ الحزبان يتناوبان الحكم الى ان ظهر حزب العمال سنة ١٩٠٠ ( وعضاؤه خليط ) . وكان الخلاف بين المحافظين والاحرار متملقاً بتفاصيل الحكم لاسباسه العامة . ولم يختلف الحزبان في الواقع اختلافاً كبيراً الا حيث اصطدمت مصالحهما بشكل لم يكن معه سهلاً عليهما ان يتغلبا عليه . ولم يحدث ذلك الا في حالات لا يتجاوز مقدارها عدد اصابع اليد الواحدة . واشهر تلك الحالات اختلاف الحزبين فيما يتصل بموقف الحكومة من التشريعات الزراعية والتجارية في اوائل القرن الماضي حيث تقلص مين السكان الى الزراعة على اثر ازدهار الحياة الصناعية في البلاد . فدعا حزب التوري ( ومعظم اعضائه من كبار المزارعين ) الى ضرورة قيام الحكومة بفرض عوائد مكرية كبيرة على ما تستورده البلاد من مواد ولوازم ومنتجات زراعية ، وان تسن القوانين اللازمة لضمان وضع اسعار عالية للمنتجات الزراعية المحلية . وكان غرضهم من ذلك عدم تشجيع الدول الاخرى على تصدير منتجاتها الزراعية الى انكلترا وبذا يتسنى للاسواق الداخلية ان تتداول تجارياً ، من الناحية الزراعية ، بالمنتجات الزراعية المحلية ذات الكميات القليلة بالنسبة لسد الحاجة الامر الذي يجعل الطلب عليها كبيراً . فترفع اسعارها فتريد المزارعين . المزارعين .

جهة ومن جهة ثانية فان وضع الدول الاخرى عوائد كمركية كبيرة على ما استورده تلك الدول من البضائع الانكليزية ( ومعظمها كان زراعياً لان انكلترا كانت تفتح نحو الصناعة ) - وذلك عملاً بمقابلة انكلترا بالمثل في هذا الصدد - الامر الذي لا يشجع سكان تلك الدول على اقتناء البضائع البريطانية لارتفاع اسعارها مما يجعل المعامل البريطانية غير قادرة على تصدير منتجاتها الى الخارج وبذا يكثر عرضها في الاسواق الداخلية لغرض الاستهلاك المحلي فتتخفف اسعارها ويتسنى بذلك للفلاحين اقتناءها فلا يحاولون ترك مزارعهم والانخراط في سلك العمال ، اما العمال فظراً لحاجتهم الى المنتجات الزراعية المرتفعة الاسعار يحاولون المطالبة برفع اجورهم فيكون الصناعة من جهة وربما يفكر بعضهم بالعودة الى الريف من جهة ثانية . على حين ان حزب الهويك ( ومعظم اعضاءه من اصحاب الشركات ) قد سار في سياسة مناهضة للسياسة التي ذكرناها .

واخذ الحزبان يتناوبان الحكم بصورة تكاد تكون متساوية الى ان ظهرت زعامة شعبية عام ١٩٠٠ سميت بعد ذلك بحزب العمال . ومن الطريف ان تذكر هنا ان حزب العمال بدأ عمله السياسي على شكل جناح مذشق من حزب الاحرار ( الذي كان يعرف بحزب الهويك قبل القرن الماضي ) وقد اصبحت هذا الحزب ( بعد ان تركزت اصوله العملية والنظرية ) بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى الحزب الرسمي المعارض في مجلس العموم . واخذ منذ ذلك الحين يحل محل حزب الاحرار الذي انبثق عنه . فتولى الوزارة البريطانية اربع مرات : مرتين في الفترة التي سبقت الحرب العالمية الثانية ( مرة في عام ١٩٢٣ واخرى في عام ١٩٢٩ ) ومرتين بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ١٩٤٥ . ولم يتبين الحزب المذهب الاشتراكي من الناحية النظرية الا بعد الحرب العالمية الاولى . غير انه لم يطبق النظرية الاشتراكية

في سياسته الا حين تولى الحكم للمرة الثالثة عام ١٩٤٥ . ويعود السبب الرئيس في ذلك الى قوة جذور المذهب الرأسمالي في انكلترا وانتشار الروح الارستقراطية بين الفئة الحاكمة من حزبي الاحرار والمحافظين على السواء . يضاف الى ذلك ان حزب العمال في وزارته الاولى والثانية ( تحت رئاسة رمزي مكدونالد ) كان معتمداً جد الاعتماد على مؤازرة حزب الاحرار في مجلس العموم ذلك لان عدد مقاعد حزب العمال في مجلس العموم كان في سنة ١٩٢٣ (١٩١) مقعداً وللاحرار ١٥٨ مقعداً على حين ان مقاعد المحافظين كانت ٢٦٠ . اما في عام ١٩٢٩ فكانت مقاعد العمال ٢٩٠ والاحرار ٥٨ والمحافظين ٢٦٠ . واذا علمنا ان الاحرار كالمحافظين من حيث مقتهم المبادئ الاشتراكية التي تنصادم هي ومصالحهم الركيزة هذا من جهة ومن جهة ثانية فلن اخفاق وزارة العمال الثانية في معالجة الازمة الاقتصادية التي مرت بها انكلترا ومعظم اقطار العالم بين عامي ١٩٢٩-٩٣٠ قد ادى الى زعزعة مراكز الوزارة وتصدع الحزب نفسه . فسقطت الوزارة وانشق زعماء الحزب على انفسهم فاستقال رئيس الحزب رمزي مكدونالد وبعض البارزين في الحزب . غير ان ذلك لم يقض على الحزب بل جعله يجمع شمله من جديد تحت زعامة كلنت آتلي . اما في عام ١٩٤٥ فقد كانت مقاعد حزب العمال ٣٩٣ والمحافظين ١٨٩ ولم يحرز الاحرار اي مقعد بل وزعت ال ٥٨ مقعداً الباقية بين المستقلين والسكرتل السياسية الاخرى . لذلك نجد وزارة العمال تبني المذهب الاشتراكي بشكل واضح وتسمى الى تطبيقه في سياستها العامة . فامت كثيراً من الصناعات الثقيلة ومرافق الدولة الهامة مثل بنك انكلترا وطرق المواصلات البرية والنهرية والجوية الداخلية ومناجم الفحم والبرق والتلفون الخارجي . غير انها لم تستمر على تطبيق منهاجها لتصدع يحصل بين صفوف اعضاء الحزب لاسباب بعضها داخلي وبعضها خارجي .

فن الداخل لم يعد مستطاعاً ان تحتل الفئة الحاكمة القديمة واصحاب المصالح  
المركزة وكبار رجال الصناعة والمال سريان عملية التأميم فقاروموها . ومن الخارج  
قد هدت الولايات المتحدة ( الدولة الكبيرة التي تسير اقتصادياتها على اسس  
رأسمالية ) قطع مساعداتها عن انكلترا اذا استمرت على السير في الطريق الاشتراكي .  
وكانت من نتائج ذلك ان اكثرية الحزب والجانب المعتدل منه اكتفى ( نظراً لحاجة  
انكلترا الى المساعدات الامريكية ) بما حققه من تطبيق المبادئ الاشتراكية كخطوة  
اولى ، واتبع سياسة معتدلة في الداخل والخارج انتظاراً لظروف اخرى اكثر  
ملاءمة للسير في تطبيق منهجه الاشتراكي . على حين ان الجانب المتطرف من  
الحزب تحت زعامة ييفان اعتبر ذلك جنباً من الحزب وتوصلاً عن السير في منهجه  
الاصلاحي فانشق على الحزب وما زال كذلك .

ومما تجدر الاشارة اليه ان جناحي الفئة الحاكمة البريطانية قبل ظهور حزب  
العمال لم يختلفا في الواقع الا حيث اصطدمت مصالحهما بشكل لم يكن سهلاً عليهما  
ان يتغلبا عليه . ولم يحدث ذلك التعارض طوال ثلاثة القرون الماضية الا في حالات  
لا يتجاوز مقدارها اصابع اليد الواحدة . ولم تزعزع مصالح الفئة الحاكمة في  
انكلترا من الناحية النظرية الفكرية الا بعد ان هاجمها الكاتب المعروف جري  
بنثام وانصاره وطلابه في الثلث الاول من القرن الماضي . فقد عزا بنثام عوامل  
الفساد في المجتمع البريطاني آنذاك الى الفئة الحاكمة المؤاندة على حد تعبيره من  
سبائة عائلة مرتبطة بروابط القرى والمصاهرة التي كانت تنعم على حساب الاكثرية  
الساقطة من افراد الشعب . وقد ساهمت الصحف البريطانية وبخاصة الجرائد اليومية



الاندنية في ذلك الامر الذي ادى في المدى البعيد الى تثبيت الحياة الحزبية والبرلمانية في انكلترا<sup>(١)</sup>.

(١) لقد لعبت تلك الصحف ذلك الدور بفض النظر عن ميولها الحزبية وفاسفتها السياسية . وكان في مقدمتها التايمس التي ظهرت للوجود سنة ١٧٨٥ وهي جريدة مستقلة اقرب في ميولها السياسية الى المحافظين منها الى غيرهم ويقدر عدد ما يطبع منها في الوقت الحاضر بـ ٢٠٠ الف نسخة . والديلي تلغراف التي ظهرت عام ١٨٥٥ وهي كالتايمس من حيث ميولها السياسية العامة وبخاصة بعد اندماجها في عام ١٩٣٧ مع المورتنك بوست التي ظهرت عام ١٧٧٢ ، ويقدر عدد نسخها الاّن بـ مليون نسخة يومياً . والديلي ميل التي ظهرت عام ١٨٩٦ وهي كالتايمس في ميولها السياسية ويقدر عدد نسخها اليومية في الوقت الحاضر بمليون نسخة . والديلي اكسبريس التي ظهرت عام ١٩٠٠ . وهي مستقلة ويقدر عدد ما يطبع منها يومياً في الوقت الحاضر باربعة ملايين نسخة . ونيوز كرونكل المستقلة ويطبع منها مليون واربعمئة الف نسخة . والديلي هرالد لسان حال حزب العمال ويطبع حوالي مليون نسخة في الوقت الحاضر .



## الفصل السابع

### العقل<sup>(١)</sup> : محتوياته ووظائفه

لا يخرج الانسان ، كما يراه جون ديوي ، عن كونه جسماً مادياً له تركيبه المعقد واعضائه المتعددة ووظائفه التي لا تقع تحت حصر . فهذه يد وتلك عين وذلك انف وذلك جهاز للتنفس وتلك جملة عصبية الخ . لكل منها اجزاء واجزاء اجزاء ، ولها ولاجزائها واجزاء اجزائها ووظائف معروفة لدى المختصين بعلمي

(١) يؤلف موضوع العقل اعوص بحث تعرضت له الفلاسفة منذ نشوئها حتى اليوم . لقد خصت رفوف بالمجلدات الباحثة في جوهر العقل ومجال عمله ، وانقسم المفكرون الى مدارس مختلفة يصعب حصرها . ما العقل ؟ وما مجال عمله ؟ عقل الانسان جزء من جسمه ؟ ام انه شيء آخر يختلف عن الجسم في تركيبه ووظائفه ؟ هل يؤثر العقل في الجسم ؟ وكيف ؟ هل يؤثر الجسم في العقل ؟ وكيف ؟ هل يدرك العقل الجسم ؟ وكيف ؟ لقد حاول كثير من الفلاسفة الاجابة عن هذه الاسئلة ، وجاءت اجوبتهم مختلفة ومتباينة . فالانسان البدائي مثلاً لم يميز بين العقل والجسم كما نميز بينهما اليوم . كما لم تكن بنظره مادة تقوم بلا عقل ، بل لكل شيء من حيوان وجماد عقله الذي يوجه اعماله . وكل حركة تبدو على الشيء وان كان مصدرها لعلقة له به عزاها اسلافنا للشيء نفسه . وبتقدم الانسان في سلم التطور الثقافي استطاع ان يجرد سائر اللذاتوقات - عدا الانسان - من العقل .

التشريح والحياة . غير ان تلك الاجزاء مع هذا ترتبط ببعضها اشد الارتباط فيؤثر بعضها ببعض ويتأثر فيه مادام الانسان على قيد الحياة . اي ان قيام اي عضو من اعضاء الجسم بوظائفه يتعدي اثره ذلك العضو وينتظم اعضاء اخرى . فاليد مثلاً لا تبصر الاشياء لان الابصار من وظائف العين ، غير ان العين تتأثر بما تمسكه اليد وتؤثر في موقف الانسان ازاءه . والعين لا تشم الروائح لان الشم من خصائص الانف ولكن العين تتأثر بما يشمه الانف وتؤثر في موقف الانسان ازاء ما يشم . وقد يمدى ذلك الاثر حدود المين والانف وينفذ الى اجزاء اخرى من الجسم كالمعدة وجهاز الهضم مثلاً . فاعضاء الجسم اذن يشد بعضها بعضاً ويؤثر بعضها في بعض . وقد يقوم بعضها بوظائف بعض آخر عندما تستدعي مصلحة الجسم ذلك عند عجز قسم من الاعضاء على القيام بوظائفه بسبب المرض او الشيخوخة ، فالاعمى يبصر باذنه ويده ، والاصم يسمع بعينه .

هذا الجسم باجزائه الكثيرة العدد المنوعة الوظائف يولد في بيئة ذات وجهين : وجه طبيعي يشمل الماء والهواء والتربة والمعادن واضرابها ، ووجه اجتماعي يتكون من اللغة والتقاليد والعقائد والفنون وما شاكلها . غير ان وجهي البيئة ، مع هذا ، متصلان ببعضهما ارتق اتصال . فتؤثر 'البيئة الطبيعية في

(١) يعجل كثير من الباحثين الى القول بان العوامل الجغرافية من مناخ وامطار وموقع وجبال وانهار وتربة وثروة معدنية ونباتية هي العوامل الرئيسة في تعيين مجرى التاريخ البشري ونقل الحضارة الانسانية من مكان الى مكان . ويتضح اثر البيئة في تركيب الانسان من الناحية الجسمية ( وما يتصل بذلك من النواحي الفكرية والاجتماعية والخلقية) اذا ما وازنا بين بشرة الزنوج وسكان المناطق الباردة =

حضارة المجتمع وتركيب الفرد وسلوكه وفي عقائده وفلسفته في الحياة . وتؤثر  
عقائد الفرد والمجتمع بدورها في نظرنه للطبيعة وموقفه ازاءها<sup>(١)</sup> . والانسان

= في اوربا وامريكا . فقد دل البحث العلمي الحديث بأن اختلاف بشرة كل منها راجع  
في اسسه الى عوامل جغرافية مناخية ذلك ان تحت البشرة الانسانية غنداً يفرز  
بعضها مادة كيميائية تدعى Carolene ويفرز بعض آخر مادة اسمها Melanin  
وان افرق بين الوان البشيرات الانسانية يتعين بمقدار تغلب احد الافرازين على  
الآخر . فاذا تغلب الاول مالت البشرة نحو الصفاء والشقرة . واذا تغلب الثاني  
مالت البشرة نحو السمرة فالسواد . واللون الاسود بدوره يصبح اكثر ملائمة  
للعيش في المناطق الحارة لانه يحمي الجسم من نفاذ نوع معين من الاشعة المحرقة .  
عكس اللون الابيض . ويصدق الشيء نفسه على شكل الاتف والشنتين . فالانوف  
القصيرة والشفاه العريضة عند الزوج اصبحت كذلك جغرافياً لغرض تحويل  
الحرارة الجسمية الى الهواء للامس للبشرة . عكس ذوي الانوف الطويلة الدقيقة  
والشفاه الضيقة من البيض . يضاف الى ذلك ان الوضع المناخي للسكان يعين نوع  
تغذيتهم وبالتالي نشاطهم الفكري والجسمي وامزجتهم .

(١) يلوح لي ان خضوع الانسان لقوى الطبيعة يتجلى باوضح مظاهره اذا  
كان الانسان يعيش في مجتمع بدائي من الناحيتين الفكرية والمادية . وما الحضارة  
في واقعها الا قدرة الانسان على استدلال قوى الطبيعة واخضاعها لمشيئته .  
فوسائل التبريد ( في المناطق الحارة ) ووسائل التدفئة ( في المناطق الباردة )  
جعلت الانسان في وضع استطاع معه التغلب على الطقس . غير ان خضوع الانسان  
للطبيعة ( واخضاعه لها ) لا يخلو من التأثير بعوامل اجتماعية وسياسية ودينية  
تتصل بعادات المجتمع وتقاليد من جهة وبوضعه المادي والفكري من جهة اخرى .

جزء لا يتجزأ ، الا لفرض الدراسة النظرية ، من الطبيعة والمجتمع (١) ، وهو خاضع لهما ومسيطر عليهما في آن واحد ، يؤثر فيهما ويتأثر بهما ما دام على قيد الحياة . فلا يمكننا ، والحالة هذه ، ان نفهم طبيعة الانسان ومظاهر نشاطه ، فهما صحيحاً الا اذا اخذنا بنظر الاعتبار صلاته بالبيئة والآثار المتقابلة التي يتركها كل منهما في الآخر . فبما اننا لا نستطيع ان نفهم طبيعة اليد ووظائفها على

= فالثروة المدنية لا تؤدي من نفسها الى ازدهار الحضارة ما لم يستطع المجتمع استخراجها واستعمالها لخدمته . ويصدق الشيء نفسه على الثروة النباتية والحيوانية . ومعاملة الانسان للبقرة والخنزير والكلب مثلاً تختلف باختلاف عقائده الدينية والاجتماعية ولا يدخل العامل الجغرافي بشكل مباشر الا عرضاً . فتمتد البقرة مثلاً في بعض الاقطار مخلوفاً مقدساً ، وفي اقطار اخرى تستعمل للذبح . ويحرم اكل لحم الخنزير في بعض الاقطار ويحلال في اقطار اخرى . ويقدم لحم الكلب للضيوف في بعض مناطق الصين ويحرم في مناطق اخرى وفي اقطار اخرى . ثم ان كثيراً من مظاهر الطبيعة ينظر اليها الانسان بعين عواطفه وتعاليمه وثقافته . فجميع الانهار مثلاً مكونة من ماء تركيبه الكيماوي واحد غير ان العراقي يشعر شعوراً خاصاً عندما يسمع كلمة « دجلة » أو « الفرات » والفرنسي عندما يسمع اسم « السين » وهكذا . وجميع الاعلام مكونة من قماش تختلف ألوانه وحجره ولكن العراقي يقف موقفاً معيناً من العلم العراقي وهكذا .

(١) ويكفي للبرهنة على ذلك ان نقول : هل من الممكن فصل الانسان عن الهواء او الغذاء او الماء مع ضمان استمرار حياته ؟ او هل بالاستطاعة تجريد الانسان عن المجتمع - بما فيه من لغة ودين وتعاليم الخ . . . مع ضمان استمرار حياته كإنسان ؟

وجهاً للآتم الا اذا درسناها من حيث صلاحها بالجسم (فقد اصطلح المجتمع على تسميتها يداً<sup>١</sup> لانها موضوعة في الجسم بشكل معين لتقوم بوظائف معينة . ولو كانت موضوعة في الجسم بشكل آخر لترتب على ذلك قيامها بوظائف غير وظائفها الحالية ولسكان من المحتمل ان يطلق المجتمع عليها اسماً آخر . وكذلك الحال فيما يتصل بالجسم كله من حيث صلاحته ببيئته (الطبيعية والاجتماعية) . فالجسم بالنسبة للبيئة مثل اليد بالنسبة للجسم . واذا صح ما ذهبنا اليه جاز لنا ان نقول : انه لا يمكن للباحث ان يفهم كيان الانسان وانماط سلوكه وتفكيره فهماً صحيحاً اذا اعتبره كياناً مستقلاً بذاته عن طريق اهماله للعوامل البيئية التي تؤثر فيه ويؤثر فيها على الدوام .

يحارل الانسان (ما دام يقظاً وفي حالة فكرية وجسمية وعاطفية سليمة) ان يجعل صلاحه بالبيئة موضوعة بشكل يساعده على ادامة حياته وتقدمها من جوانبها المتعددة . اي انه يسعى لتطمين حاجاته الجسمية (من طعام وشراب وإفراغ ونوم وما شاكلها) وحاجاته الاجتماعية والفكرية والعاطفية . وبما ان تلك الحاجات كثيرة العدد ، تتراحم بالمناكب وتتدافع بالراح ، فتمداضط الانسان لسكي يوازن بينها ان ينتقي منها ، ما هو ضروري في اوانه ، الى شيء من التفكير والتأمل في قدرته على انجازها في الظروف المحيطة به . وما العقل الا ذلك النوع من السلوك الذي يديه الجسم كله في تفاعله مع البيئة تطيناً لتلك الحاجات . فليس العقل ، من وجهة نظر جون ديوي ، شيئاً قائماً بذاته مختلفاً عن الجسم في جوهره

---

(١) بعض النظار عن اختلاف تسميتها ( كتابه وتلفظاً ) في اللغات المختلفة .

وظائفه (١) • ولا وهو وظيفة من وظائف الدماغ (٢) • ولكنه وظيفة من

(١) يزعم كثير من الفلاسفة (المثاليين) بان العقل موهبة من مواهب الانسان عيزه عن سائر الخلوقات . وعن طريق العقل يستطيع الانسان ان يلج عالم للمعنويات . والعقل بنظرهم شيء معنوي يختلف جوهره عن الجسم ، وهو مصدر الارادة والتفكير . وما الجسم الا آلة يسخرها العقل لتنفيذ ما ربه فيستعمل العين لرؤية الاشياء واليد لمسها الخ . . . العقل يدرك الجسم . ولا عكس . يدرك العقل الجسم بواسطة الحواس . وبما ان العقل شيء يختلف عن الجسم فاهي اذن صلته به ؟ لقد ذهب حملة هذا الرأي في تفسير الصلة بينها مذاهب شتى نذكر منها على سبيل التمثيل لا الحصر مايلي : (١) نظرية الاثر المتقابل Interactionism القائلة باثر الجسم في العقل وبالعكس . (٢) نظرية انقطاع الصلة بينهما Psycho-Physical Parallelism . (٣) نظرية اثر العقل في الجسم ولا عكس Epiphenominalism .

(٢) وهي نظرية الفلاسفة الواقعيين . وبما ان الدماغ بنظرهم عضو يشترك فيه الانسان والحيوان على السواء مع اختلاف في التركيب والتلائيف اصبح العقل موجوداً عند الانسان والحيوان مع فرق في الكمية لا النوع . اى ان الفرق بين عقل الانسان وعقل الحيوان امر يتصل بحجم الدماغ ووزنه وتعقيد تركيب الجهاز العصبي . فيكبر الحجم ويزداد الوزن ويتعقد التركيب كلما ارتقى الحيوان في سلم التطور البيولوجي الى ان يصل الى الانسان . ويحتاج الحيوان الى فترة من الزمن لا تقل عن مليون سنة لكي يتطور تطوراً ينقله من المرحلة التي هو فيها الى مرحلة الحيوان الارقى منه في سلم التطور . ونظريتهم هذه مبنيّة في اساسها على مبدأ النشوء والارتقاء الذي قال به شارلس دارون (١٨٠٩-١٨٨٢) العالم الانكليزي المعروف .

وظائف الجسم كله عند تفاعله مع البيئة (الاجتماعية والطبيعية) اثناء سعي الانسان لتحقيق اهدافه في الحياة عن طريق التغلب على ما يعترض سبيله من مشاكل وصعوبات .

يحصل الانسان على عقله ، كما يقول ديوي ، بوساطة علاقته مع بيئته وفهمه لطبيعتها . وتلعب التربية المدرسية بشكل خاص دوراً فعالاً في هذا الصدد . واذا صح ما ذهبنا اليه جاز لنا ان نقول انه يجوز ان يكون لدى الشخص الواحد عقول لا عقل واحد ، ويتوقف عدد تلك العقول على تعدد الظروف ( من حيث نوعها ومقدارها ) التي يجتازها الانسان نفسه فيها . ويستدل على وجود العقل عند الانسان عن طريق معرفة مدى استطاعته ان يتغلب على ما يعترض سبيله من صعوبات اثناء قيامه بتصريف شئونه المعاشية وحل مشكلاته . وقد يصبح الانسان بلا عقل متى ما اخفق في إيجاد حلول ملائمة للمشكلات التي تعترض سبيله غير ان العقل ، من الجهة الثانية ، وان كانت محتوياته مكتسبة صادرة عن البيئة ( الطبيعية والاجتماعية ) يحصل الانسان عليها نتيجة لوجوده في الطبيعة واتصاله بافراد المجتمع فلن اساس العقل الفلسفية والبايولوجية امور موروثه تنحدر الى الانسان عن اسلافه جيلاً بعد جيل . وتكون تلك الاسس متساوية تقريباً من حيث السكم ومتماثلة من حيث النوع عند جميع الافراد داخل حدود الامة الواحدة وبين الامم كذلك . واذا كان الامر كذلك اصبح بمقدور الباحث ان يعزو الفروق التي يشاهدها بين الافراد ( في المجتمع الواحد وبين المجتمعات المختلفة ) من حيث قواهم العقلية وانتاجهم المكري الى اختلاف بيئاتهم وبخاصة الاجتماعية منها وفي مقدمتها التعليم المدرسي . غير ان البيئة الاجتماعية عامة والتعليم المدرسي بصورة خاصة يجيزان الانسان بالمعرفة النظرية ( وهي محتويات العقل ) . ولكن



المعرفة النظرية مع هذا وان كانت شرطاً اساساً لتكوين العقل الا ان العقل لا يتكون بمجرد استيعابه لها . اي ان العقل لا يتكون الا اذا استوعب الانسان مقداراً معيناً من المعرفة المتصلة بموضوع من الموضوعات بحيث يستطيع الاستماعة به لحل ما يجابهه من المشاكل ذات العلاقة به . فلا يكون لدى الطبيب عقل في الطب مثلاً الا اذا استوعب اسساً عامة في موضوع اختصاصه واستطاع ان يستعين بها في الاستدلال من الاعراض المرضية على ما يعترى صحة مرضاه من اسقام وآلام تمهيداً لقيامهم بمعالجتها ناجحة . والمتضلع باللغة لا يتكون لديه عقل لغوي الا اذا كانت لديه كمية خاصة من المعرفة النظرية في موضوع اختصاصه وتمكن ان يتخذها وسيلة لتفهم اساليب التعبير وتذوق افانين اللغة واستعان بذلك لتحسين اساليبه (واساليب غيره) في الكتابة والتخاطب وفي حل العضلات اللغوية التي تعترض سبيله . ويصدق الشيء نفسه على الصيدلي والكيميائي والفيزيائي والمربي وعالم النفس والنجار والفلاح والسائق وغيرهم من المختصين في فروع المعرفة والمهن المختلفة .

وإذا كان العقل ظاهرة اجتماعية فانها تتضح في سلوك الفرد بقدر ما تتضح في سلوك الجنس البشري . والمستوى ثقافة الفرد نفسه ومستوى الثقافة في عصره ومجتمعه اثر كبير في تكوينه العقلي . وكلما ارتفع المستوى العام لثقافة المجتمع الذي ينتمي الفرد اليه في موضوع اختصاصه بشكل خاص اصبح محتملاً ان يرتفع مستوى التفكير عند ذلك الشخص . فالتفكير الفيزيائي المنتشر الآن بين طلبة الجامعات واساتذتها اوسع مدى واكثر عمقاً مما كان منتشرأ اثناء العترة الزمنية التي عاش فيها كل من غاليليو ونيوتن ، مثلاً ، على الرغم مما قدمه هذان الملمان من افكار جريئة في وقتها بالنسبة لعلم الفيزياء . وليس مرد ذلك الى ان الفيزيائيين

الحديثين ارفي (من حيث قواهم العقلية الموروثة) من غاليليو ونيوتن ، بل هو ناتج عن التقدم الذي حدث في حقل الفيزياء في السنين التي تلت عهد غاليليو ونيوتن . وطاب المدرسة الثانوية في الوقت الحاضر لديه من المعرفة النظرية والتمكيد المبني على اساسها ما لا يقاس بما كان لدى الاسكندر الكبير او هرون الرشيد . وليس السبب في ذلك راجعاً الى انه « ارفي » منهما في قواه العقلية الموروثة بل لانه يعيش في عصر تميز بانتشار نوع من المعرفة النظرية كان العصر الذي عاش فيه كل من الاسكندر والرشيد مفتقراً اليها . ومن الطريف ان نذكر في هذه المناسبة ان آينشتاين العالم الفيزيائي الذائع الصيت كان قد وجد صعوبة كبرى ( من الناحية الفكرية ) في فهم الموضوع الذي درسه اياه استاذة كروسمان - ذلك الموضوع الذي يدعى في ارياضيات بـ Tensor Calculus وذلك لحدائه الموضوع في مفتح القرن الحاضر ، على حين ان هذا الموضوع يدرس بشكل موسع في الوقت الحاضر لطلبة الصفوف الاولى والثانية من الجامعات الحديثة ويفهمونه بسهولة ويسر . ومما يؤيد ذلك ان الكثيرين من علماء الحياة المعاصرين يزعمون بانه لم يحصل على دماغ الانسان وجهازه العصبي تغيير كبير منذ حوالي ٢٠٠٠ سنة .

ويتجلى اثر البيئة الاجتماعية في تكوين العقل اذا تذكرنا ان العقل البشري لم ينتج شيئاً يستحق الذكر من الناحية العلمية في فترة الـ ( ١٥٠٠ ) سنة الواقعة بين عامي ١٠٠٠ ق.م و ١٤٠٠ ق.م . على حين ان الفكر الانساني وبخاصة الاوربي منه توصل في فترة لا يتجاوز طولها نصف قرن ( ١٧٨٠ - ١٨٣٠ م ) الى ايجاد قوانين علمية وتمسيدات صناعية كبيرة ( وما وافق ذلك من تغييرات اجتماعية ) لازال كثير من آثارها باقياً الى اليوم . اما التقدم العلمي الحديث في الوقت الحاضر فأثاره بادية لايمان سواء كان ذلك في حقل المعرفة النظرية في فروع الطب والفيزياء

والكيمياء وسائر العلوم ام في مجال الصناعة والمواصلات والزراعة والتعمدين والبناء واضرابها . ولا يهود السبب في ذلك الى تغير في تركيب دماغ الانسان او تبدل في تركيبه من الناحية الفلسفية ، وانما هو نتاج تقدم المجتمع من الناحية الثقافية . اذ ان التقدم الثقافي وان كان ناتجاً في اسسه عن التقدم الفكري فانه بدوره يكون عاملاً من عوامل التقدم المكري . وهكذا دواليك .

واذا كان العقل ظاهرة اجتماعية فان اثر اللغة في تكوينه كبير ذلك لان اللغة عنصر مهم من عناصر الثقافة المردية والاجتماعية ، وهي الواسطة الوحيدة لانتشار الافكار بين الناس والتأثير في سلوكهم وتمكيرهم ، ونقل التراث الاجتماعي في جوانبه المتعددة من جيل الى جيل ومن قطر الى آخر . والامة عدد ديوي تشتمل على جميع الاشارات والرموز المقصودة (الموضوعة اصطلاحاً) التي يستعملها الانسان للتعبير عن آرائه وعواطفه والتأثير في سلوك الآخرين . هذه الرموز اما ان تكون مكتوبة او غير مكتوبة ، وتلك الاشارات اما ان تكون مرسومة او ان يقوم بها الشخص بشكل عملي كأن يحرك يديه حركات معينة الخ . . واللغة محصورة عند الانسان فقط ولا تشاركه الحيوانات فيها الا بالمقدار الذي تتعلمه منها برساطته<sup>(١)</sup> . والشئ المهم في الالة بالاضافة الى

(١) لقد اختلف الباحثون في نشأة الالة وفي وظيفتها . على ان الشئ المتفق عليه هو ان الوظيفة الاناس للغة هي محاولة التأثير من جانب المتكلم في سلوك السامعين لغرض تغييره على الشكل الذي يريد . وتلي هذه الوظيفة وظائف ثلاث هي (١) تعبير المتكلم أو الكاتب عن آرائه وعواطفه (٢) نقل التراث الاجتماعي (شفوياً او بطريقة مكتوبة) من شخص الى شخص ومن جيل الى جيل ومن مجتمع الى آخر (٣) وصف المتكلم او الكاتب للحوادث والوقائع للسامعين والقارئين.

الرموز ( اصواتها عند التكلم واشكالها عند الكتابة ) والاشارات التي مر ذكرها<sup>(١)</sup> . من حيث وجودها المادي ، هو المعاني التي تدل تلك الرموز عليها . احي ان العبرة في الرموز اللغوية ليست موجودة في الالفاظ او الاشارات من حيث كيانها المادي بل في معانيها او دلالتها . وعلى هذا الاساس يمكننا ان نقول ان كل شيء له دلالة او معنى ( بالنسبة لشخص معين او مجموعة من الناس ) بالاضافة الى وجوده المادي يدخل ضمن اللغة . فاللغة اذن مجموعة من الرموز والاشارات المصطلح عليها من قبل جماعة من الناس لتفاهم والمشاركة في العيش .

ذلك ما يتصل بتعريف اللغة وتحديد مجالها . اما عن الصلة بين اللغة والعقل فيمكننا ان نقول ان هناك ، عدا رأي ديوي ، رأيين آخرين . يتلخص الاول منهما في القول بان الفكر او العقل ضرب من ضروب اللغة - اي انه لغة صامتة يتكلمها المرء لنفسه . ويتلخص الرأي الثاني في القول : ان الصلة بين العقل واللغة معدومة . واللغة ، على هذا الاساس ، وسيلة لنقل الافكار ( محتويات العقل او الفكر ) من شخص الى شخص لا اكثر ولا اقل . اي ان اللغة وعاء الافكار ، ووظيفتها الاحتفاظ بملك الافكار او نقلها من شخص الى شخص ( بغض النظر

---

بند (١) فيدشرطي الزور . مثلاً تتكلم لغة خاصة عندما تتحرك بحركات معينة انشاء تاديتيه لواجباته . ويفهم تلك اللغة في العادة سواق السيارات والمجلات . ويكون الغرض منها محاولة تغيير اتجاهاتهم وحركاتهم وفقاً لها محافظة للامن والنظام والارواح والممتلكات من التعرض للخطر . واذا فشل احدكم في تفسير دلالتها تعرض هو او غيره ( او كلاهما ) للاخطار من ناحية الاصطدام المادي وما يقبده من اضرار جسمية ومادية وعقوبات حكومية .

عن الزمان والمكان) . فهي كالقدح ومحتوياتها كالماء . ومثل اللغة في هذا الباب كمثل السيارة او القطار او الباخرة التي تنقل الركاب ( الافكار ) من مكان الى مكان دون ان تغير كياناتهم المادية والفكرية والعاطفية . اما نظرية ديوي فتقول على الرغم من اختلاف اللغة عن العقل فانها شرط اساس لتكوينه . فاللغة وان كانت شيئاً غير العقل الا ان العقل لا يتكون بدونها . فكما ان المعدة شيء يختلف عن عملية الهضم فان عمالية الهضم ذاتها لا تتم دون ان توجد المعدة وتكون سليمة كذلك . يسير العقل أو الفكر اثناء قيامه بواجبه حينما يتعرض الانسان الى مشكلة يتحتم عليه حلها أو التغلب عليها ، وفق خطة واضحة المعالم متصلة الاجزاء لها بداية ونهاية ، يتأثر كل جزء منها بالجزء الذي يأتي قبله في التسلسل ويؤدي بدوره الى الجزء الذي يأتي من بعده . ويطلق ديوي على هذه العملية اسم التفكير Thinking ، ويسمي اجزاءها خطوات التفكير او صراته او عناصره (١) . وقبل ان نستعرض سير التفكير عند الانسان يجبل بنا ان نهد لذلك بالاماع الى عدة ملاحظات هامة تساعد معرفتها على جعل رأي جون ديوي في التفكير واضحاً . تلك الملاحظات هي :

(١) وضع ديوي ذلك بشكل واضح للمرة الاولى في كتابه الموسوم « كيف تفكر ؟ » الذي تم طبعه عام ١٩٠٨ ، واعاد النظر في الاسس العامة للتفكير ووضعها بشكل يختلف بضع الاختلاف عن الشكل الاول في كتابه المعروف « الديمقراطية والتربية » الذي تم طبعه عام ١٩١٥ . غير انه اعاد النظر مرة ثانية في تلك الاسس ووضعها بشكل جديد عام ١٩٣٢ عندما صدرت الطبعة المنقحة لكتابه « كيف تفكر ؟ » . وقد اجري بعض التغييرات على ذلك في عام ١٩٣٨ عندما تم طبع كتابه المسمى « المنطق » .

(١) يعتبر ذري الانسان كآ حياً نشطاً مادام يقظاً وما دام في حالة جسمية وفكرية ومزاجية تسمح له بالتعبير عن نشاطه ، بغض النظر عن مقداره أو اتجاهه . اذ ان نشاط الانسان يأخذ اشكالا مختلفة الاتجاهات والدرجات . ولا يخرج هذا النشاط ( الجسمي أو الفكري أو العاطفي ) من ان يكون سلسلة من الاستجابات التي يقوم بها الانسان وتستلزمها ملافاته بالبيئة ( الاجتماعية والطبيعية ) . وتكون غاية الانسان من كل ذلك هي ادامة الحياة بتذليل ما يعترض سبيله من مشكلات وصعوبات . والحالة التي ينشدها الانسان لنفسه هي الحالة التي ينتفي فيها وجود اللزجات بمختلف صنوفها ، من الدواحي الفكرية والعاطفية والجسمية . اي ان الانسان ، كما سلف ان ذكرنا ، يرغب دائماً في تطين حاجاته الجسمية والفكرية والعاطفية . والتفكير أحد الوسائل التي يستعين بها الانسان في مغالبة الطبيعة والمجتمع تحقيقاً لاغراضه وامانيه<sup>(١)</sup> وعملية التفكير نفسها على درجات ومراتب تختلف سعة وعمقاً . ويتوقف عمق التفكير ومداه ، في حالة استماتة الانسان به لحل مشكلاته ، على نوع تلك المشكلات ودرجة تعقدها بالنسبة للشخص الذي يواجهها .

(٢) ليس التفكير شيئاً كامناً في دماغ الانسان أو في أي جزء من اجزاء

(١) هناك ، عدا التفكير ، وسائل اخرى يلجأ الانسان الى الاستعانة بها عندما تعترض سبيله مشكلة من المشكلات ، منها : الاندفاع والانهازم ومنها اللجوء الى ما يعرف عادة في علم النفس بـ « احلام اليقظة » أو «التبرير» واضرابها . وجميع هذه الوسائل حاشا التفكير « تتغلب » على المشكلة بوساطة الهروب منها وعدم مواجهتها اطلاقاً .

جسده وتستشيره المشكلات التي يتعرض لها الانسان . بل التفكير شيء يحدث نتيجة للعلاقة بين الانسان والمشكلة التي يواجهها . ولا يمكن ان يحدث التفكير الا اذا توافر هذان العاملان : الانسان من جهة ، ومشكلة لا بد من مواجهتها ومحاولة التغلب عليها ( عن طريق التفكير ) من جهة اخرى . ولا يحدث التفكير بمجرد وجود الانسان وحده ( دون مشكلة ) ، ولا يحدث كذلك عند وجود المشكلة وحدها ، بل هو لا يحدث عند وجود الانسان ومشكلة لايهمه حلها أو التغلب عليها . انما يحدث التفكير كما ذكرنا عند وجود الانسان ومشكلة لا بد له من مواجهتها لغرض التغلب عليها .

(٣) هناك انواع كثيرة من التفكير بعضها افضل من بعض ، وبما ان الغاية القصوى للتفكير هي التغلب على المشكلات والصعوبات التي تعترض سبيل الانسان ، فان وجه المفاضلة بين انواع التفكير ينحصر في مدى قيام كل منها بتلك الوظيفة على وجهها الاتم . وافضل انواع التفكير على هذا الاساس هو التفكير الذي يكون احتمال مساعدته على حل ما يعترض سبيل الانسان من مشكلات اكثر من غيره . وهذا النوع من انواع التفكير هو الذي يتبناه ديوي ويدعو الى ضرورة تنميته عند الناس ويسميه Reflective Thinking ، وهو بنظره وحدة فكرية مترابطة الاجزاء ، ذات بداية ونهاية معينتين ، يسير التفكير الانساني اثناءها بخطوات متلاحقة . يتدكّل منها الى ما قبله ويؤدي الى ما بعده ، يبدأ بمواجهة المعضلة وتحديدها واقتراح الحلول الملائمة لها ويختبر تلك الحلول ويوازنها ببعضها لمعرفة مدى صلاحتها بالمشكلة ومقدار افادته منها في التغلب عليها ، وينتهي فعلا بالتغلب على المشكلة . ولا يتطرق حتماً ان يكون عدد تلك الخطوات متساوياً في جميع الحالات التفكيرية . غير ان عدد تلك الخطوات ، في الاعم الاغلب ،

لا يتجاوز الخمسة ، وربما يكون اقل من ذلك احياناً . ولا يشترط كذلك ان تتعاقب تلك الخطوات بالترتيب نفسه في جميع حالات التفكير ، فكثيراً ما يختلف ترتيبها ( بغض النظر عن مقدارها ) باختلاف طبيعة المشكلة التي يواجهها الانسان . غير انها تسير في العادة وفق التسلسل الذي سيأتي شرحه . ولا يشترط ايضاً ان تكون تلك الخطوات متساوية في الاهمية في العملية التفكيرية الواحدة فبعضها اهم من بعض آخر . وتقاس تلك الاهمية بمقدار ما تقدمه كل منها للتفكير من معونة عند محاولة التغلب على المشكلة التي تعترض سبيله . وبما ان عملية التفكير تستغرق زمناً يتوقف طوله على صعوبة المشكلة بالنسبة للشخص الذي يواجهها فان ذلك الزمن يتوزع على خطوات التفكير نفسها ( بغض النظر عن عددها ) توزيعاً لا يشترط فيه ان يكون متساوياً فيها جميعاً . فقد لا يحتاج احدي خطوات التفكير متتالي في عملية تفكيرية معينة الا الى بضع لحظات على حين ان بعضاً آخر في العملية الفكرية ذاتها يحتاج الى زمن اطول من ذلك او اقصر . ولا يشترط كذلك ان تستغرق الخطوة نفسها - في حالة وجودها - في عمليات تفكيرية مختلفة مقداراً واحداً من الزمن . فقد تستغرق خطوة معينة من خطوات التفكير مقداراً معيناً من الزمن في عملية تفكيرية معينة بينما تستغرق الخطوة نفسها ، في عملية تفكيرية اخرى زمناً يختلف عن ذلك الزمن من حيث الطول أو القصر . يتوقف ذلك كله بالطبع على صعوبة المشكلة بالنسبة للشخص .

اما الخطوات التي تتألف منها عملية التفكير الكاملة فهي :

- (١) الاحتمالات المتعددة التي ترد الى الذهن في العادة ( عند وجود الانسان والمشكلة التي لا بد له من التغلب عليها ) والتي يستطيع الذهن ان يستعين باحدها للتغلب على المشكلة التي تواجهه ، وتكون تلك الاحتمالات كثيرة العدد احياناً



وقليلته احياناً اخرى . ويتوقف عدد تلك الاحتمالات من حيث الكثرة والقلّة على مدى صعوبة المشكلة بالنسبة للشخص ، وعلى ثقافته العامة وخبرته السابقة وعلى كونه تلك المشكلة جديدة كلها او بعضها عليه او انه سبق له ان تعرض لامثالها . وتتوارد تلك الاحتمالات الى الذهن لاول وهلة في الغالب او توماتيكياً لمجرد مواجهة الانسان للمشكلة .

(٢) يعمن الذهن النظر في تلك الاحتمالات الوقتية التي ترد للذهن بالشكل الذي وصفناه ومن ثم يوازن بين بعضها متعامساً صلة ذلك كله بالمشكلة التي بين يديه ومدى افادته من كل منها في التغلب على تلك المشكلة . وبهذه الطريقة يستامع الذهن ان يسقط من حسابه جميع الاحتمالات التي لا تعينه على الحل الصحيح لتلك المشكلة . ويختلف عدد الاحتمالات غير ذات الصلة بالمشكلة باختلاف العمليات التفكيرية المتعلقة بصعوبة المشكلة بالنسبة للشخص .

(٣) يرشح احد الاحتمالات ( التي استبقاها الذهن لصلتها بالمشكلة التي يجابهها ) نفسه لغرض النظر في امكانية اعتباره الاحتمال الوحيد الذي يساعد الذهن على التغلب على المشكلة . ويتوقف حل المشكلة حلاً سليماً على التريث في التسليم بذلك تسليماً مطلقاً . وظاهرة التريث هذه في واقعها عملية رجوع الذهن مرة اخرى الى المشكلة للنظر فيها من جوانبها المتعددة ومعرفة مدى الافادة من تبني الاحتمال الذي رشح نفسه للاستعانة به في التغلب عليها .

(٤) وهنا اما ان يقوى يقين الذهن في الاحتمال المرشح باعتباره الاحتمال الوحيد الذي يساعد على حل المشكلة ، وبذا تتلاشى امكانية قبول جميع الاحتمالات الاخرى . واما ان يتسرب الشك الى الذهن في قبول ذلك الاحتمال فيتراجع مؤقتاً من مكانه الحالي الى المسكان الذي انتقل منه في الخطوة السابقة فاحصاً ،

باحثاً وممعناً النظر من جديد في المشكلة واحتمالات حلها . وقد يقلع الذهن عن قبول ذلك الاحتمال ويشبني - بدله - احتمالاً سبق له ان عزف عنه ، وقد يهتدي ، اثناء بحثه ، الى ايجاد احتمال جديد . وهنا يعود الذهن مرة ثانية الى عملية اوازنة بين الاحتمالات المختلفة من حيث صلة كل منها بالمشكلة التي بين يديه . وبهذه الطريقة يتراجع الذهن ، كما سلف ان ذكرنا ، الى الخطوة السابقة . وقتاً لغرض جعل تقدمه اللاحق اكثر تركيزاً ودقة مما هو عليه . ولعل هذه الصفة بالذات من صفات التفكير هي التي جعلت ديوي يفته بالتفكير « الراجع »  
. Reflective Thinking

(٥) اخراج الاحتمال الوحيد ( الذي اهتدى اليه في الخطوة السابقة باعتباراه الاحتمال الوحيد في التغلب على المشكلة ) من حيز التفكير الى حيز العمل وتوجيه السلوك وفقاً لمستزماته . وبذلك يتم للشخص التغلب على المشكلة من الناحية العملية ( لانه تغلب عليها نظرياً في الخطوة السابقة ) في حالة سلاية الاحتمال الآنف الذكر . اما اذا اخفق الانسان في حل تلك المشكلة فان الذهن يتقهقر ثانية الى الخطوات السابقة فيتأمل المشكلة من جوانبها المختلفة فاحصاً وباحثاً في امكانيات حلها ، ومستمرضاً الاحتمالات السابقة التي تركها ومستنبطاً احتمالات جديدة قد تساعده على حل المشكلة التي بين يديه . وهكذا .

ومما تجدر الاشارة اليه في هذا الصدد ان كل مشكلة وحدة قائمة بنفسها ، وما كان صالحاً من الاحتمالات لحل مشكلة من المشكلات قد لا يكون كذلك بالنسبة لمشكلة اخرى ، وما كان احتمالاً غير ملائم لحل مشكلة ما قد يكون احتمالاً ملائماً لحل مشكلة اخرى . وهكذا . ولذلك يدعو ديوي الشخص الى ضرورة

التفكير في كل مشكلة يتعرض لها وان بدا لاول وهلة بان مشكلات مماثلة لها قد مرت على ذلك الشخص وان حلها معروف سلفاً لديه ولا حاجة به الى التفكير في حلها . غير ان ديوي من الجهة الثانية يدعو الى ضرورة الانتفاع بالخبرة السابقة والاستمانة بالحلول للمشكلات الماضية في تماس حلول سليمة للمشكلة الجديدة . وبهذه الطريقة يكون ديوي قد اضاف خطوة سادسة للتفكير او وجهاً آخر من وجوهه . ويتلمق هذا الوجه كما سلف ان ذكرنا في مدى الافادة من نتائج عملية فكرية معينة في حل مشكلات لاحقة تواجه الانسان في المستقبل شريطة ان ينظر الانسان بعين الدقة والرؤية الى الظروف المحيطة بكل مشكلة من المشكلات ، ويستعين على القدر المستطاع بما يمكن ان يستعين به من اوجه خبرته السابقة لغرض التغلب على ما يترض سبيله من مشكلات وصعوبات .

يركز ديوي اهتمامه من الناحية التربوية على ضرورة تربية التفكير عند الناشئة . وهو يقول ، كما سلف ان ذكرنا ، بان التفكير شيء من الممكن احداثه عند جميع الطلاب الاسوياء - اللهم الا الذين يعيقهم تركيبهم الاصبي الناقص وهم قليلون . اي ان المدرس ، بعبارة اخرى ، يستطيع ان يفرس عادة التفكير عند طلابه كما يستطيع ان يفرس الامادات الاخرى . فالتفكير شيء مكتسب لاهوروث ، كما ذكرنا في مفتتح هذا الفصل . ولسكي نربي التفكير عند الناشئة يجب ان يكون التعليم سلسلة من المشاكل لا مجموعة من التعاريف والنظريات والمعلومات التي يحفظها الطلاب دون تفهم معناها احياناً او تطبيقاتها احياناً اخرى غير ان ذلك لا ينبغي ان يفسر بأنه يتضمن اهمال الجانب الحفظي من المعرفة . انه يتضمن ضرورة الاهتمام بذلك شريطة ان يستعمل كوسيلة للتفكير . ذلك لان المعلومات النظرية وان كانت شرطاً اساساً لتكوين التفكير الا ان التفكير لا يحصل كما

ذكرنا بمجرد استيعاب الذهن لها . يضاف الى ذلك ان كثرة المعلومات احيانا قد تكون عائقاً من عوائق التفكير بدلاً من ان تكون عاملاً من عوامل حدوته .  
واسكي ينجح التعليم في تربية التفكير يذنبني ان تكون المشكلات التلميمية التي يمرض لها الطالب صعبة وسهلة في آن واحد من وجهة نظره - اي انها يجب ان تكون على درجة من الصعوبة بحيث تتحدى التفكير ، وعلى درجة من السهولة بحيث يستطيع الطالب لمس الاجابة الصحيحة في ضوء خبرته السابقة ودراسته الماضية . اما اذا كانت « المشكلة » من السهولة بحيث لم تثر التفكير عند الطالب فانها لا تكون مشكلة بالمعنى الصحيح ، واذا كانت المشكلة من الصعوبة بحيث لم يستطع الطالب الانتفاع بخبرته ودراسة الباحثين في التوصل الى حلها فانها تذوي التفكير وتثبط عزيمة الطالب وتخيفه فيهرب من امامها .



## الفصل الثامن

### العقاب : تطوره من الناحية التاريخية

لابد لمن يتصدى للبحث في تطور العقاب ، من الناحية التاريخية ، بشئى صورته ومختلف مجالاته وأنواعه ، ان يبدأ على ما أرى ، بتعريفه ليتوصل إلى الكشف عن الاسس التي يستند اليها من الناحيتين النفسية والاجتماعية . غير ان الباحث ، من الناحية الثانية ، لا يجد امر تعريف العقاب ، تعريفاً جامعاً مانعاً ، من الأمور اليسيرة . ولما كنا مع هذا نستطيع ان نقول ، إذا ما اغفلنا الدقة العلمية في البحث وقتياً ، ان العقاب يتضمن كل إجراء ( بغض النظر عن نوعه ) تقوم به الهيئة ذات السلطة ( بغض النظر عن نوع تلك السلطة وكيفية حصولها عليها ) او احد اعضاءها تأنيباً لشخص من الاشخاص لقيامه بعمل كان الافضل ، من وجهة نظر الهيئة ذات السلطة ، ان لا يقوم به إطلاقاً بذلك الشكل وفي الزمان الذي تم ذلك العمل اثناءه والمكان الذي حصل فيه . ويدعى العمل الذي اشرنا اليه جرمياً من وجهة نظر الهيئة المارة الذكر .

يأخذ العقاب اشكالا عدة تختلف شدة وضعفاً باختلاف نوع الجرم الذي يرتكبه الانسان والعوامل المحيطة به اثناء عملية الاجرام وقبلها كما تقدرها الهيئات المسؤولة . وقد مر العقاب ، كما يحدثنا مؤرخوه ، من حيث الغاية من استعماله ، مرحلتين : مرحلة الاتقام ومرحلة الاصلاح ، ينصب اهتمام المعاقب ( يكسر

القاف) والمشرع ، في المرحلة الاولى عند انزال العقوبة بالمعاقب ، في الاعمال الاغلب ، على الماضي في اقب الشخص على هذا الاساس لأنه قام بعمل ما كان ينبغي له ان يقوم به . ولم تعط نتائج عمل المعاقب ( بفتح القاف ) في الحاضر او المستقبل نصيباً من النايه والبحث عند المشرع والمعاقب إلا بمقدار تعلقها بالماضي . كما لم تعط نتائج العقاب نفسه في ملوك الذين يتعرضون لتأثيره نصيباً كبيراً من النايه والبحث . ولا يخلو هذا النوع من العقاب ، كما هو المتوقع ، من قسوة وعنف كثيراً ما يكونان على درجة كبيرة من الصرامة لا تنسجم هي ونوع العمل الذي استحق المعاقب من اجله العقاب . اما النوع الثاني من العقاب وهو احدث من زميله من الناحية التاريخية فيأخذ بنظر الاعتبار بالدرجة الاولى كلا من الحاضر والمستقبل ولا ينظر إلى الماضي إلا بمقدار تعلقه بالحاضر والمستقبل . فهو على هذا الاساس اقرب من زميله إلى الرأفة بالمعاقب منه إلى الانتقام منه .

بدأت المرحلة الاولى على ما يظن منذ ان بدأ التشريع الانساني وما زال بعض معالمها قائماً إلى اليوم في كثير من الاقطار . اما المرحلة الثانية فقد ظهرت بشكلها الواضح في اوربا قبل بضعة قرون . ومن يتتبع تاريخ الاجرام بصورة عامة وصلته بالعقاب ونظرة المشرعين إلى الاجرام ، والمجرمين يجد الصلة وشيجة بين موقف المجتمع من الخارجين على أنظمتهم وتقاليدهم من جهة وموقف السلطة الحاكمة من الثائرين على تقاليدها وأنظمتها من جهة أخرى .

كان الهدف الرئيس من انزال العقاب على بعض الأشخاص في الماضي هو التمييز عن امتعاض الشخصين ( الذي يتولى أمر عقابهم ) من بعض أعمال قاموا بها

فاستحقوا أن ينزل العقاب بهم . وشرائع حمورابي ، وهي من أهم الشرائع واقدمها ، من أوضح الامثلة على ذلك حيث كان العقاب من جنس العمل في غالب الأحيان . وتعود أسس ذلك ، من الناحية النفسية على ما أرى ، إلى أن المجرم كان يعتبر شريراً بطبيعته ، مثله في هذا الشأن كمثل المجنون الذي حل في جسمه ، من وجهة نظر الأقدمين ، نفر من الجن ، ولعل ذلك يفسر لنا الفلسفة التي استند إليها العقاب والعوامل التي جعلت العقاب قاسياً في مجموعة . لأن القصد من إنزاله كان لأجل تخويف الأرواح الشريرة وجعلها تترك الجسم الذي حلت فيه ليعود إلى وضعه السوي .

لقد حصل منذ بضعة قرون خلت انتفاض من جانب كثير من المشرعين على المبادئ التي اتخذت أساساً لتفسير الاجرام ومعاينة المجرمين . وقد نتج عن ذلك تغيير عميق الغور وواسع المدى في فلسفتي الاجرام والمعقوبة وفي تقدير آثارها النفسية والاجتماعية . ويعود ذلك في أسسه العامة إلى انتشار الافكار الحرة والمناداة بضرورة الاهتمام بالفرد واعتبار الانظمة والقوانين وسائل لحماية الانسان من نفسه من جهة ومن الآخرين من جهة ثانية . فنتج عن ذلك انتشار الدعوة ( التي نادى بها كثير من المفكرين المعاصرين وفي مقدمتهم جون ديوي ) إلى المناذاة بوجوب الاعتناء بتنظيم علاقات الافراد الاقتصادية والسياسية والفكرية والاعتراف بأن للفرد على المجتمع والدولة حق الحياة والعمل والعيش . وقد اعتبر الاجرام وتردي سلوك بعض الافراد واعتلال تفكيرهم في أسسه العامة ( اللهم إلا في حالات مرضية وشاذة ) بأنه ناتج عن سوء تربيته ورداءة أحواله الاقتصادية والاجتماعية والفكرية . واعتبر الانسان من الناحية النفسية عند ولادته

محايداً فيما يتصل بالاجرام . أي ان الاجرام قد فسر بأنه ظاهرة اجتماعية لظاهرة  
فلسفية أو بايولوجية . وإذا كان الأمر كذلك أصبح لازماً على المجتمع ، كما  
يقول المشرعون المعاصرون ، إذا ما أراد القضاء على الاجرام ، أن يبحث عن  
أسبابه ومكوناته القريبة والبعيدة . إذ أن ذلك البحث ، إذا ما كان علمياً مبنيّاً  
على الأمان والدقة ، على حد تعبير جون ديوي ، فإنه يتحتم أن يتبعه شعور على  
حالات لا صلة بين الاجرام فيها وبين الاجراءات السائدة التي تتخذ  
كوسائل لعلاجه .

يتضح من كل ذلك ان الاتجاه العام في الوقت الحاضر ينصب على دراسة  
ظاهرة الاجرام لا المجرمين ، من جهة ، ويعتبر الاجرام ، بشتى صورته ، مرضاً  
اجتماعياً قد لا يزيله العقاب ، من جهة أخرى . ذلك لأن الشخص الذي يتعرض  
للعقاب نتيجة لقيامه ببعض أعمال لا ترضيها الهيئة الاجتماعية التي يشاطرها العيش  
لا يحاول أن يقطع عن تلك الاعمال واضرابها لمجرد محاولته ان يتجنب العقاب  
ذاته . بل يحاول - تجنباً للعقاب - ان يتخذ جميع الوسائل الممكنة لاختفاء اجرامه  
عن أعين الناس وبخاصة عن الهيئة ذات السلطة . وكثيراً ما يبرع المجرم في إيجاد  
منافذ مستورة تعينه على الاستمرار في الاجرام . وعندني إذا كان لي عند كما  
يقول الجاحظ ، ان سبب ذلك من الناحية النفسية ، هو ان المجرم لا يتكون في  
نفسه الخوف من الاجرام ذاته بل يتكون عنده الحذر الذي يجعله يتفادى العقاب .  
وعلى هذا الاساس فهو لا يسمى إلى تعديل سلوكه بقدر سعيه إلى تجنب العقاب  
حتى وان اضطره بحثه عن وسائل يتجنب بواسطتها العقاب إلى أن يجعل سلوكه  
اكثراً وواجباً مما هو عليه . وإذا صح ما ذهبنا إليه لنا ان نقول ان العقاب



قد يكون عاملاً من عوامل الاجرام . يتضح ذلك كثيراً إذا ما تذكرنا ما يرافق العقاب في العادة وينتج عنه من آثار عاطفية وفكرية وجسمية (بالإضافة الى الآثار المادية الاخرى المتعلقة بالمال والامتلاكات) كثيراً ما تكون بدورها او يصبح قسم منها على كل حال ، اساساً لأنواع جديدة من الاجرام . ويتجلى سخف الفكرة القائلة بأن العقاب هو دواء الاجرام إذا ما قيل لنا على سبيل المثال ، ان طبيباً يستعمل العقاب ضد من يعرض عليه من الرضى بدلاً من ان يقوم بالمراسيم الطبية المعتادة في مثل هذه الحالات . فالاجرام وهو مرض اجتماعي ، كالمرض الجسمي ، فرصة ينبغي للمختصين ان ينتفخوا بها للبحث عن جذوره ومكوناته تمهيداً للقيام بعلاج جذري من شأنه العمل على إزائته .

يرتبط العقاب من الناحيتين الاجتماعية والنفسية بالاجرام ارتباطاً وثيقاً . ويختلف العقاب ، شدة وضعفاً ، باختلاف نظرة الشرعين إلى نوع الجريمة وظروفها وملابساتها . ونظرة الشرعين الى الجريمة منتزعة في اسسها العامة من طبيعة المجتمع الذي يعيشون فيه ومن نظمه في الدين والسياسة والاخلاق . ويظهر اختلاف العقاب شدة وضعفاً بوضوح عند المجتمعات المختلفة التي تعيش في فترة واحدة من الزمن بقدر ما يتضح في المجتمع نفسه في فترات مختلفة من تاريخه . . . وبما ان الصلة بين العقاب والاجرام وشيجة اصبح لزاماً على من يتصدى للبحث في العقاب وتطورده من الناحية التاريخية ان لا يغفل البحث في الاجرام وموقف المجتمع والشرعين منه . ولا بد لمن يتطرق إلى موضوع الاجرام من أن يلمع إلى معنى الاجرام ، من وجهة نظره على الأقل .

وعندي ان الاجرام نوع من أنواع السلوك الذي يبيده بعض الافراد في

بعض الاحيان بشكل لا ينسجم والتقاليد المألوفة والانظمة الشائعة في المجتمع الذي ينتمون إليه . أي ان الاجرام نوع من أنواع الشذوذ عما يقتضيه العرف العام وتتطلبه المستويات الأخلاقية في مجتمع من المجتمعات . وإذا سلمنا بتعريف الاجرام على هذا الشكل أصبح بمقدورنا القول بأن الاجرام قديم قدم المجتمع وانه ربما استمر ما دامت الحياة مستمرة بشكلها الاجتماعي . هذا من جهة ومن جهة ثانية فان باستطاعة الباحث أن يقول انه كلما تقدمت الحياة من الناحية الاجتماعية وكثرت علاقات الناس وتشابكت مصالحهم وتعددت صلاتهم أصبح محتملاً ان يكثر شذوذ الكثيرين من الناس عن المعايير السلوكية التي يضمنها المجتمع لأفراده لغرض السير وفقاً لمستلزماتها . وقد يرافق ذلك التقدم في الحياة الاجتماعية أن يصبح الاجرام مهنة تقوم بها مجموعات من الافراد ، تبرع كل مجموعة منها على افراد بنوع معين من الاجرام . وكثيراً ما يعين نوع المجتمع الذي يعيش الناس فيه نوع الجرائم الشائعة فيه ودرجة براعة القائمين بها . فانواع الجرائم ووسائل اقترافها وأساليب اخفائها تختلف في الاعم الاغلب ، في المجتمعات الصناعية عنها في المجتمعات الزراعية . ويصدق الشيء نفسه على سكان المدن والارياف في القطر نفسه .

لقد حاول كثير من المشرعين والمصلحين الاجتماعيين في الماضي والحاضر تفسير ظاهرة الاجرام وتلمس أسباب حدوثها . وقد جاءت تفاسيرهم مختلفة فيما بينها أشد الاختلاف . غير ان تلك التفاسير مع هذا يمكن ان تصنف ، من حيث اسمها العامة إلى مجموعتين : المجموعة التي تميز ظاهرة الاجرام إلى عوامل موروثية متصلة بتراكيب الانسان من الناحية الفسلاجية أو العاطفية أو النفسية . ويكون

الاجرام عند بعض الناس في هذه الحالة حتمياً لافتر من حدوثه ولا سبيل إلى علاجه علاجاً شافياً . اما المجموعة الثانية من الباحثين فتعزو الاجرام إلى عوامل بيئية ( جغرافية أو ثقافية أو اقتصادية ) .

يدعي حملة الرأي الاول بأن الاجرام ألحق بالفرد منه بالمجتمع . وما المجتمع بنظرهم إلا الوسط الذي يمر المجرم بواسطه عن إجرامه . وعلى هذا الاساس تقع مسؤولية الاجرام على الفرد بالدرجة الاولى ، وإذا كان لابد من إشراك المجتمع في ذلك فإن مسؤوليته ثانوية الأهمية . اما حملة الرأي الثاني وفي مقدمتهم جون ديوي فتتحو منحى معاكساً إذ هي تدعي بأن الاجرام ظاهرة اجتماعية لانفسية . وما المجرم بنظرهم إلا شخص اضطرته ظروف لاسيطرة له عليها أن يقوم بعمل يستهجنه قسم من أفراد المجتمع الذي يعيش فيه ، اصطلاح بعض الناس على تسمية ذلك العمل بالاجرام . وعلى هذا الاساس تقع مسؤولية حدوث الاجرام على المجتمع نفسه بالدرجة الاولى وعلى المجرم ذاته بالدرجة الثانية .

واعلم من المفيد أن نمرح بشيء من الايجاز الاسس التي تستند اليها كل مجموعة من المجموعتين الآتقي الذكر وأن نشير إشارة عابرة إلى أشهر اقسام كل منهما .

١ — مجموعة النظريات القائمة بأن الدوافع للاجرام عند الشخص موروثه أي ان هذه النظريات تعتبر ان الدوافع الاجرام تتوافر في قسم من الاشخاص دون غيرهم . وعلى هذا الاساس يصبح الاجرام بنظر أصحاب هذا الرأي ، أمراً حتمياً عند بعض الناس إذا توافرت فيهم صفات معينة سوف يأتي ذكرها . وإذا سلمنا بذلك ، بنظر هؤلاء ، باز لنا أن ندعي استحالة القضاء على الاجرام إلا إذا قضي

على من يتصفون به من الناحية الوراثية عن طريق الابداء أو التعميم الذي يؤدي إلى الحرمان من النسل .

غير ان حملة هذا الرأي بصورة عامة ، وإن اتفقوا على القول بأن الدوافع للأجرام موروثية تتحدّر للعجزم من أسلافه القريين والبعيدين كما تتحدّر له صفاته الجسمية (مثل الطول والقصر ولون الشعر والعينين وما شاكلها) إلا أنهم يختلفون كثيراً فيما بينهم حين يتعرضون للبحث في ماهية تلك الدوافع فيقول بعضهم إنها متصلة بتركيب الجمجمة وملامح الوجه وعظام الاطراف ويدعي بعض آخر بأنها متعلقة بالناحية الجنسية التي تتعلق بالرجال والنساء ، على حين ان فريقاً ثالثاً يزعم بأنها ناتجة عن التغييرات الكيميائية التي تعترى الدم نتيجة لافراز الغدد الصم .

يزعم الفريق الاول الطبيب الايطالي المعروف لمبروزو الذي عاش بين عامي (١٨٣٦ — ١٩٠٩) والذي تحدّر من عائلة إيطالية يهودية ودرس الطب والتحق بالقسم الطبي التابع للجيش الايطالي . لقد اهتم نظيره ظاهرة الاجرام عند بعض الجنود وأخذ يبحث عن منشئها فتوصل ، نتيجة لدراسته لأحوال المجرمين الذين عثر عليهم في الجيش الايطالي ، إلى القول بأن هناك علاقة وثيقة بين تركيب الجمجمة وعظام الوجه والاطراف من جهة وبين الاجرام من جهة اخرى . وادعى بأنه إذا كانت ملامح الوجه وعظامه وعظام الاطراف موضوعة بشكل معين (لانزى ضرورة للدخول في شرح تفاصيله) تحتم أن يكون الشخص مجرماً ، وسبب ذلك من وجهة نظره ، ان تلك الملامح آثاراً نفسية خاصة من شأنها أن تدفع صاحبها إلى الاجرام عن طريق جعله أقل قدرة (من الاشخاص غير المجرمين) على التكيف لمقتضيات البيئة ومستلزمات الحياة . وقد ازداد إيمان لمبروزو بصحة نظريته

عندما أيدت بحوثه ، التي أجراها على المجرمين غير الجنود ، دراساته التي أجراها على المجرمين في الجيش . ومن أشهر حملة هذا الرأي ، بالإضافة إلى لمبروزو ، آرتر بوديه في فرنسا ، وموريس بندكت في النمسا والاستاذ آرست هوتون أستاذ علم الاجرام في جامعة هارفرد في الولايات المتحدة .

يذهب بعض آخر ، ممن يشارك لمبروزو واعوانه القول بأن عوامل الاجرام موروثه ، إلى الادعاء بأن تلك العوامل ، وإن كانت متحدرة الانسان من أسلافه البعديين أو الفريبيين ، إلا انها لا تتصل إطلاقاً بتركيب الجمجمة وعظام الوجه أو اليدين ، بل هي ناتجة بنظرهم عن التحولات الكيميائية التي يتعرض لها بتأثير افراز الغدد الصم . والغدد الصم ، كما هو معروف ، مجموعة من الغدد التي تنصب افرازاتها بالدم مباشرة . وتختلف الكميات التي تفرزها كل غدة من تلك الغدد باختلاف نوع الغدة نفسها في الفرد نفسه من جهة ، وباختلاف الغدة نفسها في الافراد المختلفين من جهة ثانية وباختلاف الحالات النفسية التي يمر بها الفرد ذاته في فترات مختلفة من تاريخه من جهة ثالثة . وما المجرمون - بنظر حملة هذا الرأي - إلا مجموعة من الناس تكون كميات افراز الغدد الصم عندهم بشكل لا يجعلهم يفكرون تفكيراً صحيحاً في عواقب اعمالهم وتصرفاتهم وإنما يجذب لهم الاندفاع للقيام بتلك الأعمال وبخاصة الاجرامية منها . وقد بدأ التسليم بصحة هذا الرأي ، في تحليل الاجرام في امريكا اللاتينية حديثاً نتيجة لدراسة الاستاذ ماريانو رويز فيونز . ومن اشهر انصار هذا الرأي المعاصرين في الولايات الاستاذ ادورد سمث .

اما القسم الثالث من اصحاب نظرية ورائة العوامل الاجرامية فيقول : ان

دوافع الاجرام عند الاشخاص متصلة اشد الاتصال بالفرزة الجنسية<sup>(١)</sup> وحدها (فدش عن الرأة) ولا علاقة لها إطلاقاً بتركيب عظام الوجه والجمجمة واليدين كما يقول لمبروزو، أو بافراز اللد الصم كما يدعي ادورد سمث. ومن اشهر الفاعلين بهذا الرأي شاركو وجانيت وفرويد واتباعهم من اصحاب مذهب التحليل النفسي.

(١) الواقع ان المجتمع يعدل كثيراً من ميول الفطرية ( الفرائز في حالة وجودها الذي نشك فيه ) عند الانسان . فالليل الجنسي (أو الفرزة الجنسية كما يسميها فرويد) لا تنتمي كما هو المشاهد عند تطمين الرغبة الجنسية عند الانسان ، بل تتعلق في ذلك الى تكوين البيت و تربية الاطفال وتحديد العلاقات بين الزوجين والاطفال ( وهي امور اجتماعية تخضع للعرف والقانون ) . ولو كان لليل الجنسي هو العامل الحاسم في تحديد علاقات الافراد ، كما يزعم فرويد ، وهو عامل موروث بنسب متكافئة في جميع الافراد والامم ، لما رأينا هذا التنوع الكبير بين الشعوب في تقافاتها واديانها ومبادئها السياسية والاخلاقية . هذا الى ان موضوع الوراثة الفرزوية بشكل عام ( سواء اكان ذلك من وجهة نظر فرويد ام من وجهة نظر مكدوكل ) قد اصبحت بنظر كثير من علماء النفس المعاصرين وبخاصة في الولايات المتحدة من الموضوعات غير العلمية سواء اكان البحث يدور على موضوع «الفرائز» عند الانسان ام عند الحيوانات والطيور . ومن اطراف ماشرنا عليه في موضوع الفرائز عند الطيور ان بعض المختصين بعلم الطيور يعزون تصرفاتها ( الفرزوية بنظر وليم مكدوكل ) الى عوامل بيئية صرفة . وقد اثبت الاستاذ ريفان في كتابه « لغز هجرة الطيور » بان عملية بناء العشوش والهجرة واضرابها امور تتعلق بالبيئة الطبيعية ( كالحر والرياح والنور وماشاكلها ) ولا صلة له اطلاقاً بالفرائز - ان صح وجود مثل تلك الفرائز في طبيعة الطير - .

ويتصل بالناحية الجذسية عند فرويد (بشكل ضعيف) وعند يونك (بشكل واضح) اثر اللاشعور في توجيه السلوك نحو الاجرام عند بعض الناس . يضاف إلى ذلك بنظر بعض المنشقين على فرويد من اتباعه اثر الجهاز العصبي بشكل عام واقسامه العليا بشكل خاص في حدوث الاجرام وبخاصة عند المصابين بالامراض العصبية التي يعرفها المختصون .

ولعل من المناسب ان نشير في هذا الصدد إلى ان هذه المجموعة من النظريات التي تعلق ظاهرة الاجرام تعليلًا مبنياً على العوامل الوراثية عند الانسان ، سواء اكانت تلك العوامل تشريحية كما هي الحال عند لمبروزو أم تركيبية ووظيفية كما يزعم ادورد سمث أو نفسية غريزية كما يدعي فرويد واتباعه - اقول ان هذه النظرية وبفروعها المتعددة قد بدأت تتعرض بأذيالها من الناحية العلمية في السنوات القليلة الماضية . وقد ضؤل نتيجة لذلك إيمان الكثيرين من علماء الاجرام في التسليم بصحتها يضاف إلى ذلك ان رأي فرويد وإن كان وجيهاً بشكله المعتدل إلا انه كما يظن ، غير كاف بحد ذاته لتعليل جميع الحالات الاجرامية تعليلًا علمياً جامعاً مانعاً في آن واحد .

يتضح مما ذكرنا أن الآراء التي عرضناها وإن اختلفت في بعض أوجهها إلا أنها جميعاً تتفق على القول بأن الاجرام ظاهرة وراثية عند الانسان ولا أثر للبيئة في ذلك إلا بالمقدار الذي تساءل تلك البيئة فيه العوامل الوراثية في التعبير عن نفسها . وقد ذهب بعضهم إلى القول بأن بعض الجرائم تورثها بعض العناصر البشرية دون غيرها ، غير ان الدراسات العلمية الحديثة قد فندت ذلك الادعاء . ذلك ليتصل بأثر الوراثة في الاجرام . أملاحة الرأي الثاني المتائل بأن البيئة

هي العامل الحاسم في تكوين الاجرام فتعتبر الوراثة عاملاً ثانوي الأهمية في ذلك ، والانسان في نظر حملة هذا الرأي ، بطبيعته محايد فيما يتعلق بالخير والشر والاجرام وما شاكلها ، وان عوامل الاجرام في مجموعها منبثقة من البيئة التي يتعرض الانسان لتأثيرها من النواحي المادية والفكرية والعاطفية . وان تلك العوامل دون شك تستثير استجابات خاصة عند الانسان تتصل بجسمه وعواطفه وفكره ومثلها في هذا الصدد كمثل الطعام الذي يستثير في الجائع استجابات معينة تتصل بافراز الفم والمعدة وتصبح استجابة الانسان على هذا الأساس متأخرة في الزمن والأهمية عن العوامل البيئية التي أثارها . فهي نتيجة لها لا سبب لحدوثها ، ويصبح الاجرام بدوره نتيجة لتلك النتيجة . اي ان الاجرام حسب وجهة النظر هذه نوع من أنواع السلوك الذي يديه بعض الناس في بعض الاحيان نتيجة لتوافر عوامل بيئية معينة كثيراً ما تكون على درجة من التعميد والعنف بحيث يصعب كثيراً على الانسان أن يتحكم في توجيهها والسيطرة عليها . هذا إلى ان هذا السلوك ، من وجهة نظر القائلين به من جهة ثانية ، يمتد نوعاً من أنواع الاحتجاج على بعض مظاهر بيئتهم بقدر ما هو من وجهة نظر تقاليد تلك البيئات وقوانينها ، جوح في أعمال القائلين به وتصرفاتهم .

ان مجموعة هذه النظريات وإن اتفق دعاؤها على التسليم بأن الاجرام ظاهرة اجتماعية بيئية إلا أنها تختلف فيما بينها اختلافات كبيرة حينما تعرض إلى تحليل تلك البيئة إلى اوجه متعددة بعضها أشد أثراً من بعض فيما يتصل بحدوث ظاهرة الاجرام . وفي مقدمة تلك النظريات نظرية كارل ماركس القائلة بأن عوامل الاجرام اقتصادية بحتة . ونظرية مورنيسكيو الفرنسي الذي يمزج الاجرام إلى عوامل



جغرافية ومناخية . والنظرية الثالثة التي قالت بها جمهرة من الباحثين المحدثين ومفادها ان الاجرام ناتج عن ضعف الوازع الديني والخلقي عند بعض الناس . والنظرية الرابعة ( التي يؤمن بها ديوي ) القائلة بأن الاجرام ظاهرة سلوكية تحدث كلما توافرت عوامل بيئية معينة اقتصادية او جغرافية او خلقية من شأنها ان تجعل الانسجام مفقوداً بين الانسان وبيئته .

يزعم دعاة النظرية الاولى بأن العامل الاقتصادي هو العامل الاساس الوحيد الذي يؤثر في صلات الامم والافراد ويغير مجرى التاريخ . ويقصدون بالعامل الاقتصادي نوع وسائل الانتاج وملكيتهما من جهة والقوانين التي يخضع لها توزيع الثروات والارباح بين المنتجين والمالكين والمستهلكين من جهة أخرى . هذا العامل الاقتصادي بنظرهم هو الذي يغير تركيب المجتمع ونظام عيشه وفلسفته في الحياة . وما اختلاف الافراد والمجتمعات في قوانينها الخلقية وفلسفاتها الاجتماعية إلا مظهر من مظاهر اختلافها في نوع الحياة الاقتصادية السائدة . وما الاجرام إلا مظهر واحد من مظاهر سلوك الفرد يحصل نتيجة حتمية لظروفه الاقتصادية .

أما النظرية الثالثة ( التي تعزى إلى فئة من الكتاب القدامى والمحدثين وفي مقدمتهم أرسطو وابن خلدون ومونتسكيو وهكل وهنتمكن ) وفخواها ان سلوك الامم والافراد ينتج دائماً عن الآثار التي تتركها العوامل الجغرافية والمناخية في تكوينهم وفي مقدمتها الرياح والامطار والحرارة ونوع الغذاء والتربة والمعادن والمهن وما شاكلها . والاجرام وهو نوع من أنواع التصرف يمكن إرجاعه بعد التحليل الدقيق ، الى تلك العوامل مجتمعة أو منفردة . يقول مونتسكيو في

كتابه (روح القوانين) « أن الاجرام في المناطق الحارة أكثر حدوثاً منه في المناطق الباردة » وعلى هذا الاساس حسب رأي مونتسكيو كلما قرب المكان من خط الاستواء كثر حدوث الاجرام فيه<sup>(١)</sup> . ويقول الدوق كولييت ، أحد أنصار هذا المبدأ « ان جرائم الاعتداء على الاشخاص تكثر في الاقطار الحارة بالنسبة للاقطار غير الحارة من جهة وفي المواد الحارة في الاقطار نفسها من جهة أخرى » وقد أيد كثير من الدراسات الاحصائية الحديثة التي جرت في المانيا وفرنسا وايطاليا وجهة النظر تلك وقد تركزت هذه النظرية كثيراً في الولايات المتحدة نتيجة لبعوث الاستاذ أدون بكستر .

ويقول دعاة النظرية الثالثة ان الاجرام يحصل حينما يسمح لبعض الناس لانفسهم بالخرج على ما تعارف غيرهم على احترامه وإمائه من أنظمة وتقاليد وقوانين

(١) ومن الطريف ان تشير في هذا الصدد الى ان مونتسكيو (١٦٨٩-١٧٥٥) قد ذهب ابعد من ذلك في تفسير اثر البيئة الجغرافية وبخاصة الطقس في الحضارة والمجتمع والانسان . فزعم ان اختلاف الامم في نظمها السياسية والاخلاقية راجع بعد التحليل الدقيق الى اختلاف طقوسها الجغرافية . وان « الفساد » الخلقى يكثر كلما قرب المرء من خط الاستواء حيث المناخ الحار ، وان الاخلاق لاتتمو ، على حد زعمه « حيث ينمو البرتقال » - اي في حوض البحر المتوسط . وبلوح ان مونتسكيو قد اعتبر القوانين الاخلاقية الشائعة في المجتمع الفرنسي في عهده اساساً للحكم على اخلاق الامم الاخرى ، واعتبر الابتعاد عن تلك القوانين ابتعاداً عن الاخلاق نفسها وقد فانه ان يلاحظ ان ما يعتبره مجتمع من المجتمعات خروجاً على الاخلاق قد لا يكون كذلك بنظر مجتمع آخر وهكذا . ثم ان مونتسكيو لم يذكر لنا السبب الذي يجعل المناخ الحار نفسه مؤدياً للاجرام والى الشذوذ في السلوك .

اجتماعية . وبما ان تلك الامور هبذية في أسسها على بعض المسلمات الاخلاقية ،  
التي لا يجوز من الناحيتين النظرية والعملية لأي فرد أن يخرج عليها ، فان مجرد  
خروج المجرمين عليها دليل على انعدام اثر تلك المسلمات الخلقية في سلوكهم  
وتصرفاتهم . ويدعو هؤلاء المشرعون إلى ضرورة تربية الوازع الديني عند الناس  
جميعاً لاسيما المجرمين منهم لأن ذلك بنظرهم ، أجدى للمجتمع في التخلص من  
ظاهرة الاجرام من الاجراءات الاخرى الشائعة ، غير ان بعض الباحثين الاوربيين  
الآخرين يرد على ادعاء هؤلاء بقوله : ان الاجرام في اوربا بشكل خاص حسب  
الاحصاءات العلمية الاخيرة يكثر في المناطق التي يكثر فيها المسيحيون من أتباع  
الكنيسة الكاثوليكية ( وهم بنظرهم من اكثر المسيحيين تقيداً بأصول الدين )  
غير ان اصحاب نظرية الوازع الديني يفتدون ادعاء هؤلاء بأن في البيئات  
الكاثوليكية في المادة تنتشر الفاقة فيضعف الوازع الديني عند الكثيرين من  
الناس فيندفمون نحو الاجرام .

اما اصحاب الرأي الرابع وفي مقدمتهم جون ديوي فيقولون ان الانسان  
يحاول أن يعيش مطمئناً من جميع النواحي الحياتية . وبما ان البيئة بأوجها  
المختلفة قد تقف في بعض الاحيان حاجلاً بين بعض الناس فلا تسمح لهم بتطمين  
بعض حاجاتهم فان ذلك الوقوف بحذاته ، نوع من أنواع التحدي يتحتم ان  
يرد عليه بعض الناس في بعض الاحيان بنوع من الخروج على ما تواطأ الناس  
على تسميته بالعرف أو القانون . فبنت هذا النوع من السلوك من قبل أغلبية  
الهيئة الاجتماعية بأنه إجرام .

لقد تغيرت فلسفة العقاب منذ مفتح القرن الحاضر وفقاً لتغير وجهة نظر

المشرعين وعلماء الاجرام فيما يتصل بالعوامل المؤدية إليه . وقد اخذ في الايام  
 الاخيرة كثير من المشرعين وعلماء الاجرام والفلاسفة وبخاصة جون ديوي ينظرون  
 بشيء من الجدية والتأمل إلى ما ينتجه العقاب من آثار في نفوس الاشخاص الذين  
 يتعرضون لتأثيره من النواحي الجسدية والفكرية والعاطفية . وعلى هذا الاساس  
 فهم يحاولون ، جهد الامكان ان لا يوصوا بانزال العقاب إلا في الحالات التي  
 لا يجدون بداً من إنزاله فيها وهي حالات نادرة جداً آخذة بالتقلص من حيث  
 عددها ، ويعود السبب الرئيس في ذلك كما سلف ان ذكرنا ، إلى ان البحوث  
 الحديثة في علم الاجرام وعلم النفس وعلم المجتمعات البشرية اخذت تميل إلى التأكيد  
 على اثر البيئة في سلوك الانسان ، وبدأت تعتبر الانسان ، من جوانبه الاجتماعية  
 على كل حال ، نتاج بيئته بنوعها الطبيعي والاجتماعي . غير ان تغير فلسفة العقاب  
 في الوقت الحاضر مع هذا لم يستأصل ماورثته المجتمع عن الاجيال السالفة من نور  
 عام عن نسيهم بالمجرمين واستمر على الدعوة إلى ضرورة إنزال العقاب بهم بشكل  
 يتناسب ونوع إجرامهم .

لقد كان عقاب المجرم في الاجيال السالفة يتم على أيدي الاشخاص الذين  
 يتعرضون لانتأخ إجرامه ، هذا إذا كانت الجريمة ليست بذات اثر كبير على كيان  
 المجتمع آنذاك . ومن هذه الجرائم جرائم القتل والسرقة وما شاكلها . أما الجرائم  
 التي يتهدى أثرها حدود من وقمت عليهم مباشرة فلان أمر العقاب يصبح حقاً من  
 حقوق المجتمع ويترك أمر إنزاله إلى المنتفذين في المجتمع . وقد سارت البشرية  
 في هذا الاتجاه ردهاً من الزمن إلى أن أصبح أمر العقاب منوطاً بالهيئة الحاكمة  
 وحدها . وقد نتج عن ذلك مع الزمن أن اختلفت أنواع العقوبات باختلاف أنواع

الجرائم ، وأشهر العقوبات في التاريخ (١) عقوبة الاعدام (٢) عقوبة النفي (٣) عقوبة السجن . ولعل من المفيد إجمالاً للبحث أن نشير بشيء من الإيجاز غير المحل لسلك منها .

(١) عقوبة الاعدام : يظهر ان هذه العقوبة قديمة قدم المجتمعات البشرية ، غير ان أنواع الجرائم التي يستحق أصحابها عقوبة الاعدام تختلف باختلاف المجتمعات من جهة وباختلاف الفترات التاريخية التي يمر بها المجتمع نفسه من جهة أخرى . ويختلف أسلوب الاعدام نفسه باختلاف الزمان والمكان كذلك . فقد كانت عقوبة الاعدام تنفذ في المجرم في إنكلترا بين عامي ٩٩٤-١٠٣٥ عن طريق سلخ جلد المجرم ( وهو حي ) ثم وضع ذلك الجسم ( بعد سلخه ) في صندوق خشبي منبل وتركه في العراء معرضاً للهرام والبرد والحر . وكانت تلك العقوبة تنفذ في الشرق الاقصى قديماً عن طريق وضع المجرم مع حية سامة كبيرة في كيس ورميها في العراء ، وهناك أساليب أخرى نذكر منها على سبيل المثال الاوضاع الآتية : تنفيذ حكم الاعدام عن طريق قذف المجرم إلى حيوان مفترس . أو عن طريق إغراقه في اليم أو النهر - والتحدث عن عقوبة الاغراق في نهر الاوار أثناء الثورة الفرنسية من أكثر الاحاديث إبلاماً للنفس فقد أغرق الآلاف من الناس آنذاك وبخاصة في عام ١٧٩٣ . أو عن طريق الصلب كما حدث للمسيح من وجهة نظر المسيحية ، أو الرمي من محل شاهق إلى الارض . أو السم كما حدث لسقراط . أو الحرق كما حدث لبرونو الفيلسوف الايطالي . أو قطع الرأس - وحدث المقصلة الفرنسية ابان الثورة لا يحتاج إلى إعادة ، أو الشنق ، أو الجلوس على كرسي مكهرب . . . الخ . ومما تجدي الاشارة اليه في هذا الميدان ان هناك ضجة عظيمة

بدأت منذ اوائل القرن الماضي داعية الى اعادة النظر في عقوبة الاعدام وتقليل الحالات التي تستعمل فيها في اول الامر ، ثم قويت تلك الدعوة فأصبحت تنادي بانغاء تلك العقوبة اطلاقاً . وقد استجاب عدد من الدول الى ذلك حتى نهاية الحرب العالمية الثانية : بلجيكا التي ألغت تلك العقوبة في عام ١٨٦٣ ، والبرتغال في عام ١٨٦٧ ، وهولندا في عام ١٨٧٠ ، وسويسرا ( في خمسة عشر مقاطعة ) في عام ١٨٧٤ ، والنرويج في عام ١٩٠٥ ، والسويد في عام ١٩٢١ ، ولتوانيا في عام ١٩٢٢ ، واسبانيا في عام ١٩٣٢ ، والدانمارك في عام ١٩٣٣ . وهناك ثلاثة اقطار اوربية كانت قد ألغت تلك العقوبة ثم أعادتها ، وهي : ايطاليا التي ألغتها في عام ١٨٨٩ واعادتها في عام ١٩٢٨ ، والنمسا التي ألغتها في ١٩١٩ واعادتها اثناء خضوعها للحكم النازي قبل الحرب العالمية الثانية ، ورومانيا التي ألغتها في عام ١٨٦٥ واعادتها في عام ١٩٣٩ . اما اقطار امريكا اللاتينية فأكثرها قد ألغت تلك العقوبة : البرازيل عام ١٨٩١ ولسكنها أعادتها عام ١٩٣٨ في حالات قليلة جداً ، والاكوادور عام ١٨٩٥ ، وكولومبيا عام ١٩٠٠ ، والارجنتين عام ١٩٢٢ ، وكوستاريكا وبيرو وارغواي وفنزويلا عام ١٩٢٦ ، والمكسيك عام ١٩٢٩ وشيلي عام ١٩٣٠ ، وآخذ دولة على ما نظن ألغتها هي نيوزيلندا عام ١٩٤١ .

(٢) النفي والابعاد : وقد بدأ تاريخياً في فرنسا وانكلترا وروسيا ، وكان الغفيون يكبلون بالاعلال ويرسلون الى اماكن نائية . وكان الكثيرون منهم يموتون في الطريق نتيجة لصعوبة السفر أو قلة الغذاء أو قساوة المعاملة او التعرض للامراض المختلفة . وفي كتاب السير توماس مور المسمى ( الطوباوية ) وصف ممتع لهذا النوع من العقاب في انكلترا على عهده . وكان معظم المنفيين من انكلترا يرسلون الى امريكا ( القسم الذي يعرف الآن بالولايات المتحدة ) . وبعد

ارسلت اولى وجبات المجرمين الى مقاطعتي ماري لاند وفرجينيا في عام ١٥٩٧ واستمرت الحال كذلك حتى قيام الثورة الامريكية في اواخر القرن الثامن عشر وتحرير البلاد من الاستعمار الانكليزي وكان بعض المجرمين البريطانيين يرسلون الى عدن والصين والهند ونيوزيلندا واورشليم وفرنسا فكانت ترسل المنفيين الى جزيرة مدغشقر والى الجزائر وسائر مستعمراتها الاخرى فى افريقيا والشرق الاقصى . اما روسيا فكانت تنفي المجرمين الى سيبيريا - وقد بلغ عدد المنفيين الروس الى سيبيريا بين عامي ١٨٢٣-١٨٧٧ ( اي في مدة اربعة واربعين سنة ٧٧٢٩٧٩ منفيًا كما يحدثنا الاستاذ كرفيتس في كتابه (اسرار السجون) . وفي قصص تولستوي وكتاب دستوفسكي ( موطن الاموات ) كثير من القصص المؤلمة في هذا الشأن .

(٣) السجن : وهو من اقدم المؤسسات الاجتماعية التي تستعمل لانزال العقاب في بعض المجرمين . اما السجن بمعناه الحديث فلا يتجاوز عمره ١٨٥ عاماً . لقد كان السجن في اوربا حتى عام ١٧٧٥ يمتصن المجرمين السياسيين والمجرمين الخارجين على التعاليم الدينية دون سائر المجرمين . وكانت حالة السجن من النواحي الصحية والاجتماعية على جانب كبير من التأخر والقساوة . وكان يظن ان ذلك عامل من عوامل ردع المجرم عن الاجرام لكيلا يعود الى السجن مرة اخرى بعد خروجه - وهو عامل الانتقام الذي المعنا اليه - . اما في الوقت الحاضر ( نظراً لتغير فلسفة الاجرام والعقوبة ) فقد كثر الاعتناء بالسجون من حيث آتارها المادية والفكرية على المساجين كما تعددت انواعها فهناك سجون للمجرمين الاحداث ومدارس اصلاحية . الخ . كما انتشرت الدعوة الى ضرورة الافلاع عن تذيب المساجين . وقد تشيبت كذلك ونظمات السجون بأنواعها المختلفة فأصبحت (بالاضافة الى كونها وسيلة من وسائل تقييد حرية المجرم ) تؤدي بعض الوظائف التربوية فيما يتصل بتعديل السلوك وتعليم بعض الحرف .

## الفصل التاسع

### العلم<sup>(١)</sup> : منطقته وأثره في الحياة

يختلف الباحثون كثيراً فيما بينهم ، في الوقت الحاضر على كل حال ، حينما يتصدون للبحث في موضوع العلم وتحديد مدلوله ومجالاته . غير أن المرء ، مع هذا ، يستطيع ، إذا ما أخذ بنظر الاعتبار الأساس العامة التي تستند إليها بحوثهم ، أن يقول بأنهم ينقسمون ، فيما يتصل بتعريف العلم ، إلى ثلاثة أقسام . يعرف القسم الأول العلم بأنه « مجموعة من الحقائق الثابتة » . أي أن هذا الفريق من الباحثين

(١) لم تحدد كلمة علم Science قبل أواسط القرن التاسع عشر ويظن بعض الباحثين أن أول تحديد لتلك الكلمة ورد في قاموس موريس الذي طبع في عام ١٨٦٧ . ويذهب الأستاذ ميرزي في المجلد الأول من كتابه « تاريخ النكر الأوربي في القرن التاسع عشر » الذي تم طبعه في عام ١٨٩٦ إلى القول بأن كلمة « علم » قد تحدد معناها منذ عام ١٨٣١ عندما تشكلت « الجمعية العلمية البريطانية » . ومن الطريف أن نذكر هنا أن كثيراً من العلماء قبل النصف الثاني من القرن الماضي كانوا يطلقون على بحوثهم العلمية اسم « فلسفة » فالتن مثلاً أطلق على كتابه المؤلف عام ١٨٠٨ والذي يبحث في موضوع الكيمياء اسم New System of Chemical Philosophy ولا مارك سمي كتابه الذي وضعه في عام ١٨٠٩ والذي يبحث في موضوع الزولوجي Philosophie Zoologique .



يُحصر مجال العلم في الموضوعات التي تحتوي على « حقائق ثابتة » بغض النظر عن اختلاف الزمان والمكان . وهو يضع ، في مقدمة تلك الموضوعات ، الرياضيات والفيزياء والكيمياء واضرابها من العلوم ذات « الحقائق الثابتة » من وجهة نظره . هذا من جهة ومن جهة ثانية فإن هؤلاء الباحثين يركزون اهتمامهم على « الثابت » من تلك « الحقائق » . ومن الطريف أن نذكر في هذه المناسبة أن المتطرفين من حملة هذا الرأي يذهبون إلى اعتبار الرياضيات وحدها علماً دون سائر فروع المعرفة المختلفة ( بما فيها الفيزياء والكيمياء ) وذلك « لثبوت حقائقها » ، كما يدعي هؤلاء ، على مر الزمان ومختلف المكان ( في الوقت الحاضر وفي القرون الوسطى ، في العراق وفي روسيا السوفيتية ) . فللمعادلة  $2 + 2 = 4$  مثلاً تساوي ٤ في كل زمان ومكان . وتتحصر الفروق الأساس ، في هذا الصدد ، بين المجتمعات المختلفة والازمان المختلفة في الشكل الكتابي لتلك الرموز ( وهو امر كما يدعي هؤلاء يتصل بموضوع اللغة لا بموضوع الرياضيات ) ، وفي طريقة النطق بتلك الرموز ( وهو امر لغوي كذلك ولا علاقة له بموضوع الرياضيات ) ، ولا صلة له إطلاقاً في معاني تلك الرموز أو مدلولاتها ( وهو امر رياضي صرف ) . ويرافق هذا التعريف للعلم وينتج عنه أن يصبح العلماء بنظر حملة هذا الرأي اناساً يعملون باستمرار على زيادة رصيد الانسانية من الحقائق الثابتة . أي أن العلم من حيث كمية حقائقه يزداد باستمرار وهو ، في الوقت الحاضر ، اوسع منه في القرن الماضي وسيصبح حتماً في القرن القابل اوسع منه الآن . يضاف إلى ذلك أن العلم من وجهة النظر هذه يبحث في جوهر الاشياء أو طبيعتها لا في سلوكها ومظهرها الخارجي . يتضح من كل ذلك أن هذا الفريق من الباحثين يحرص اهتمامه فيما

يثصل بالعلم بالحقائق العلمية والقوانين العلمية دون اهتمام كبير بالاسلوب الذي  
بوساطته توصل العلماء الى اكتشاف تلك الحقائق والقوانين .

اما الفريق الثاني من الباحثين فينحو منحى معاكساً لمنحى الفريق الذي مر  
بنا ذكره ، ويعرف العلم بأنه الطريقة العلمية او الاسلوب العلمي المختبري - وهو  
الاسلوب الذي يتبعه في العادة المشتغلون في مختبرات الفيزياء والكيمياء حينما  
يلاحظون الظواهر الطبيعية ( والكيميائية ) ملاحظة دقيقة وموضوعية ( مستمينين  
بالادوات المختبرية لتفادي عدم دقة حواسهم <sup>(١)</sup> في تسجيل تلك الظواهر تسجيلاً  
دقيقاً) بعيدين عن التحزب والماطفة الشخصية ، وجامعين ما يستطيعون ان يجمعوه  
من تلك الظواهر لصلته بموضوع بحثهم ، ثم يقارنون ما جمعوه ببعضه وبغيره

(١) من ذلك مثلاً ان تقدير الانسان لدرجة حرارة مكان معين يتأثر ، اذا  
اعتمد على حواسه وحدها ، بدرجة حرارة المكان الذي جاء من عنده . فتراعى  
له ان المكان الجديد اكثر حرارة مما هو عليه اذا كان الشخص قادماً من مكان  
درجة حرارته اوطأ من درجة حرارة المكان الجديد . والعكس صحيح كذلك .  
والناظر الى شيء يستصغر حجمه اذا كان ذلك الشيء موجوداً بالقرب من شيء  
اكبر منه حجماً ، وبالعكس . ومن يقرب من النار يشعر بارتفاع في درجة حرارتها .  
وبالعكس . والعصا الغمور جزئاً منها في الماء تبدو للعين كأنها مكسورة والواقع  
ان درجة حرارة المكان في المثال الاول قيست بالنسبة لغيره من جهة وبشكل غير علمي  
من جهة اخرى . وكذا حجم الشيء في المثال الثاني . اما في المثال الثالث فان  
الانسان لا يتأثر بدرجة الحرارة النار مباشرة بل بدرجة الحرارة للهواء اللامس لها . اما في  
المثال الرابع فان الضوء هو المنكسر لا العكس ، وفقاً لقاعدة فيزيائية معروفة .

(مستعنيين بما هو مسلم به من قوانين ونظريات علمية) لغرض استقراء قاعدة علمية او وضع نظرية علمية او قانون علمي ينتفع به في المستقبل . اي ان الطريقة العلمية في العادة تبدأ من الجزئيات لتنتهي بالكليات ، فتستقرأ القاعدة او القانون مما تشاهده . اي انها تتبع ما يعرف عادة بالطريقة الاستقرائية In luctvie Method . غير ان هذا لا يذبغي ان يفسر بأنه يتضمن عدم انتفاع الاسلوب العلمي بالطريقة الاستنتاجية Deductive Method - طريقة النزول من الكلّيات والنظريات والقوانين العامة الى الجزئيات . ولكنه يتضمن حتماً التسليم بان السير من الكلّيات الى الجزئيات في مجال العلم ، من الناحية التاريخية ، يذبغي ان يعتبر بأنه مرحلة كان وجودها نتيجة للسير من الجزئيات الى الكلّيات . اي ان القانون العلمي الذي نستعين به في الوقت الحاضر مثلاً لتفسير بعض الحقائق الجزئية كان وجوده نتيجة لعملية استقرائية سابقة . هذا من جهة . ومن جهة ثانية فان القانون العلمي نفسه اذا ما تعذر انطباقه على حقائق يفترض فيه ان ينطبق عليها في الوقت الحاضر ( وربما في المستقبل ) فان ذلك يحد ذاته عامل من عوامل اعادة النظر في صحة القانون نفسه عن طريق جمع ما يمكن جمعه من الحقائق المتصلة بالحالة التي تتعلق به ، لمعرفة اسباب عدم انطباقه عليها او عدم خضوعها له<sup>(١)</sup> . ويشودف

(١) يجمّل بنا هنا ان نذبه القاري، الى ان الظواهر الطبيعية والحقائق العلمية لا تخضع للقاعدة العلمية او القانون العلمي كما يخضع البدل الى سيده او المحكوم الى حاكمه . ذلك لان القوانين العلمية اوصاف لعلاقات معينة بين تلك الظواهر . واذا نظرنا للموضوع من الناحية التاريخية امكنتنا ان نقول بان اعتبار الظاهرة الفلانية خاضعة للقانون الفلاني - عمى ان ذلك القانون مسيطر عليها - قد =

مصير ذلك القانون على مدى تأييد تلك الحقائق له . فإذا تكدت تلك الحقائق ،  
او بعضها ، عليه فإن ذلك يتضمن ضرورة البحث في قضية تعديله او استبداله  
بغيره او تحديد مجال عمله . وفي ضوء ما ذكرنا يمكننا ان نقول ان هذا الفريق  
من الباحثين يركز اهتمامه على الاسلوب<sup>(١)</sup> العالمي نفسه اكثر منه على النتائج

= تحدر الينا من المجتمع اليوناني ( المنقسم الى طبقتين : احرار وعبيد كما سلف ان  
ذكرنا ) حيث كان الخضوع يفسر تفسيراً اجتماعياً وعلمياً . الواقع ، كما يحدثنا  
ديوي ، ان خضوع الظواهر الطبيعية للقوانين العلمية شيء يشبه خضوع لاعب كرة  
القدم لقوانين تلك اللعبة التي تنظم علاقاته بالكرة والساحة والحكم واللاعبين  
الآخرين من الناحيتين الزمانية والمكانية .

(١) ولعل من المناسب ان نذكر هنا ان مجال العلم عند حملة هذا الرأي  
أوسع منه عند حملة الرأي الاول ذلك لان كل موضوع يمكن اخضاعه للاسلوب  
العلمي يدخل ضمن حضيرة العلم . فالفيزياء علم ، والكيمياء علم والبايولوجي علم  
والطب علم وعلم النفس علم وتلم الاجتماع علم والجغرافية علم الخ . . . غير ان هناك  
فروقاً بين هذه العلوم من حيث سعة انطباق الاسلوب العلمي عليها وعمقه .  
وكما خضع الموضوع (سعة وعمقاً) للاسلوب العلمي اصبح اكثر تأهية من غيره .  
وعلى هذا الاساس تصبح الفيزياء والكيمياء في مقدمة العلوم وتليها الموضوعات  
الآخري . ومن الطريف ان ينسب القاريء الى ان حملة الرأي الثاني لا يعتبرون  
الرياضيات تماماً مضبوطاً (عكس المتطرفين من حملة الرأي الاول) ذلك لان  
الرياضيات على حد زعمهم تستند الى مسلمات لم تثبت صحتها من الناحية العلمية .

(الحقائق والنوانين والنظريات) التي نتوصل إليها بواسطة ذلك الأسلوب . ومما تجدر الإشارة إليه في هذا الصدد ان هذا الفريق من الباحثين لا يستبعد الحقائق والقوانين عن حضيرة العلم وإنما هو يعتبرها ثانوية الأهمية والوجود لانه يعطى القدر المعلى للأسلوب العلمي الذي بواسطته توصل العلماء الى تلك الحقائق والقوانين .

أما الفريق الثالث من الباحثين ، وعلى رأسهم جون ديوي ، فيرى ان رأيي الفريقين الآنف الذكر متكاملان لا متعارضان . وحجته في ذلك ان التلازم بين الأسلوب العلمي والطريقة العلمية يكاد يكون تاماً . وما الحقائق العلمية الا تلك الحقائق التي توصل إليها العلماء بالطريقة العلمية . والطريقة العلمية بدورها أسلوب يوصلنا الى اكتشاف الحقائق العلمية . وهكذا دواليك . غير ان الطريقة العلمية ، من وجهة النظر هذه ، تتصف من حيث نتائجها بان الحقائق والقوانين التي يتوصل إليها بواسطتها الى معرفتها لا تكون ثابتة ثبوتاً مطلقاً ( بغض النظر عن الزمان والمكان ) بل يكون ثبوتها نسبياً<sup>(١)</sup> . وان جميع القوانين العلمية المعروفة (حتى

= المختبرية . وهم يستشهدون بحملة طريفة ذكرها الرياضي الانكليزي المعروف برتراند رسل عام ١٩٠١ جاء فيها :

„ Mathematics may be defined as the subject in which we never know what we are talking about, nor what we are saying is true. „

(١) ان هذا لا ينبغي ان يفسر بانه يتضمن ثبوت الطريقة العلمية نفسها او جمودها ذلك لان الطريقة العلمية نفسها في تطور مستمر نحو الدقة والوضوح . غير ان التغيرات التي تطرأ على الأسلوب العلمي لا تغير من كيانه الا بتقدير يجعله =

الرياضية منها) قوانين نسبية تعمل في مجالات معينة لا تتعدها ، وكثيراً ماختلف باختلاف الزمان والمكان . وبتقدير ما يتعلق الموضوع بالرياضيات (وهي اكثر العلوم ثبوتاً من حيث حتماتها وقوانينها) يمكننا ان نقول ان حاصل جمع  $٢ + ٢$  يكون احياناً  $٤$  ، واحياناً اخرى اقل من اربعة . ويكون حاصل الجمع احياناً  $٢$  فقط شريطة ان تترك الرموز ذاتها وتأخذ بنظر الاعتبار محتوياتها او مدلولاتها . فاذا جمعنا دينارين عراقيين مثلاً مع دينارين عراقيين آخرين في الوقت الحاضر كان المجموع اربعة دنانير عراقية . غير ان مجموع حجمين من الكحول مع حجمين من الماء لا يساوي اربعة حجوم غير ممزوجة ، بل اقل من ذلك . وسبب ذلك يعود الى ان المساحة التي تشغلها جزيئات سائلين ممزوجين يتوقف مقدارها على شدة تماسك جزيئات كل منهما . فاذا مزجنا سائلين شدة تماسك جزيئات احدهما اضعف منها في الآخر (كما هي الحال في الكحول والماء) نفذت بعض جزيئات السائل الاكثر تماسكاً من بين الفراغات النسبية الموجودة بين جزيئات السائل الآخر . وتكون النتيجة مشابهة لخلط مقدار من البرتنال مع مقدار من الرقي حيث ينفذ الاول بين فراغات الثاني . ويكون حاصل جمع  $٢ + ٢$  مساوياً  $٢$  اذا علمنا باننا اذا خلطنا غازين درجة حرارة كل منهما  $٢^\circ$  فان درجة الحرارة الجديدة لا تكون  $٤^\circ$  بل  $٢^\circ$  .

---

= اكثر علمية من ذي قبل بنظر القارئين بذلك التغيير . على حين ان التغيير في القوانين العلمية كثيراً ما يتناول كياناتها العامة . والتغيير في الطريقة العلمية يحصل عن طريق الآلات المخترعة وعن طريق المعادلات الرياضية في آن واحد بحيث تصبح اكثر دقة مما كانت عليه . يضاف الى ذلك ان التغيير في الاسلوب العلمي يكون نسبياً ابطأ منه في القوانين العلمية .

وتتجلى نسبة القوانين الرياضية في الهندسة بوضوح ، فقد ذكر اقليدس  
العالم اليوناني المعروف في كتابه « مباديء الهندسة » الذي وضعه عام ٣٠٠ ق.م  
على ما يظن جملة من القضايا الهندسية منها ، على سبيل التمثيل لا الحصر ، ان الخط  
المستقيم اقصر بعد بين نقطتين ، وان الخطين المتوازيين لا يلتقيان مهما امتدا ،  
وان مجموع زوايا المثلث يساوي  $180^\circ$  او مجموع زاويتين قائمتين الخ . . . غير  
ان جبهة من علماء الهندسة الذين جاؤا بمد اقليدس ( وفي مقدمتهم كوس الالاماني  
١٧٧٧-١٨٥٥ ، ولا بوكوفيزكي الروسي ١٧٩٣-١٨٥٦ ، وبوبلي الهنغاري  
١٨٠٢-١٨٦٠ ، وريمان الالاماني ١٨٢٧-١٨٦٦ ) قد ذكروا لأول مرة في تاريخ  
الفكر الانساني بان هندسة اقليدس التي مرت الاشارة اليها لا يمكن التسليم بان  
صحتها مطلقة في كل زمان ومكان . اي ان هناك مجالات محدودة نسبياً لتطبيقها ،  
وهناك مجالات اخرى لا تنطبق عليها تلك المباديء الهندسية وانما يجب ان تبني  
هندستها على أسس جديدة تختلف ( وبعضها يفاير ) الاسس الاقليدية . وعلى  
هذا الاساس لا يمكن ان يقال ، كما ادعى اقليدس واتباعه ، بان الخطين المتوازيين  
لا يلتقيان مهما امتدا الخ . . . وجرباً مع هذا المنطق الهندسي الجديد يمكننا ان  
نقول ان الخطين المتوازيين لا يلتقيان مهما امتدا احیاناً ويلتقيان في نقطة ما احیاناً  
اخرى . وان مجموع زوايا المثلث يساوي احیاناً  $180^\circ$  واقل من ذلك احیاناً اخرى .  
وان الخط المستقيم اقصر بعد بين نقطتين احیاناً والخط المنحني اقصر بعد بين  
نقطتين احیاناً اخرى . كل ذلك يتوقف على المجال الذي تنطبق تلك الاسس  
الهندسية عليه . فالخطان المستقيمان الاذان ترسمهما على الورق او السبورة لا يلتقيان  
مهما امتدا ، ومجموع زوايا المثلث المرسوم على الورق او السبورة يساوي  $180^\circ$  ،

والمستقيم المرسوم على الورق او السبورة اقصر بعد بين نقطتين . على حين ان « المستقيمين » اللذين يرسمها المساح من اية نقطتين على سطح الارض يلتقيان في نقطة ما على سطحها حتماً ، وزوايا مثلث مرسوم على الارض بحيث يقع احد رؤوسه في القطب ( الشمالي او الجنوبي ) ويقع رأساه الآخران في نهايتي خط الاستواء يميناً وشمالاً يساوي اكثر من  $180^\circ$  ، واقصر مسافة في الجو او على البحر او سطح الارض هي الخطوط الجيوديسية Geodesic Lines . وهي خطوط منحنية . فلو تتبعنا سير الطائرات بين نيويورك ولندن مثلاً لوجدناه مبنياً على تلك الاسس نفسها . فليست اقصر مسافة بينهما خطأً مستقيماً عبر فضاء المحيط الاطلسي بل هي خط منحن - An arc of a great circle - . يتجه من نيويورك شمالاً عبر نوفاسكوشيا ماراً بنيو فونز دلا ند فايسلند . كما ان اقصر مسافة على سطح البحر بين سان فرانسيسكو وبو كوهاما مثلاً ليست خطأً مستقيماً عبر المحيط الهاديء وانما هي خط منحن كزميله السابق . ويعود السبب في ذلك الى ان هندسة السكون هندسة منحنية لا مستوية كما ظن اقليدس - وذلك لان الارض كروية لا مسطحة ، وتحر كة لا ثابتة حسب معلوماتنا الحاضرة (١) .

(١) ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد هو انه على الرغم من التسايم بهذه الحقائق العلمية منذ عهد كوبرنيكس ( ١٤٧٣-١٥٤٣ ) فان الكثيرين من الناس وبضمنهم المختصون بعلم الجغرافية يتكلمون عن شروق الشمس وغروبها والجهات الاربع الأصلية الخ . . . في حين ان الشمس لا تشرق او تغرب بل الارض تدور حولها فيتميز الليل والنهار ، وان الشرق والغرب والشمال والجنوب الخ . . . مصطلحات نسبية تختلف باختلاف المكان فتركبه تقع شمالي العراق ولاكنها جنوبي روسيا . . .



اما القول بان العالم يعمل باستمرار على زيادة رصيد الانسانية من الحقائق الثابتة فليس صحيحاً على هذا الوجه من وجوه الاطلاق . ذلك لان العالم قديهم كثيراً من القوانين العلمية والحقائق التي يخيل لبعض الناس انها ثابتة ومسلم بها قبل بدئه في بحثه الذي قد يؤدي الى وضع قوانين او اكتشاف حقائق علمية جديدة . غير ان الظروف العلمية والاجتماعية لكثير من العلماء تقف حائلاً احياناً بينهم وبين اضافة شيء جديد للمعرفة الانسانية . فتتهدى جهودهم عند مرحلة الهدم فقط تاركين الانشاء العلمي لمن يأتي بعدهم من العلماء . ولكن العلم نفسه مع هذا في تقدم مستمر مع الزمن . ولعل ذلك راجع الى ازدياد عدد المشتغلين به جيلاً بعد جيل . هذا من جهة ، ومن جهة ثانية فان العلم نفسه قد اتسع مداه مع الزمن كذلك وتشعبت فروعه . ويمكننا ان نقول ان العالم ( اذا كان المقصود بالعالم النوع اى طبقة العلماء لا الفرد المعين ) يعمل باستمرار على زيادة رصيد الانسانية من الحقائق العلمية والفوانين العلمية الثابتة ثبوتاً نسبياً لا مطلقاً .

وإذا نظرنا للعلم من زاوية اخرى امكنا ان نقول ان العلم ( الحديث ) لا يبحث في طبيعة الاشياء او في جوهرها كما اعتقد العلماء في الماضي اذ لم يتقدم العلم تقدماً محسوساً الا بعد ان خلع العلماء عن انفسهم فكرة البحث عن طبائع الاشياء واهتموا عوضاً عن ذلك بالبحث عن علاقاتها . وعلى هذا الاساس يمكننا ان نقول ان العالم يسمى في مختبره الى وضع كثير من المواد والحقائق المعروفة بهيئات واوضاع مختلفة لاحداث علاقات جديدة بينها لغرض الاستدلال على خواص تلك المواد بالنسبة لبعضها . وما تقدم العلم الحديث بشكل عام وعلمي الفيزياء والكيمياء بشكل خاص هذا التقدم الكبير الذي حصل منذ مفتح القرن

الحاضر الا نتيجة لسيطرة العلماء على كثير من الظواهر الطبيعية والكيميائية واستطاعتهم احداث تغييرات اساس في علاقاتها . فالعلم الحديث اذن لا يحاول حملته ان يبحثوا عن جوهر الاشياء بل هم يسعون الى الكشف عن سلوكها .

لقد استطاع الانسان في الوقت الحاضر بوساطة العلم ان يحل الغاز الكون واحداً بعد الآخر . فقد امتدت معرفة الانسان من الناحية السكانية ( نتيجة لتقدم العلم واستعمال الآلات والاجهزة العلمية الحديثة مثل المايكروسكوب والتلسكوب بانواعها المختلفة وحجومها المتباينة ) حتى شملت الكون بأسره مبتدئة من اصغر شيء في الطبيعة ( وهو الذرة ومكوناتها والقوانين التي يخضع لها سلوكها ) ومنتية بالاجرام السماوية التي تبعد عن الارض ملايين الاميال . كما امتدت تلك المعرفة من الناحية الزمانية فشملت عمر الكون والارض والحياة . فمن ناحية دراسة الذرة ومعرفة مكوناتها والقوانين التي يخضع لها سلوكها يمكننا ان نقول ان نظرية الكوانتم (١) تدمي ، كما ذكر لنا كل من نيل بوهر واللورد

---

(١) التي اوجدها العالم الالماني ماكس بلانك (١٨٥٨-١٩٤٨) في عام ١٩٠١ وفحواها ان اشعاع الطاقة الضوئية المنبعث من منبع للنور يأتي ( من منبعه الى المكان الذي يقع عليه ) على شكل وحدات متقطعة سماها بلانك Quanta وفردتها Quantum - وان حركتها تشبه من حيث الاساس حركة الارنب في سيره ( فهي ذات قفزات متقطعة ومتلاحقة ) وان كانت حركات الاشعاع اسرع بملايين المرات من حركات الارنب .

رذرفورد قبل اندلاع الحرب العالمية الاولى ، ان الذرة (١) (على الرغم من صغرها واستحالة رؤيتها بالعين المجردة) قابلة للتجزئة والانقسام - فهي ليست عنصراً واحداً بل مكونة من عناصر هي (عند بوهر ورذرفورد) نواة ذات عدد كبير من البروتونات وعدد ضئيل من الالكترونات ، ويحيط بالنواة عدد كبير من الالكترونات . وقد استمر التسليم بذلك الى ان اثبتت بحوث كل من هايزنبرغ وشرودنكر (من الناحيتين النظرية والمختبرية) منذ عام ١٩٢٥ ان الذرة مكونة من نواة ذات بروتونات ونيوترونات ، ويحيط بالنواة سبعة عناصر في غاية الدقة (٢) هي : بوزيترونات والالكترونات وفوتونات ونيوترونات وميسونات

(١) لقد حاول الانسان منذ وجوده على وجه البسيطة ان يتعرف على كنه الكون وطبيعة الاشياء والتوائين التي تخضع لها قوى الطبيعة . وكانت محاولاته الاولى غير ناضجة وتعليلاته خفة وسطحية ، من وجهة نظرنا وبمقاييسنا الحاضرة . قال طاليس العالم اليوناني الذي عاش في القرن السادس ق.م ان جميع الاشياء في الطبيعة مكونة بعد التحليل الدقيق من الماء . ويزعم آخرون ومنهم ارسطو الذي عاش في القرن الرابع ق.م بان جميع الاشياء في الطبيعة (بعد التحليل الدقيق) مكونة من اربعة عناصر : التراب ، الماء ، النار ، الهواء ، ولكل خواصه ، الهواء يصد والتراب يهبط بطبيعته ليذهب الى محله « الطبيعي » . وادعى ديموكريز الذي عاصر ارسطو بان جميع مكونات الطبيعة مؤلفة بعد التحليل الدقيق من الذرات . والذرة عنده اصغر عنصر تتكون منه المادة وهي غير قابلة للانقسام او التجزئيل . والاختلاف بين الاشياء ناتج عن اختلاف عدد ذراتها وكيفية تنظيم تلك الذرات . (٢) لا يمكن رؤيتها بالعين المجردة ذلك لان العين مثلا مكونة ، من الناحية الفسليجية ، بحيث تستطيع ان ترى امواجاً ضوئية معينة الاطوال (فاذا =

وبروتونات ونيوترونات و neutrons و photons و electrons و Positrons) (neutrino و protons و mesons وان هذه العناصر يمكن ان يتحول بعضها الى  
 بعض فالفوتونات تتحول في ظروف خاصة الى الكترونات ، والبروتونات الى  
 نيوترونات وبوزيترونات ، والميسونات الى الكترونات ، وقد نتج عن ذلك ان  
 علماء الذرة كانوا قد توصلوا قبل نشوب الحرب العالمية الثانية الى الايمان علمياً في  
 امكانية تحويل بعض العناصر الي بعض آخر وذلك عن طريق تغيير محتويات نواة  
 ذراتها . فتسنى لهم ، بهذه الطريقة تحويل المادة الى طاقة واحدثوا على هذا  
 الاساس القنبلة الذرية على اثر فلق نواة ذرة عنصر الاورانيوم وتحويل المادة الى  
 طاقة هائلة فتاكة ومدمرة<sup>(١)</sup> .

= زادت اطوالها على ذلك الحد او قصت عنه بمقدار يبدو طفيفاً هو  $\frac{1}{1000000000}$   
 سم اصبح من المتعذر على العين ان تبصر . فالاشعة فوق البنفسجية وامواج  
 Gamma في الراديوم والامواج الراديوية والامواج الكونية لا تستطيع العين  
 المجردة ان تدركها ويتوصل العلماء الى معرفتها ياساليب علمية مختلفة كتسجيل  
 بعضها بواسطة الالواح الفوتوغرافية مثلاً .

(١) ذلك لان الاجسام التي تتكون منها الطبيعة تختلف فيما بينها نظراً لاختلاف  
 عدد العناصر الموجودة في نواة ذرات كل منها . وقد اثبتت التجارب العلمية ان  
 ذرة غاز الهيدروجين احف ذرات العناصر الاخرى من حيث الوزن وابطسها من  
 حيث التركيب لان نواة ذرة الهيدروجين مؤلفة من بروتون واحد . وتلي نواة  
 ذرة الهيدروجين في الخفة والبساطة نواة ذرة الهليوم وهي مؤلفة من بروتونين  
 ونيوترونين . وهكذا تتدرج نواة ذرات العناصر صعوداً حتي تنتهي بنواة ذرة  
 الاورانيوم المحتوية على (٩٢) بروتون و(١٤٦) نيوترون ويصبح وزنه الذري =

يقول هايزنبرغ : انه باستطاعتنا ان نشبه الذرة بالمجموعة الشمسية من الناحية الجغرافية اذ توجد النواة في مراكز الذرة كما توجد الشمس في مركز المجموعة

= (٢٣٨) وهو حاصل جمع محتويات عناصر نواة ذرته بالنسبة للهيدروجين الذي يقدر وزنه الذري بواحد لان في نواة ذرته ، كما ذكرنا ، يوجد بروتون واحد فقط .

وما تجدر الاشارة اليه في هذا الصدد انه ليس من الممكن في الوقت الحاضر تحويل جميع العناصر الى بعضها . فلا يمكن مثلاً لفق نواة ذرة الهليوم الى عناصرها الاربعة لكي يتحول الهليوم الى هيدروجين . اما القول من الناحية النظرية الرياضية بإمكانية تحويل المادة الى طاقة فيعود الى البرت آينشتين الذي وضع معادلته المشهورة  $E = MC^2$  ( الطاقة = الكتلة مقدره بالفرامات  $\times$  مربع السرعة في الثانية مقدرأ بالسنتيمترات مع العلم ان الضوء يقطع ١٨٦٠٠٠ ميل في الثانية ) وتعتبر معادلة آينشتين التي وضعها في مطلع هذا القرن من اعظم المعادلات العلمية في تاريخ الفكر الانساني وعن طريقها استطاع العلماء ان يتلمسوا سبب استمرار الراديو منذ ملايين السنين مع كونه يشع ضوء وحرارة باستمرار لان كميات ضئيلة للغاية من كتلته تتحول الى مقادير هائلة من الطاقة الحرارية والضوئية . ويصدق الشيء نفسه على الشمس . هذا من جهة ومن جهة ثانية فان كتلة الجسم ليست شيئاً ثابتاً كما يقول آينشتين بل هي تتغير بتغير سرعته Velocity ، فاذا اصبحت سرعة الجسم في حر كته كسرعة الضوء ( ١٨٦٠٠٠ ميل في الثانية ) اصبحت كتلته ذات حجم هائل غير متناه ينتظم الكون بأسره . وعلى هذا الاساس يمكننا ان نقول ان الفرق في كتل الاجسام المختلفة ناتج عن فرق في سرعة حر كتها ، وكلما زادت سرعة حر كة الجسم زادت كتلته . وبالعكس .

الشمسية • وتدور حول النواة عناصر سبعة كما تدور حول الشمس الكواكب  
السيارة المعروفة كالارض والمريخ وزحل الخ • • شريطة ان نتذكر كما يقول  
هايزنبرغ ان هناك فرقين رئيسين بين الذرة والمجموعة الشمسية هي (١) ان العناصر  
السبعة التي تحيط بنواة الذرة قابل بعضها لتتحول الى بعض آخر (٢) ان  
العناصر المحيطة بنواة الذرة والتي تدور حول تلك النواة تغير مدارتها باستمرار  
فتسلك مسالك شتى اثناء حركتها حول النواة • فهي اذن تختلف عن السيارات  
التي تدور حول الشمس بمدارات ومحاور تكاد تكون ثابتة ومعروفة من حيث  
اسمها العامة على اقل تقدير • ولا يعرف بالضبط من الفاحية العامة سبب ذلك  
التغيير غير ان هايزنبرغ يميل الى الاعتقاد بانه ربما يكون ناشئاً من ان العناصر  
الصغرى المحيطة بنواة الذرة نظراً لصغر حجمها تسهل استجابتها للتأثر بالعوامل  
المحيطة بها خارج الذرة نفسها فتفقد توازنها نتيجة لذلك وتسير على غير هدى ،  
بمقاييسنا ، كما يسير النمل • وان اكثر تلك العوامل اثراً في تغيير مسالك الذرات  
هي الاشعة (٣) الضوئية التي تنطلق من عيني العالم أو من اجهزته اثناء ملاحظته  
للذرة لدراسة سلوكها وخصائصها •

(١) ولا يخرج هذا التحول كما سلف ان ذكرنا عن كونه تغييراً في عدد  
العناصر الموجودة في نواة الذرة • ولا يتم هذا التحول بسهولة اذ انه يستلزم حتماً  
استنزاف مقدار كبير جداً من الطاقة الحرارية التي يحتاج احداثها الى كميات  
هائلة من الجهود المادية والفكرية ،

(٢) ان مجرد النظر الى محتويات الذرة يجعلها تغير اتجاه سيرها ، غير ان النظر لا  
يستطيع بحد ذاته ان يفعل ذلك ، ولكن الاثر يعود الى الضوء الناتج عن الابصار  
حيث يضغط ( ضغطاً يتناسب مقداره مع شدة الضوء ) على سطح الشيء الذي يقع —

وإذا سامنا بذلك جاز لنا ان نقول مع هايز نبرغ انه ليس باستطاعتنا ان نعرف معرفة عامة (مسالك العناصر الصغرى في نواة الذرة) تصدق في جميع الحالات . وعلى هذا الاساس تصبح القوانين العلمية التي تفسر سلوك العناصر التي تؤلف نواة الذرة مبنية على اساس قوانين الاحتمال المعروفة في علم الاحصاء . فنصف اتجاهات عامة لمجموعات عامة من الذرات لا حالات فردية خاصة . ومثل تلك القوانين في هذا الشأن كمثل قوانين الوفيات والولادات في عالم الطب . فنقول مثلاً ان نسبة الوفيات في بلد ما تساوي ٢٠٪ / أي ان من بين كل مئة ولادة يحتمل ان يموت عشرون مولوداً . ولسكننا مع هذا لانستطيع ان نقول ان الطفل الفلاني سيكون حتماً ضمن العشرين بالمئة ، او ضمن الثمانين بالمئة بل ضمن احدى المجموعتين . . . وقوانين التأمين ضد الحريق أو العرق أو الموت . . . وحساب المعدلات في الباحث التجريبية في قياسات الذكاء امثلة من هذا القبيل . وإذا سامنا بذلك كما يقول هايز نبرغ اصبح بمقدورنا القول بان قوانين الاحتمال ينبغي ان تمتد لتشمل تفسير قوانين السكون باسمه لان يقتصر مفعولها على تفسير سلوك الذرة ومكوناتها .

---

= الابصار عليه . والضبط الضوئي . هما كان عالياً بالنسبة لسطح الذي يقع عليه لا يمكن في الوقت الحاضر قياسه نظراً لقلته مقداره بالنسبة للالات التي بين ايدينا . ولكن محتويات الذرة مع هذا تستجيب له مهما كان ضعيفاً بمقاييسنا . وبما ان الضوء حسب نظرية الكوانتم يتألف من مجرى ذي مكونات صغرى هي الكوانتا وان كل واحدة منها تحتوي على مقدار من الطاقة تختلف كميته باختلاف لون الضوء فان مقدار الضبط الذي تتركه حزمة من الضوء على سطح معين ما هو الا مجموع ضغوط جميع الكوانتا الموجودة في حزمة الضوء تلك .

ويعرف المبدأ (١) (الذي يدعو اليه هايزنبرغ كما سلف ان ذكرنا) علمياً بـ  
Indeterminacy or Uncertainty Principle .

ذلك ما يتصل بامتداد معرفة الانسان في الوقت الحاضر من الناحية العلمية الى  
اصغر مكونات الوجود . اما امتداد معرفته من الناحية المكانية فقد شمل معرفة  
الكثير من اجزاء الكون التي تبعد عن الارض ملايين السنين . كما توصل الانسان  
كذلك الى معرفة عمر الكون والمجموعة الشمسية ومكوناتها وعمر الارض والحياة  
وكيفية ظهورها على وجه البسيطة وامكانية حدوثها في اجرام سماوية اخرى (٢) .

(١) وما تجلر الإشارة اليه في هذا الصدد ان آينشتاين يختلف وهايزنبرغ  
على هذه النقطة بالذات اختلافاً كبيراً ويقول بما ان الكون خاضع لقوانين ثابتة  
من حيث اساسها ، وان كان ثبوتها نسبياً لا مطلقاً ، فان مفعول تلك القوانين يجب  
ان يشمل سلوك العناصر الصغرى للوجود داخل نواة الذرة .

ولم تكتب الغلبة بشكل حاسم لحد الان لاحد الرأيين السالفي الذكر . غير  
ان آينشتاين قد استطاع في العام للماضي ، كما سيأتي شرحه ، ان يوجد معادلة  
رياضية معقدة تفسر حسب رأيه سلوك الاجرام السماوية والعناصر الدقيقة في  
نواة الذرة على السواء ، كان يشتمل على اجادها كما يقول منذ حوالي ثلاثين عاماً  
وهي مبنية على اساس نظريته الحديثة للسما بنظرية المجال الموحد Unified  
Field Theory .

(٢) فقد ثبتت علمياً في الوقت الحاضر ان الشمس جرم واحد من بين آلاف  
للملايين من الاجرام . وان تلك الاجرام توجد في العادة على شكل كتل ومجموعات  
يبلغ قطر بعضها حوالي ١٠٠.٠٠٠ سنة ضوئية ( الضوء يقطع في الثانية =



أما القوانين التي يخضع لها الكون وتفسر حسب مقتضاها حركة الاجرام السماوية ومظاهر سلوكها فهي في الوقت الحاضر القوانين التي وضعها آينشتاين في

$186000 =$  ميل اي انه يقطع في السنة  $186000 \times 60 \times 60 \times 24 \times 365$  ميلا ) فيصبح طول القطر مقدراً بالاميال :  $100000 \times 60 \times 60 \times 24 \times 365$  ميلا . وتسمى تلك المجاميع من الناحية الفلكية Galaxies or Nebulae و يبلغ عددها حوالي  $100000000$  مجموعة . وهي في حركة مستمرة هائلة في هذا الفضاء الفسيح مبتعدة عن بعضها وعن الكون الذي نعيش فيه ، وتوجد بينها مسافات بعيدة للغاية . ومعظم تلك المجاميع مكون من الهيدروجين . وتقدر ابعادها عنا بواسطة مقارنة لون الضوء المنبعث عنها بلون ذلك الضوء عندما يصل الى الارض .

أما المجموعة الشمسية ( الشمس وتوابعها ) فاصبحت معرفة الانسان عنها في الوقت الحاضر واسعة وعميقة . فالشمس مثلا مكونة من مجموعة من النجوم يبلغ عددها حوالي (3000) مليون نجم . تدور حول المجرة مستغرقه (225) مليون سنة في الدورة الواحدة ، يبلغ وزن كتلتها حوالي  $2 \times 10^{27}$  طناً ، تبعد عن الارض بحوالي  $93000000$  ميل ، يبلغ طول محورها حوالي مليون ميل ، وتبلغ درجة حرارة سطحها ما يقارب  $10000^\circ$  فهرنهايت ، الهيدروجين اكثر الغازات توافراً فيها ، تشع في الثانية الواحدة من الطاقة الحرارية والضوئية ما تقدر كميته باربعة ملايين طن . والسيارات التي تدور حولها تنقسم الى ثلاثة اقسام من حيث حجمها بالنسبة للارض فنبتون واورانوس وسترن وجيوپتر اكبر حجماً من الارض واجواؤها كثيفة ورطبة والحياة فيها غير ممكنة . والسيارات التي هي اصغر من الارض حجماً كعطارد مثلاً ليس لها اجواء بالمرة والحياة فيها غير

نظريته « النسبية » المشهورة (١) . لقد مرت نظرية آينشتاين بمراحل تطويرية ثلاث بدأت اولها عام ١٩٠٥ ، وانبثقت الثانية اثناء الحرب العالمية الاولى ووضعت اسس الثابثة قبل زهاء عامين .

== ممكنة . اما السيارات التي تقرب حجوماتها من حجم الارض كما ريخ والزهرة فيجوز حدوث الحياة فيها ان لم تكن قد حدثت فعلا باسسط اشكالها . ذلك لان الحياة لا توجد ما لم تتوافر شروط معينة اهمها توافر الاوكسجين ووجود جو معتدل الحرارة لا تزيد درجة حرارته عن ١٥٠° فهرنهايت ،

(١) لعل من المناسب ان نشير هنا الى ان تفسير الكون قدمر من حيث اسسه العامة قبل ظهور آينشتاين ، بمرحلتين هما رحلة التفسير القديم ( اليوناني ) وبخاصة تفسير ارسطو ، ومرحلة التفسير الذي شاع في اوربا في القرنين الماضيين وبخاصة تفسير نيوتن . ويسمى التفسير الاول في العادة بـ Organismic Conception والثاني بـ Mechanistic Conception والثالث الحديث ( تفسير آينشتاين ) بـ Mathematical Description وفحوى الاول : ان كل ما هو موجود في الطبيعة ( من كائنات حية او جامدة ) خاضع لقوانين طبيعية واحدة . وان لكل شيء من مكونات الطبيعة مكانه الخاص به ، فالهواء يرتفع « بطبيعته » الى طبقات الجو ، والحجر يهبط « بطبيعته » الى القعر ، والحيوانات الكبيرة « بطبيعتها » تبني بيوتها على الارض ، والطيور على الاشجار . وهكذا . واذا تحرك الشيء فان « غايته » من تلك الحركة هي الوصول الى مكانه « الطبيعي » ، واذا اضطر على ترك محله فانه يقوم بسلسلة من التمرد والقاومة لغرض الرجوع الى محله « الطبيعي » . فكما ان القطة التي يطاردها الكلب تضطر على تركها محله مؤقتاً وتعود له بعد زوال الخطر . فكذلك الحال في الحجر الذي يرمى في طبقات

تعرف الاولى بالنسبية المكانية Spacial Relativity  
وتدعى الثانية بالنسبية العامة General Relativity  
وتسمى الثالثة بنظرية المجال الموحد Unified Field Theory  
والنظرية النسبية بمراحلها الثلاثة وحدة ذات اوجه ثلاثة يكمل بعضها بعضاً .  
ولسكى نوضح الاسس العامة للنسبية باوجدها الثلاثة يجمع بنا أن نتصدي لتوضيح

= الجؤ . اما التفسير الثاني للكون فمبنى على قوانين نيوتن الثلاثة المعروفة . هي :  
(١) قانون الـ Inertia وفحواه ان الاجسام الساكنة تبقى كذلك الى ان تتعرض لتأثير قوة كبرى تضطرها على الحركة فتسير بحركة متجانسة وباتجاه مستقيم الا اذا اضطرت على تغيير تلك الحركة او ذلك الاتجاه نتيجة لقوة خارجية كبيرة اخرى .  
(٢) قانون الـ Force وفحواه ان سرعة الجسم المتحرك واتجاهه تتناسبان مع مقدار القوة المحركة ( بكسر الراء ) واتجاهها . (٣) القانون القائل بان لكل فعل رد فعل يتساوى معه بالقوة وبغايره بالاتجاه .  
والجاذبية عند نيوتن « قوة » كامنة في طبيعة الاشياء ويتوقف مقدارها على كل من الكتلة والمسافة .  
وفيزياء نيوتن بشكل عام تقول ان الطبيعة مؤلفة من اجسام Particles قابلة للحركة في مختلف الاتجاهات ، يحتمل كل منها خيراً من الفراغ ، ولسكى منها كيانه الخاص به ، وهو مؤلف من ذرات غير قابلة للتجزئة تتهاك مع بعضها بواسطة قوة الجذب ، وان الجسم المتحرك او الساكن يبقى كذلك الا اذا تعرض لتأثير قوة خارجية ليس في مقدوره ان يقاومها ، وان جميع الذرات التي تتكون الاجسام منها والاجسام التي تتكون منها الطبيعة تخضع لقوانين الجذب ، وان لكل جسم في الكون كتلة ثابتة ، وان الزمان منفصل عن المكان ، وان كان فراغ تسميح الاجسام فيه والزمان فراغ تنتشر الحوادث فيه .

النقاط التالية، من وجهة نظر آينشتين ، ( ١ ) المجال والمادة والطاقة  
( ٢ ) المغناطيسية والكهربائية والجاذبية ( ٣ ) الزمان والمكان (١) .

(١) المجال والمادة والطاقة : يحددنا آينشتين أحدث شتى عن المجال  
field من الناحية الفيزيائية من حيث طبيعة تكوينه ومن حيث علاقته بالمادة  
واثره فيها وتأثره بها . والمجال بنظره وحده متصلة الاجزاء ، معقدة التركيب .  
وإذا حدث تغيير ما في أية جهة من جهات المجال رافقه حتما تغيير في المجال كله  
من حيث محتوياته ومن حيث سلوكه . وهذا يعني ان جميع مكونات الطبيعة  
من اجرام سماوية وأشجار وأحجار وأبنية وآثاث وغازات وجبال وأنهار الخ..  
موجودة دائماً في مجالاتها ( لا مستقلة بكياناتها كما خيل لنيوتن ) وان تغير  
علاقتها الزمانية والمكانية معناه بلغة آينشتاين تغير مجالاتها . اذ ان الجسم من  
الممكن أن ينقل أو ينتقل من مجال الى آخر ، وانه دائماً موجـود في مجال معين ،  
وان محتوياته وسلوكه يتأثران بالمجال الذي يوجدان فيه . ويختلف ذلك السلوك  
وتلك المحتويات باختلاف نوع المجال الذي يضمها . وما خصائص الاجسام التي  
تبدو كـأنها ملازمة لها في الواقع كما يدعي آينشتاين الا أمور منزعجة انزعاساً  
نظرياً تجريبياً مما يبدو على سلوكها في العادة من أمور متشابهة أثناء وجودها

(١) لقد نفي آينشتين وجود الاثير الذي قال نيوتن بان جميع الاجسام موجودة  
فيه وان الفراغ بين جسم وآخر مملوء (بنظرم) بالاثير . وقد عادت فكرة وجود  
الاثير مرة اخرى قبل بضعة اعوام نتيجة لبحوث الاستاذ الفيزيائي المعروف

. Dirac

في مجالات مختلفة (١). أما المادة بنظر آينشتاين فنسوع من انواع الطاقة (٢) التي يستحيل التوصل الى معرفة كميتها في الوقت الحاضر على كل حال ، وان الفرق بين تركيب الكرسى ( وهو مادة ) وتركيب الانفجار ( وهو حادثة ) فرق نوعي لا كمي اذ ان كلاً منهما في جوهره طاقة وينحصر الفرق بينهما في كمية الطاقة المستوعبة في كل منهما ودرجة تسكانتها بالنسبة للمكان الذي تشغله .

(٢) المغناطيسية والكهربائية والجاذبية : كان يظن من الناحية العلمية حتى اواسط القرن الماضي ان كلا من المغناطيس والكهرباء والجاذبية « قوة » خاصة كامنة في طبيعة الجسم الذي يحملها من جهة وانها مختلفة فيما بينها من جهة أخرى . غير ان تجارب Faraday بعد منتصف القرن الماضي قد اثبتت ان الاثر المغناطيسي أو الكهربائي يحصل نتيجة لظروف فيزيائية خاصة يحدثها المغناطيس (والكهرباء) في المكان المجاور له سماها فردي بالمجال المغناطيسي والكهربائي على التوالي . وقد أدى ذلك بدوره الى اكتشاف حقيقة أخرى حول المغناطيس والكهرباء فخواها ان التيار الكهربائي يحاط دائماً بمجال مغناطيسي . وبالعكس . اي ان في حالات معينة يستطيع المجال المغناطيسي ان يحدث تياراً كهربائياً . فالكهرباء والمغناطيس ، على هذا الاساس ، شيء واحد من حيث الاساس ، وان اختلفنا

---

(١) كمجال الجذب والمجال المغناطيسي - الكهربائي وغيرها . وما تجدر الاشارة اليه في هذا الصدد ان آينشتاين قد اعتبر في نظرية المجال الموحد التي سيأتي شرحها ان المغناطيس والكهرباء والجذب مجال واحد .

(٢) ان اول من استعمل لفظة طاقة Energy في الفيزياء الحديثة هو العالم الانكليزي ولييم تومسن (لورد كلنثن) (١٨٢٤-١٩٠٧) ، وكان ذلك في عام ١٨٥٤ .

من حيث المظهر . فهما نوعان من أنواع الطاقة . أما الجاذبية — فحسب رأي آينشتاين فهي حادثة تنتج عن التغير الزماني — المسكاني الحاصل نتيجة لوجود المادة أو هي تعديل في هندسة المسكان . أي ان الجذب بعبارة أخرى ميل مستمر من قبل الكون لتعديل شكله المنحني وتقريبه من الاستقامة (١) .

(٣) المسكان والزمان : لا يمكن فصل الزمان عن المسكان من وجهة نظر آينشتاين . أي ان الزمان بعبارة أخرى هو البعد الرابع للأجسام ( وإبادهما الثلاثة الأخرى هو الطول والعرض والسمك ) . ولهذا يقول آينشتاين : *World is Space-time Continuum* ثم ان القياسات الزمانية ( الثواني والدقائق والأيام الخ ) قياسات مكانية بالنسبة للأرض من حيث موقعها بالقياس إلى الشمس . فالساعة مثلا مقياس مكاني ( قوس قدره ٩٥° في حركة الأرض بالنسبة للشمس . وما نسميه سنة يدل على دورة كاملة ( من حيث المسكان ) للأرض حول الشمس . وان ذلك كله شيء نسبي . فالسنة مثلا ، بالنسبة للأرض ، ومن الزمن الذي تستغرقه الأرض لا يكال دورتها حول الشمس ويقدر ذلك ! ( ٣٦٥ ) يوماً كما هو معلوم . على حين ان السنة في عطارد تساوي ( ٨٨ ) يوماً من أيامنا ذلك لانه يكال دورته حول الشمس بمقدار ( ٨٨ ) يوماً من أيامنا . واليوم مثلا هو الزمن الذي تستغرقه الأرض لا يكال دورتها حول محورها ( ويساوي ٢٤ ساعة )

---

(١) Gravity is due to a change in the curviture of space-time, produced by the presence of matter; it is a modification of the geometry of space. Gravitation represents a continual tendency of the universe to straighten itself out, action at a distance is banished.

أما في عطارد فإن « اليوم » يساوي ( ٨٨ ) يوماً من أيامنا ذلك لأنه يكمل دورته حول محوره في تلك المدة . فاليوم والسنة في عطارد شيء واحد من جهة ويختلف كل منهما عما هو حادث في الأرض من جهة أخرى<sup>(١)</sup> .

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا الصدد أن آينشتاين كان قد توصل قبل زهاء عام واحد إلى نظرية جديدة سماها نظرية المجال الموحد اعتبر بموجبها الضوء والمغناطيس والجاذبية والكهرباء شيئاً واحداً - طاقة تظهر بأشكال مختلفة . وقد توصل إلى ذلك على ما يقول من الناحية النظرية ( الرياضية ) الصرفة لا من الناحية التجريبية التجريبية ، وبعد جهد علمي متواصل بدأ منذ نهاية الحرب العالمية الأولى . وقد زعم آينشتاين أن جميع قوى الطبيعة تخضع لقانون واحد ( وهو معادلة رياضية على جانب كبير من التعقيد<sup>(٢)</sup> ) .

.....

(١) ومن الطريف أن نذكر هنا أن آينشتاين فند فكرة الزمان المطلق والسكان المطلق عند نيوتن ، كما نفى فكرة فصل الزمان عن السكان . فاعتبره وقع كل منهما امرأً نسبياً أي بالنسبة لموقع الشخص على الأرض أو في الفضاء . ثم انه فند فكرة امكانية حدوث حادثتين في « آن واحد » فقال اننا لانرى الاجرام السماوية مباشرة بل عن طريق النور الذي يصل إلينا منها . وان النور يسير بسرعة قدرها ( ١٨٦٠٠٠ ) ميل في الثانية . واننا لاندرى ما يجري « الآن » في النجم المسمى Arcturus الذي يبعد عن الأرض بمقدار ٣٨ سنة ضوئية . فاذا اردنا ان نرسل إليه رسالة بالأمواج الراديوية فانها لاتصل إليه قبل عام ١٩٩٢ . في « الآن » بالنسبة للأرض تعنى عام ١٩٩٢ بالنسبة للنجم الآتف الذكر .

(٢) هذا ما يتصل بالتفسير الحديث للكون في ضوء العلم الحديث . ( بما تفسره

لقد تأثرت الحياة الحديثة بالعلم من حيث مادته ومخترعاته ومن حيث اسلوبه في البحث . فادى تطبيق العلم على بعض مظاهر الحياة الى تغييرات عميقة الغور وواسعة المدى في حياة الناس وفي علاقاتهم ببعضهم . وعن طريق المخترعات العلمية الحديثة اصبح الانسان في الوقت الحاضر يتمتع بكثير من الامور التي لم يتمتع بها القادة والملوك الذين عاشوا قبل فترة تطبيق العلم على الحياة . كما ان العلم ، من حيث اسلوبه في البحث ، قد وضع يده للانسان سلاحاً نفاذاً لحل اسرار الكون واحداً بعد الآخر من جهة وساعده على القضاء على كثير من الخرافات والاوهام المتصلة بتفسير الطبيعة او بصلة الانسان بها من جهة اخرى .

ويكفي لمعرفة اثر العلم ، من حيث مادته ومخترعاته ، في الحياة الحديثة ان نشير الى تقدم هندسة البناء والى تحسين وسائل المواصلات وزيادة سمعتها بجرأ وبرأ وجواً ، والى تقدم فني الاذاعة والطباعة ، والى اثر الكهرباء في الحياة بصورة عامة وبخاصة في التبريد صيفاً والتدفئة في الشتاء ، والى اثر علم الكيمياء في التغذية والاسمدة والعقاقير الطبية والصناعات الخفيفة والثمينة والروائح العظمية والاصباغ والملابس والمخدرات وما شاكلها ، والى اثر علم الطب في تحسين الحياة وتخفيف الآلام والويلات عن المرضى وفي القضاء على كثير من الامراض والطواعين ، وفي معرفة طبيعة الامراض ومصدرها وعلاجها ، والى التحسينات الكثيرة التي دخلت لزراعة والري وما شاكلها ، والى فلق الذرة وتكوين القنبلة الذرية ،

---

= طبيعته الانسان والمجتمع فلا نرى حاجة الى الدخول في تفاصيلها . وبامكان من اراد الاطلاع على ذلك ان يرجع الى اي كتاب حديث في علم الحياة والتشريح وفروع الطب المختلفة وعلم النفس والاجتماع واضرا بها .



والى انتاج القنبلة الهيدروجينية وآلاف المخترعات والآثار الاخرى ، والى النتائج التي تركها علم النفس وعلم الاجتماع والفلسفة وعلم الحياة والجيولوجي والجغرافية وعلم الاقتصاد واضرابها في حياة الانسان في الوقت الحاضر . ولعل من المناسب ان نشير هنا ان بعض العلماء في روسيا والولايات المتحدة استطاعوا ان يحددوا تغييرات كبيرة في الغمام ويجعلوا الغيث ينزل في الاماكن التي هي بحاجة اليه بوساطة رش المادة الكيميائية Solid carbon dioxide powder .

ذلك ما يتصل بالآثار التطبيقية المادية للعلم الحديث اما الآثار الفكرية فلا تقل عمقاً وسعة عما ذكرنا . فتمد ارتفع المستوى العام لتفكير الجنس البشري في الوقت الحاضر بالنسبة له في القرون الوسطى . وقد اقلع الناس بصورة عامة وفي مقدمتهم العلماء وطلاب المعرفة العلمية عن كثير من الخرافات والالوهام المتصلة بتفسير كثير من الظواهر الطبيعية ( كالخسوف والكسوف والمد والجزر واضرابها ) وفي طبيعة الامراض ، كما ذكرنا ، ومصدرها وعلاجها .

وإذا نظرنا الى العلم من زاوية اخرى امكننا ان نخلع عليه الصفات التالية :  
(١) انه جهد انساني مبني على التعاون ، سواء أكان ذلك متصللاً ببعوثه النظرية ( قوانينه ونظرياته ) ام متعلقاً بمجوانبه التطبيقية في جميع مجالات الحياة . فمن الجانب التطبيقي يشترك الروسي والانكليزي والالمانى مثلاً ( من حيث اختراع الآلات والادوات ومن حيث التوصل الى معرفة اساليب استعمالها ومجالات ذلك الاستعمال ) في تلك العملية فينتفع بذلك كله المجتمع الروسي والانكليزي والالمانى بقدر ما تنتفع به المجتمعات الاخرى . ومن ناحية نظريات العلم وقوانينه فانه يشترك في التوصل الى وضعها وتعديلها وتغييرها علماء كثيرون

بعض النظر عن فلسفاتهم الاجتماعية ومعتمداتهم الديفية والوان بشراتهم ومواقفهم الجغرافية . فالعلم اذن ظاهرة ديمقراطية ( اشتراكية ) لا تخضع للاحتكار او الحصر .

(٢) العلم ظاهرة ديمقراطية ( اشتراكية ) كذلك وبخاصة من حيث اسلوبه في البحث . فهو يشجع ظاهرة الاختلاف في الرأي وفقاً للمصلحة العلمية العامة . ولا يتفق مزاج البحث العلمي هو ومحاولة اتخاذ اسلوب العنف ( بما فيه التهديد او الاسكات القسري او النفي او السجن او القتل واضرابها من العقوبات الشائعة في الميدان السياسي ) وسيلة لاستئصال اثر الذين يتوصلون الى وضع قوانين ونظريات علمية جديدة تختلف هي والسائد من القوانين والنظريات شريطة ان يتم التوصل الى تلك القوانين والنظريات بوساطة الاستعانة بمنطق العلم نفسه في التجريب والمحاكمة المنطقية . وهذا يعنى بعبارة اخرى ان العلم لا يحاول التخلص من المعارضة بل هو يشجعها لانها قوام حياته وتقدمه شريطة ان تتبع المعارضة نفسها منطق العلم ذاته في البحث ، من الناحيتين النظرية والتجريبية . وعلى هذا الاساس يمكننا ان نقول ان القوانين العلمية والنظريات العلمية لا تكتسب صحتها القطعية ( من الناحية النسبية بالطبع ) في زمان ومكان معينين ما دامت هناك بحوث علمية تستند الى الاسلوب العلمي نفسه تظهر الشك في صحتها . وفي هذه الحال اما ان يحدد مجال القانون العلمي غير المتفق عليه او يعدل او يبطل . غير ان الباحث يلاحظ ، من الجهة الثانية ، مع مزيد الاسف ، ان بعض « العلماء » المعاصرين ( في الولايات المتحدة وانكلترا وروسيا والمانيا ) قد خرجوا على هذا المبدأ العلمي فطفت مبادئهم السياسية ( وعقائدهم الديفية والاجتماعية ) على تفكيرهم

العالمي وجعلته يتأثر بها ويخضع لها في كثير من الاحيان . ويرجع السبب الرئيس في ذلك كله ان اولئك « العلماء » يخضعون ولو بطريقة غير مباشرة لتوجيهات بعض الساسة وقسم من رجال الدين ومعتقداتهم السياسية والاجتماعية والدينية التي لا تكون متفقة دائماً على والمنطق العالمي . غير ان اولئك « العلماء » بدلاً من ان يخضعوا تلك التوجيهات والمعتقدات (غير العلمية) الى منطقهم العلمي (وهو امر على جانب كبير من الصعوبة من الناحيتين النفسية والاجتماعية) نراهم يفعلون العكس من ذلك تماماً . فيقومون باجراء تجارب مختبرية او يضمنون نظريات يسمونها علمية «لبرهنة» على سلامة تلك العقائد والتوجيهات . يضاف الى ذلك انهم لا يحاولون البحث علمياً في نظريات علماء لا يشاركونهم آراءهم السياسية بل يكتبون بمجرد وصمها بانها « برجوازية » او « رجعية » او « يهودية » او « ملحدة » او « شيوعية » وما شاكل ذلك من النعوت التي لا تمت الى العلم بصلة .

(٣) لقد سار العلم الحديث وبخاصة اسلوبه في البحث من الناحيتين النظرية والتجريبية ، منذ نشوئه قبل زهاء ثلاثة قرون الى الوقت الحاضر ، بخطوات متلاحقة منتقلاً بالتدريج من ظفر الى ظفر آخر اكثر منه عمقاً واوسع مدى . ولم يتراجع العلم في اتجاهه العام منذ نشأته حتى كتابة هذه السطور . وقد رافق ذلك كله وتبع عنه ان تصبح القوانين العلمية والمخترعات الصناعية في كل مرحلة من مراحل تطور العلم اكثر تركيزاً منها في المرحلة التي سبقتها . غير ان هذا لا ينبغي ان يفسر بانه يتضمن التسليم بان العلم لا يتراجع احياناً ، وفي حالات فردية ، عن مكانه الذي هو فيه الى مكان سبق ان مر به في مرحلة سابقة . غير ان مثل هذا التراجع يعتبر وسيلة لا حراز تقدم جديد . اي ان العلم يتراجع احياناً

التي يتقدم ، يتراجع في حالات فردية معينة وفي بعض الاحيان ليواصل سيره  
العام في احرار ظفر جديد يضاف الى نصر كان العلم قد حققه في السابق .  
وهكذا .

(٤) يشاهد من يدرس الاخلاق العلمية للمشتغلين بالعلم من الناحيتين النظرية  
والمختبرية انهم يتصفون بقدر ما يتعلق الامر ببحوثهم العلمية الصرفة ، بالامانة  
والنزاهة ، والاستسلام لنتائج البحث العلمي وان جاءت على خلاف ما كانوا  
يتوقمون ( بعد ان تثبتوا من سلامتها من الناحية العلمية بالطبع ) . وهذا النوع  
من انواع التصرف والخلق لا نجده متوافراً ، مع مزيد الاسف ، في كثير من  
مجالات الحياة . فالعالم ، من حيث بحثه العلمي النظري او المختبري لا يميل الى  
الغش او التضليل او الكذب . ولكنه لا يتردد عن الهبوط عن مستويات الاخلاق  
العلمية عندما يتصدى للبحث في عقائده الدينية او فلسفته السياسية او مصالحه  
الخاصة . وسبب ذلك راجع الى انه في البحوث غير العلمية يتبع اسلوباً آخر في البحث  
يختلف عن الاسلوب الذي اعتاد ان يستعين به في بحوثه العلمية .

(٥) ومن ابرز صفات البحث العلمي وجود الحرية الفردية والتنظيم الاجتماعي  
جنباً الى جنب يسند كل منهما الآخر ويستند اليه . فالعالم ، كما سلف ان ذكرنا ،  
وان بدا انه قد يجوز له في بحثه ان يخرج على بعض قواعد العلم فان ذلك يصدر  
عن طريق الاسلوب العلمي من جهة وفي حالات تصبح فيها تلك القواعد مرعزة من  
الناحية العلمية من جهة ثانية ووفقاً لقاعدة علمية حديثة التكوين او في طريقها  
الى ذلك من جهة ثالثة ، اي ان حرية العالم مقيدة باستمرار بقواعد العلم في البحث من الناحية  
النظرية والمختبرية . هذا من جهة ومن جهة ثانية فان خضوع العالم لقواعد العلم

لا يحد ابدأ من حريته الفردية في مجال بحثه ضمن نطاق البحث العلمي المسلم به (تسليماً نسبياً) في زمانه ومكانه . والقوانين العلمية بدورها ، كما ذكرنا ، لا تكتسب صفتها القطعية (من الناحية النسبية الخاضعة للزمان والمكان) مادام هناك علماء يعارضونها من الناحية العلمية . والمعارضة العلمية ، كما معنا الى ذلك في فقرة سالفة ، مشجعة علمياً ومحبية كذلك . والعلماء يحترم بعضهم بعضاً وان اختلفت وجهات نظرهم العلمية . ولا تتسرب العداوة والبغضاء الى نفوسهم الا بالمقدار الذي تكون فيه غير ذات صلة بالبحث العلمي حيث تستند مثلاً الى عواطفهم او فلسفاتهم الاجتماعية او معتقداتهم الدينية .

(٦) ان القوانين العلمية والحقائق العلمية ، كما ذكرنا ، معرضة دائماً للتغيير او التحوير او التعديل او الالغاء . غير ان ذلك التغيير او التعديل او الالغاء لا يعتبر ( من الناحيتين النظرية والتجريبية او من احدى الناحيتين في اول الامر على اقل تقدير ) وجيباً ومسلماً به عامياً الا اذا خضع لمنطق العلم في البحث .

(٧) لا بد في البحث العلمي من وجود علاقة وثقى بين النظريات العلمية المجردة والتجارب المختبرية . تسبق النظريات العلمية التجارب المختبرية احياناً ويحصل العكس احياناً اخرى . فقد توصل آيدشتاين مثلاً في مطلع هذا القرن ، بوساطة معادلات رياضية مجردة ، الى حساب درجة انحناء الاشعة الآتية من الشمس . وقد ايدت حسابه هذا الكشوف المختبرية التي قام بها بعض العلماء في افريقية الغربية والبرازيل عندما كسفت الشمس عام ١٩١٩ . كما ان هايديكوي يوكاوا ، العالم الياباني توصل في عام ١٩٤٩ بوساطة معادلات رياضية الى اكتشاف عنصر جديد من عناصر الذرة ( هو الميسون الذي حرت الاشارة اليه ) . ولم يستعمل هذا العالم

( كما يحدثنا المحكمون الذين خلعوا عليه جائزة نوبل في الفيزياء قبل بضعة اعوام )  
 اية تجريبية مختبرية بل استعمال بالقلم والورق وبعض المعادلات الرياضية .  
 غير ان تلك القوانين والنظريات لا تكتسب صفتها العلمية الثابتة ( نسبياً )  
 الا اذا ايدتها التجارب المختبرية . ولا تستطيع التجارب المختبرية ، في الوقت  
 نفسه ، ان تسير سيراً علمياً الا اذا امتدت الى فرضية علمية او خضعت لنظرية  
 علمية . فاذا جاءت النتائج المختبرية مؤيدة لمنطق تلك النظرية من الناحية العلمية  
 اصبحت تلك النظرية اكثر تركيزاً من قبل . والعكس صحيح كذلك . غير ان  
 تركيز النظرية العلمية لا يتضمن ان تجارب اخرى في المستقبل القريب او البعيد لا  
 تعرض تلك النظرية الى الزرع فيطراً عليها تغيير او تبديل . اي ان التجارب  
 المختبرية كثيراً ما تساعد على اجراء تعديلات كبيرة او صغيرة في بعض النظريات .  
 وتعمل هذه النظريات بدورها على توجيه سلوك التجارب المختبرية اللاحقة لعدم  
 نفسها او تديلها وهكذا دواليك . وكلما كثر عدد التجارب المختبرية وتعددت  
 حالاتها وتنوعت ظروفها كان ذلك من العوامل التي تساعد على فحص صحة  
 النظريات العلمية .

(٨) من الممكن ان يكون سبب حدوث حادثة معينة راجعاً الى عامل واحد  
 احياناً او الى اكثر من عامل واحد احياناً اخرى . ومن المستطاع كذلك اعتبار  
 بعض ما يبدو ( كأنه نتائج ) اسباباً ، وانه ليس من السهل تجريد الاسباب عن  
 نتائجها من الناحية العلمية (١) .

(١) غير ان تحليل الظواهر الطبيعية ( لغرض معرفة اسباب حدوثها  
 ونتائجها ) ليس من الامور اليسيرة . ويكفي لتبيان ذلك ان نشير الى ما بذله  
 العلماء اللاحقون من جهود فكرية ومادية في سبيل التوصل الى معرفة «سبب»

(٩) ان خضوع الظواهر الطبيعية للقوانين العامة شيء يختلف تمام الاختلاف عن خضوع العبد الى سيده كما ذكرنا . ذلك لان القوانين العامة ليست اموراً قائمة بذاتها لكل منها كيانه الخاص به ، وانما هي اوصاف لعلاقات معينة بين تلك الظواهر .

= حدوث الملاريا مثلا . وتجدلي في اساليب بحثهم كذلك الصلة بين النظريات والتجارب المخبرية التي اشرنا اليها في فقرات سالفة .

كان للشتغلون في موضوع مرض الملاريا قد توصلوا في مطلع القرن الحاضر ( بالاستناد الى بحوث من سبقهم من الناحيتين النظرية والتجريبية من جهة وبالاستعانة بمحاولاتهم الخاصة من جهة اخرى ) الى القول بان مرض الملاريا يقع ضمن مجموعة الامراض التي تنقلها الحشرات . فاصبح هذا الفرض بدوره عاملا من عوامل تحديد بحوثهم التجريبية وتوجيه انظارهم عملياً في ذلك المجال دون سواء . وقد توصل بعضهم بعد درس وتمحيص ليسا بالقليلين الى صحة ذلك الفرض . فقويت الفكرة القائلة بان مرض الملاريا هو من ضمن الامراض التي تنقلها الحشرات ، وقد عمل ذلك بدوره على البحث في نوع الحشرات التي تحمل ذلك المرض ، فتركزت البحوث العلمية في هذا المجال دون سواء وتوصل اصحابها الى القول بان البعوض هو الذي ينقل هذا المرض . ثم تحدد البحث بعد ذلك كثيراً حيث وجد ان نوعاً معيناً من البعوض دون سواء ينقل هذا المرض وهو بعوض *Anopheles* . ولم يتف البحث عندهذا الحد بل تعداه الى ضرورة معرفة الحالات التي ينقل البعوض المار ذكره مرض الملاريا حيث وجد ان ذلك البعوض بالذات لا ينقل دائماً مكروب مرض الملاريا بل هو يفعل ذلك في حالات خاصة . فتركز البحث على دراسة تلك الحالات الخاصة حيث ظهر ان ذلك النوع من

يقول ديوي :

Electricity, heat, light, etc., are names for ways in which definite observable concrete phenomena behave in relation to one another. Reference to electricity or heat, etc., is but a shorthand reference to relations between events which have been established by investigation of actual occurrences.

= البعوض لا يحمل مكررب المرض الا اذا لسع شخصا مصاباً بذلك المرض . وبهذه الطريقة استبعد العلماء جميع الفرضيات الاخرى لعدم تأييدها من ناحية البحث التجريبي . وقالوا ان مكروب الملاريا لا ينقله الا نوع معين من البعوض في حالات معينة فقط شريطة ان تلسع البعوض شخصا مصابا بالمرض ومن ثم تلسع شخصاً آخر سليماً . وقد ايد ذلك ما احدهم ردم المستنقعات من آثار في تقليل المرض عن طريق قتل البعوض ومنه من التفريخ . وفي ضوء ما ذكرنا يمكننا ان نقول ان البحث العلمي المركز يسير ( نظرياً وتجريبياً ) على المبدأ الآتى :  
If-and-only-if,then ومجال البحث العلمي في هذا الموضوع لازال مفتوحاً وسيبقى كذلك . وسيستمر التسليم بصحة ما توصل اليه العلماء الى ان يحدث ما لا يتفق معه نظرياً وتجريبياً . ومما تجدر الإشارة اليه في هذا الصدد ان علماء الاجتماع المعاصرين ( وبخاصة في الولايات المتحدة ) يقومون بدراسات علمية احصائية لكثير من المشكلات الاجتماعية ( كالطلاق والزواج او التعصب او البطالة الخ . . . ) لمعرفة اسبابها ونتائجها ولا يعلم المتابع لبحوثهم من ان يلاحظ صعوبة فصل الاسباب الاجتماعية عن نتائجها من جهة وصعوبة عزل بعض العوامل المؤثرة عن بعض آخر من جهة ثانية وصعوبة التسليم بان هناك سبباً واحداً لحدوث المشكلات الاجتماعية في جميع الحالات وفي مختلف البيئات والازمان من جهة =



والقول بأن الظاهرة الفلانية خانعة للقانون الفلاني - بمعنى ان ذلك القانون مسيطر عليها قد تحدر الينا من اليونان حيث كان الخضوع يفسر تفسيراً اجتماعياً يتضمن خضوع العبد لسيده . الواقع ، كما يحدثنا ديوي ، ان خضوع الظواهر الطبيعية للقوانين العامة شيء يشبه خضوع سائق السيارة لقوانين السير حيث تكون تلك القوانين وسيلة لتنظيم علاقات ذلك السائق بالسيارة والشارع وشرطي المرور والمارة والسواق الآخرين من الناحيتين الزمانية والمكانية .

.....

لقد أدى تقدم العلم ( من جوانبه النظرية وزيادة أثره من النواحي التطبيقية في الحياة التي يحياها الناس ) ببعض مفكرى القرن الماضى وبخاصة في فرنسا وانكلترا الى ان يفرضوا بان ذلك التقدم العلمي سوف يقضي على الفقر والجهل والمرض من جهة وسيزيد من التفاهم والتعاون بين الاجناس البشرية المختلفة من جهة اخرى . فمن ناحية التقدم العلمي النظري اعتقد اولئك المفكرون بان كثيراً من العقائد البالية ( بالنسبة للعلم الحديث ) والتقاليد والخرافات ( بالنسبة للعلم كذلك ) المنتشرة بين الناس في جميع مجالات الحياة الخاصة والعامة سوف تنهار امام العلم وان العلم نفسه سوف يسكون المرشد العام لسلوك الافراد والجماعات . ومن الناحية

= ثالثة وعمليات التحقيق التي تقوم بها المحاكم والشرطة في الوقت الحاضر لمعرفة اسباب ارتكاب الجرائم من اوضح الامثلة على صعوبة التسليم بوجود عامل واحد ( بفض النظر عن نوعه ) في حدوث تلك الجرائم . وكلما كانت التحقيق نزيبها ودقيقا وعلميا ظهر تعقد المشكلات وتشابكها من ناحية تعدد اسباب الحدوث وصلة تلك الاسباب بالنتائج ،

التطبيقية ظن ازلئك المفكرون بان العلم سوف يستعمل في مجالات كثيرة من شأنها خدمة البشرية ورفع مستواها الفكري والعاطفي والمادي . غير ان الحروب العديدة ( داخل حدود الامة وبين الامم ) التي شهدها العالم منذ انتهاء الثورة الفرنسية - بما فيها حربان عالميتان استعملت فيها مختلف وسائل التدمير التي اوجدها العلم الحديث - قد حذت بكثير من مفكري القرن العشرين الى ان يصموا العلم بانه اداة هدامة ومخربة . هذا من جهة تطبيقات العلم على الحياة . اما من الناحية النظرية فيدعي هؤلاء المفكرون بان العلم قد ادى الى زعزعة عقائد الناس إذ نشر بينهم الفوضى الفكرية والاحاد وعدم التقيد بكثير من المثل العليا التي سبق للمجتمع البشري أن خضع لها - واستوحى منها توجيهات معينة تتصل بخلقه وسلوكه .

الحق كما يقول ديوي أن في كلا الرأيين تطرفاً ومبالغة من جهة وشيئاً من الصواب في الحكم في جهة اخرى ووجه الصواب عند حمة الرأي الاول مستمد ( بقدر ما يتعلق الامر بالجوانب النظرية للعلم ) من استخدام العلم نفسه وسيلة للتثقيف والقضاء على كثير من الخرافات الفكرية والاجتماعية المختلفة ومساهمته الفعالة في مكافحة الطواغين الفتاكة والامراض المعدية . اما في النواحي التطبيقية فتظهر وجهة رأيهم في الاستمانة بالاختراعات العلمية المختلفة فيما يتعلق بتحسين الجوانب المادية للحياة وبخاصة ما يتصل منها بشؤون البيت والواصلات اما وجه الصواب في رأي الفريق الثاني فيستمد ( فيما يتعلق بالجوانب التطبيقية للعلم ) من الاستمانة بالعلم الحديث في التخريب والتدمير أثناء الحروب كاستعمال المايكروبات والقنابل الذرية والهيدروجينية وشا كل ذلك .

أما من النواحي النظرية فتتجلى وجاهة رأيهم في عزوف كثير من الاشخاص عن كثير من العقائد والتقاليد - ذلك العزوف المبني على فهم سطحي للعلم . ولكن في الرأيين الاتقي الذكر مع هذا خطأ مهتركا هو اسنادها حسنات العلم وسيئاته الى العلم ذاته في حين ان تلك الحسنات والسيئات من الناحيتين النظرية والتطبيقية ناتجة عن طريقة استعمال العلم لاعن العلم نفسه . واذا صح ما ذهبنا اليه جاز لنا ان نقول ان العلم ليس مسؤولا عنها بل الانسان الذي يسخر العلم لما آربه : فالظاهرة مثلا لاتاتي من نفسها القنابل على المدن المكشوفة في الحرب ! كلا . ولا هي من نفسها تنقل المسافرين عبر المحيطات او تسعف المرضى والمنكوبين بالادوية والطعام . بل هي آلة تعمل هذا وذلك ( تدمر وتهدم ) تحت أمره من يوجهها من الناس . والمركبات الطبية والكيميائية تستعمل لتمتل الثبات البشرية او لمعالجة المرضى به وهي لا تفعل ذلك من نفسها ابدأ وانما تتوقف آثارها تلك على الفسب التي تخطط بها اجزائها - وهذا بدوره امر يقوم به الانسان نفسه . وهكذا هذا من ناحية الجانب التطبيقي للعلم . اما من حيث القوانين العلمية فيمكننا ان نقول كذلك بانها لاتعزى من نفسها التقاليد والعقائد بل الانسان الذي يوجدها ويفسرها هو المسؤول عن ذلك .

فالعلم اذن سلاح ذو حدين ( مثل الماء والنار ) قد يكون سيذا جبارا أو خادما مطيها للجنس البشري . كل ذلك يتوقف بالطبع على كيفية استعماله .  
يمتد كثير من العلماء وفي مقدمتهم جون ديوي بان سوء استعمال العلم في الوقت الحاضر راجع الى ان القوانين الاخلاقية والعقائد الدينية والسياسية ( للجنس البشري ) على اختلاف أنواعها قد نشأت قبل نشوء العلم . أي انها (بمباراة أخرى

من وجهة نظره ، آمود الى تأخر البشرية في مقاييسها الخلقية والاجتماعية  
بالمقاييس التي تقدم المعرفة العلمية . فلا غرو ان رأيناه يعزو جميع المفاسد الاجتماعية  
السائدة الى تلك الفجوة الواسعة والعميقة التي تفصل العلم ( الآخذ بالتقدم  
السريع ) من حيث مادته وأسلوبه عن القوانين الخلقية والمبادئ الاجتماعية  
( التي نشأت قبل نشوء العلم ووجدت على ما كانت عليه ) . وبما ان القوانين  
الخلقية ( غير العلمية ) التي يعتنقها الناس في العادة ويخضعون سلوكهم وفقها  
لمستلزماتها هي المتغلبة ( في زمن من الازمان ) على الجوانب العلمية المنتشرة  
في ذلك الزمن نفسه خضع العلم لها وتتبع عن ذلك سوء استعماله . والصراع  
بين العلم وتقائيد المجتمع صراع قديم وعنيف ، وهو صراع موجود في كل  
زمان ومكان من حيث الاساس وان اختلف من حيث المظهر أو الشكل ومن  
حيث السمة والعمق باختلاف الزمان والمكان . وادا تتبعنا تاريخ نشوء العلم  
وارتقائه ظهر لنا ان البحث العلمي المنظم بدأ اول ما بدأ في أمور أبعد ما  
تسكون عن الانسان من ناحية المكان والزمان والاثر في الحياة حيث بدأ كل  
من كاليبو وكيلر وكوبرنيكس قبل حوالي ثلاثة قرون ابحاثه التجريبية في علم  
الفلك وفي قوانين سقوط الاجسام وفي مركز الارض بالنسبة للشمس والكسوف  
الخ . . . وكان غرضهم من ذلك هو البرهنة التجريبية على صحة ( او خطأ )  
الفكر الذي كان شأماً على عهدهم ( وقد تحدر من فلسفة أرسطو ) حيث  
كانت الارض تعتبر ثابتة ومسطحة الشكل وتقع في مركز الكون . فاستطاع  
هؤلاء العلماء وأنصارهم أن يبرهنوا على فساد تلك الآراء من الناحية التجريبية .  
غير ان آراءهم تلك كانت تتعارض في بعض أوجها مع السائد من العقائد والتقاليد

فما يتصل بمركز الأرض في الكون الخ... الامر الذي انار المجتمع وبخاصة رجال الدين ومن وراءهم الفئة الحاكمة فناصره ( وآراءهم ) العدا . ومن علم الفلك تقدمت الطريقة العلمية ظافرة لتحقيق ظفر آخر مماثل في حقل الفيزياء والكيمياء . وقد أدى ذلك بدوره ( بقدر ما يتعلق الأمر بصلة بالسائد من العقائد والتقاليد ) الى حدوث نزاع شديد بين حملة العلم من جهة وبين المدافعين عن التقاليد ( لاعتقادهم بصحتها أو لأنها تحمي مصالحهم المركزة ) من جهة أخرى . وبعد ان سجلت الطريقة العلمية ظفراً لامعاً في هذين الحقلين أخذت تستعمل لدراسة تركيب الانسان والكائنات الحية الأخرى عن طريقة علم الحياة والتشريح والعلوم الماثلة . فاصطدمت كذلك بالشائع من التقاليد والعقائد . وكان الظفر الأخير في جميع تلك المعارك بجانب الطريقة العلمية بعد أن عرض ذلك حملتها الى شتى صنوف العقاب . وطريقة التجريب والتفكير الموضوعي ( الطريقة العلمية ) متجهة في الوقت الحاضر نحو دراسة الظواهر الاجتماعية والتاريخية المتعلقة بالافراد والجماعات . غير ان هناك صعوبات كثيرة تعترض سبيلها سنجحتها في الفصل القابل .



## الفصل العاشر

### منطق العام في الحوادث التاريخية

يجمل بنا قبل التصدي لدراسة الصلة بين العلم والتاريخ ان نبحت في تعريف كل منهما تعريفاً جامعاً مانعاً (١) على القدر المستطاع . وبما اننا سبق ان بحثنا تعريف العلم في الفصل السابق فالتنا سوف نبحت تعريف التاريخ في هذا الفصل ليتسنى لنا بحث العلاقة بينهما .

تقابل كلمة « تاريخ » في اللغة كلفي Date و History في اللغة

(١) اعتماد كثير من الباحثين البدء بتعريف ما يبحثون فيه . والفرض من ذلك على ما اظن هو ان يتصل الباحث بالقاريء او السامع اتصالاً فكرياً عن طريق تحديد معانى الالفاظ والعبارات التي يشتمل عليها بحثه . وباتصاله هذا يستدير في القاريء او السامع وعياً يهيؤه لادراك المعنى الذي يقصده . اما اذا اغفل الباحث تحديد معانى الالفاظ والعبارات التي يستعملها في بحثه فان هناك احتمالاً لتسرب الغموض او الابهام اليها . غير ان التعريف من الجهة الثانية ليس من الامور اليسيرة . ويلاحظ للمتتبع لفن التعريف انه حقل معرض للالتباس حتى ليخيل للمرء ان الحاجة قد اصبحت ماسة الى ما يصح ان يدعى بتعريف التعريف .

الانكليزية (١) . وبقدر ما يتعلق الامر بمعنى علم التاريخ History يمكننا أن نقول ان بعض الباحثين يستعمل تلك الكلمة لتدل على جميع ما حدث من الوقائع الطبيعية والاجتماعية في هذا الكون الفسيح منذ نشوئه الى قزاة هذه السطور . ويتضمن هذا المعنى لكلمة « تاريخ » ان معرفة الانسان لما وقع من الحوادث ( في جميع الازمان والامكنة ) لا تستطيع أن تستوعب الحوادث التاريخية كلها . اي ان المعرفة التاريخية عند الانسان هي أقل مما حدث (٢) فعلا

(١) جاء في مختار الصحاح : الجزء الاول ص ١٥ ما يلي . « ارخت الكتاب اذا جمعت له تاريخاً . . . . . واتفقت الصحابة على ابتداء التاريخ من هجرة النبي الى المدينة » ويقول صاحب محيط المحيط الجزء الاول ص ٣ : « ارخ الكتاب يارخه ارخاً وقته . . . . . والتاريخ تعريف الوقت . . . . . وعلم التاريخ علم يتضمن ذكر الوقائع ولاسيما ما كان منها متعلقاً بالقبائل والاقاليم مع تعيين اوقانها وبيان اسبابها ومسبباتها » وبما ان دراستنا تنصب على التاريخ بمعنى History او علم التاريخ كما يسميه صاحب محيط المحيط فسوف نستعرض اهم تعاريفه التي عثرنا عليها .

(٢) وجرياً مع هذا المنطق يصبح لكل شيء تاريخ . فللكون الذي نعيش فيه تاريخ ( بدأ كما يحدثنا العالم الفلكي البريطاني السير سبنسر جونز قبل زهاء خمسة آلاف مليون سنة ) . وللارض تاريخ بدأ قبل حوالي بليونى ( الفى مليون ) سنة ، وللحياة تاريخ بدأ قبل حوالي ألف وسبع مائة مليون سنة ، ولظهور الانسان على وجه البسيطة تاريخ بدأ قبل حوالي مليون سنة وللحضارة البشرية تاريخ بدأ قبل حوالي ستة آلاف سنة . . . . . ولنهر دجلة تاريخ الخ . والتاريخ بشكله العام ذو مظاهر ثلاثة مقاربة تختلف من حيث امتدادها في الزمان والمكان هي : تاريخ الكون =

وتستعمل كلمة « تاريخ » أحياناً لتعبر عن الآثار التي يتركها وقوع الحوادث في صفحة الطبيعة وفي ثنايا المجتمع. ولا يشترط حتماً ان يكون الانسان ملماً بجميع تلك الآثار. اي ان التاريخ بهذا المعنى أوسع مدى مما استطاع الانسان ان يعرفه فملاً ، ومما في استطاعته أن يعرفه في اية فترة من فترات حياته. غير ان معرفة الانسان لجميع الوقائع التاريخية مع هذا ليست مستحيلة. أما الآثار التي اندرست أو غتت معالمها فلا تدخل ضمن موضوع التاريخ حسب هذا التعريف (١).

وفي هذه المنطقة بالذات يتميز هذا التعريف للتاريخ عن التعريف الذي سلفت الاشارة اليه. وتستعمل كلمة « تاريخ » أحياناً لتدل على ما استطاع الانسان أن يعرفه من الحوادث الماضية (طبيعية واجتماعية). ولا يشترط في هذه

= من الناحية المادية وهو اكثرها امتداداً حيث يتكون من عوالم غير متناهية ولم يدرك الانسان الامنه مقداراً ضئيلاً (ولكنه هائل بمقاييسنا) يقدر طول قطره بحوالي الف مليون سنة ضوئية (السنة الضوئية) هي ما يقطعه الضوء من المسافة في سنة مع العلم انه يسير بسرعه قدرها ١٨٦.٠٠٠ ميل الثانية اما عمر الارض فقد توصل العلماء الى معرفته عن طريق الدراسة الاشعاعية لاعمار الصخور المختلفة وحساب تحول بعض العناصر الى بعض آخر.

(١) انها كانت تاريخاً بالطبع قبل ان تتلاشى تماماً عن الوجود حسب مقاييسنا فوق اقدم الجيوش العربية في شمالي افريقية مثلاً لا يقع ضمن التاريخ لانذاره تماماً على حين انه كانت تاريخاً في الوقت الذي حدث فيه او بعد ذلك بزمن قصير. والواصر الشفوية التي اصدرها هرون الرشيد لقواده ووزرائه لاتقع ضمن التاريخ في الوقت الحاضر لاختفائها من الوجود في حين انها كانت تاريخاً في الوقت الذي اصدرها فيه على الاقل ، وهكذا .



المعرفة أن تكون مدونة تدويناً خطياً بل هي تشتمل (بالإضافة إلى ما هو مدون على الورق والجلد والجدران من آثار بشتى اللغات ومختلف الرموز) على جميع البقايا التاريخية للمعابد والكهوف والجسور والأبنية على اختلاف أنواعها . وهناك استعمال آخر للتاريخ يقرب من المعنى الذي سلمت الإشارة إليه وضعه على ما يظن المؤرخ اليوناني المعروف هيردوتس وفخو امان التاريخ يشتمل على التحقيق في الحوادث الماضية . ولا يتم هذا التحقيق من وجهة نظره الا اذا قام به المؤرخ نفسه وسافر إلى الاماكن التي يريد دراستها من الناحية التاريخية . وبمرور الزمن أخذت كلمة « تاريخ » تستعمل للدلالة على جميع الحوادث التي وقعت نتيجة لأفعال الانسان في مختلف صورها وتعدد مجالاتها . وهذا التعريف للتاريخ هو المتفق عليه في الوقت الحاضر واننا في هذه الدراسة سوف نجعله أساساً للبحث .

يدون المؤرخون حوادث التاريخ بعد وقوعها بزمن طويل أو قصير . وكما بعد الزمن أو المسافة بين وقوع الحادثة التاريخية وبين تدوينها أصبح من الصعب توخي الدقة في تسجيلها . وإذا سلمنا بذلك أصبح بمقدورنا القول بان المؤرخ الذي يستطيع أن يدون الحوادث (القريبة منه في الزمان والمكان) التي يشهد وقوعها بشكل مباشر من المحتمل أن يكون أكثر دقة من المؤرخ الذي يدون حوادث بعيدة عنه في الزمان والمكان . غير ان المؤرخ القريب من الحادثة من الناحية الثانية كثيراً ما يفتقر تسجيله إلى الدقة وبخاصة ( ١ ) في القضايا التاريخية التي تتعلق بعقائده الدينية أو المذهبية أو السياسية ( ٢ ) في الحوادث التاريخية التي لا يستطيع أن يستوعب جميع تفاصيلها وملابساتها ( ٣ ) في الامور التي تتصل بالسلطة الحاكمة

في عهده . وكما كان الضغط الفكري في عهد المؤرخ شديداً صعب كثيراً عليه  
ان يقوم بواجبه على وجه الامم (١) . هذا ما يتصل بتعريف التاريخ وتحديد  
مجاله . اما ما يتعلق بصلة التاريخ بالعلم فيمكننا أن نبينها على الشكل الآتي :  
يلوح لي أن البحث التاريخي يشتمل على ناحيتين - وصف ما وقع من  
الحوادث واصدار أحكام مختلفة عليه . ويظهر الاختلاف بين المؤرخين في الناحية  
الثانية أكثر منه في الناحية الأولى . ويمكننا أن نجعل أسباب الاختلاف في  
المجلات الثلاثة التالية - طبيعة العصر الذي يعيشه المؤرخ فيه وطبيعة المجتمع  
الذي ينتمي اليه وعوامل شخصية مزاجية تتصل بكل مؤرخ .

وفي ضوء ما ذكرنا يمكننا أن نقول ان الاختلاف في الرأي قد يحصل بين  
مؤرخ ومؤرخ ويعيشان في الزمان نفسه والمكان ذاته أو في المكان نفسه ولكن  
في زمنين مختلفين أو في زمن واحد ومكانين مختلفين أو في مكانين مختلفين وزمانين  
مختلفين . ويصدق الشيء نفسه على الاتفاق في الرأي . ويؤد سبب هذا الاتفاق  
وذلك الاختلاف الى نوع المسلمات الفكرية والعاطفية عند كل منهما . واعني  
بذلك ما ينطوي عليه الانسان من معتقدات لا تقبل عنده الشك أو الجدل كبداً

(١) ولعل افتقار المؤرخين الى الدقة هو العامل الرئيس الذي دفع نابليون

بونابارت الى ان يصف التاريخ بأنه « خرافة متفق عليها » History is a fable

• agreed upon

قال الرصافي :

فما كتب التاريخ في كل ما روت

لقرائها الا حسد سديت مافق

نظرتنا لامر الحاضر ين فرأينا

فكيف بامر الغابر ين نصدق

التوحيد عند المسلمين مثلاً وكبدأ التثليث عند المسيحيين وما شابه هذا وذلك بما نستطيع أن نسمي منه الكثير . فمتفق أحكامها إذا استندت الى مسلمات فكرية وعاطفية واحدة وتختلف في حالة اختلاف المسلمات التي تستند اليها . فلا غرابة إن رأينا مؤرخاً معيناً يتفق مع مؤرخ آخر في بعض القضايا ويختلف عنه في بعض آخر وإن عاصره في الزمان والمكان أو في أحدهما أو اختلف عنه في كليهما . ومن الطريف أن نذكر هنا أن كل مؤرخ يعتبر أن المسلمات التي يستند اليها في أحكامه هي الأساس لاختبار وجهة الفضايا التاريخية التي يبحثها . فما كان متفقاً معها كان صحيحاً ومعقولاً بنظره . وإلا فلا . وللمبحث في عوامل الاختلاف والاتفاق بين المؤرخين مجال بنا كما يقول ديوي أن نتصدي لببحث تلك المسلمات عند كل منهم . والى نوفي البحث حقه من الشرح يجدر بنا أن نبدأ بحثنا في منابع تلك المسلمات . والنابع هي (١) طبيعة العصر الذي يعيش المؤرخ فيه :

شكل عصر مزاج علمي واجتماعي أو مسلمات عامة يشترك في التنايم بصحتها معظم الباحثين الاجتماعيين إن لم يكونوا كلهم . واغني بزاج العصر أو روحه أو طابعه تلك المبادئ السامة الملمية والاجتماعية التي يتميز بها عصر عن عصر آخر غير أن ذلك لا يذغني أن يفسر بان بعض المسلمات لا تنظم أكثر من عصر واحد ذلك لان التريخ عملية مستمرة ذات حلقات متسلسلة ومترابطة يؤدي بعضها الى بعض آخر ويؤثر فيه . وبما ان المؤرخ يدخل ضمن الباحثين الاجتماعيين في العصر الذي يعيش فيه فانه يخضع لروح ذلك العصر أو طابعه أو مزاجه . فلمؤرخ المسلم المعاصر مثلاً يختلف هو والمؤرخ المسلم الذي عاش في العهد العباسي عندما يتعرض للمبحث في

طبيعة الاتاليم وفي جغرافية الصين وفي عوامل المد والجزر والحسوف والكسوف  
وفي كثير من المسلمات العلمية الحديثة . هذا من ناحية روح العصر في الجوانب  
العلمية . أما اختلافا في الجوانب الاجتماعية فيبدو في نظرة كل منهما الى اعمال  
الملوك والفاة ومنزلة الجاهل في تغير مجرى التاريخ ، ذلك لان طبيعة العصر  
الحاضر تتصف بما ندعوه بمقايدنا الحاضرة انتشار الافكار الحرة والاهتمام  
بحياة الشعوب والنظر الى الملوك والفاة نظرة دنيوية زمنية . على حين ان العكس  
ربما كان هو الشائع في العالم الاسلامي أثناء الحكم العباسي . غير ان هذين  
المؤرخين مع هذا يشتركان في الايمان ببعض المسلمات الدينية والمذهبية التي  
انتظمت كلا العصرين . فلا غرو ان تقاربت أحكامها في القضايا التاريخية ذات  
الصلة بتلك المسلمات . وفي هذه النقطة نفسها تكمن عوامل الاختلاف بين  
المؤرخ المسلم العباسي والمؤرخ المسيحي الذي عاصره . ويصدق الشيء نفسه على  
المؤرخ لمسلم الحديث والمؤرخ المسيحي الحديث . وفي التاريخ أمثلة كثيرة  
تدل على اثر طبيعة عصر المؤرخ في أحكامه التاريخية . من ذلك مثلاً ان  
المؤرخ البريطاني المعاصر لا يؤيد افعال الملكة ماري تيودور المتملقة بما نسميه  
في الوقت الحاضر بالضغط الديني على رعاياها من المسيحيين البريطانيين غير  
المتدينين الى المذهب الرسمي للدولة . على حين ان المؤرخين الانكليزيين الذين  
عاصروها اعتبروا موقفها سليماً . وقد حصل العكس في موقف المؤرخين  
الفرنسيين من سياسة مدام دي مدشي المايرة لسياسة الملكة ماري تيودور .  
وعلى هذا الاساس يمكننا ان نقول ان ما يميزه مؤرخ عاش في عصر من  
العصور اضطهاداً قد لا يكون كمذالك بنظر مؤرخ عاش في عصر آخر .

(٢) طبيعة المجتمع الذي ينتمي المؤرخ اليه .

اسكل مجتمع عقائده في الدين والسياسة والعلم وما كل ذلك وقد تنظم تلك العقائد اكثر من مجتمع واحد وقد تسرى الى اكثر من عصر واحد . وكثيراً ما تنتشر عقائد متباينة في المجتمع الواحد . يخضع المؤرخ كما يخضع غيره لتلك العقائد فتتأثر احكامه التاريخية بها ، فاذا تصدى مؤرخان يختلفان في عقائدهما لبحث قضية تاريخية تتصل بتلك العقائد فانها يختلفان في احكامها الصادرة عليها . يحدث هذا اذا كان المؤرخان يعيشان في عصر واحد ومكان واحد او في عصر واحد ومكانين مختلفين او في مكان واحد وعصرين مختلفين او في عصرين مختلفين ومكانين مختلفين ، ويكفي للدلالة على ذلك ان نوازن بين الاحكام التي يصدرها المؤرخون المسلمون في الماضي والحاضر على الحروب الصليبية من حيث اسبابها ونتائجها وبين الاحكام التي يصدرها المؤرخون المسيحيون الفدائي والمحدثون ، او ان نوازن بين الاحكام التي يصدرها المؤرخون الالمان المعاصرون على المسؤولين عن اثاره الحرب المالمية الثانية مثل اوبين الاحكام التي يصدرها الروس والانكليز ويتحلى ذلك بوضوح كذلك اذا اوزنا بين الاحكام التي يصدرها المؤرخ البريطاني المامصر على تصرفات حكومته في الدول التابعة لها وبين ما يصدره مؤرخو تلك الدول من احكام ، او بين الاحكام التي يصدرها المؤرخ الروسي في الوقت الحاضر على سلوك قياصرة روسيا وسياستهم وبين الاحكام التي اصدرها المؤرخون الروس الفدائي . واذا نظرنا الامر من زاوية اخرى امكنتنا ان نقول ان السلطة القائمة آنراً في نوع الاحكام التاريخية الصادرة بحقها . وبحق خصومها ، وقديماً قديماً :

والناس من يلق خيراً فقلوبهم له . ما يشتهي . ولا من الخفق الهبل .

### (٣) العوامل المزاجية والشخصية :

لقد مر بنا القول بان المؤرخ يستمد عناصر تفكيره من مصادر ثلاثة - هي العصر الذي يعيش فيه والمجتمع الذي ينتمى اليه والعوامل الخاصة به ، هذه المصادر يتعرض كل شخص لتأثيرها مع اختلاف في درجة تأثير بعضها بالنسبة لبعض آخر . ويتجلى اثرها في علاقات الافراد اليومية وفي سلوكهم وانماط تفكيرهم بقدر ما يظهر ذلك في احكامهم التاريخية وربما تعديها فانظم نظرياتهم العلمية ، ويمكننا ان نقول ان اختلاف الاشخاص في احكامهم المتصلة بجميع مجالات الحياة راجع الى اختلاف مسلماتهم الماطفية والفكرية . واذا صح ما ذهبنا اليه جاز لنا ان نقول ان ما يطلق عليه زيد صفة الخيانة السياسية او الاحاد مثلا حسب مسلماته قد لا يكون كذلك بنظر عمرو الذي تختلف مسلماته عن مسلمات زيد ، وقس على ذلك الاحكام المختلفة في مجالات الحياة جميعها ، يتجلى ذلك بين الافراد في المجتمع الواحد وبين الفرد نفسه في فترات مختلفة من تاريخه اذا تغيرت مسلماته وبين المجتمعات المعاصرة وغير المعاصرة وبين المجتمع نفسه في فترات مختلفة من التاريخ . فما اعتبره الاسلام كفرا لم يكن كذلك بنظر العرب في جاهليتهم ، بل العكس كان هو السائد وما سماه اليونان ايمانا كان زندقة بنظر المسيحيين ، وما يطلق عليه المسلمون في الهند الاحاداً ليس هو كذلك بنظر الهندوس ، وما ينمته بعض العراقيين في الوقت الحاضر بالعنصر المحرب او الهدام ليس هو كذلك بنظر عراقيين آخرين او بنظر الروس ، والظعن بالذات الملكية في مصر اثنا حكم فاروق كان جرماً وخيانة يستحق فاعله اقصى انواع العقاب في حين انه في الوقت الحاضر يعتبر عملاً وطنياً وربما كان محمداً للتقدير والسكافة .

يمكننا ان نقول في ضوء ما ذكرنا ان المؤرخ يخضع للعوامل التي تتصل بعصره ومجتمعه وشخصه . والعوامل المتصلة بشخصه دون شك آتية من العصر والمجتمع . ونعني بالعوامل التي تنصل بشخص المؤرخ نوع الثقافة التي حصل عليها ودرجاتها وجميع العوامل النفسية التي تميزه عن غيره . فالمؤرخ ذو المزاج الهادى . المتند تختلف احكامه عن احكام المؤرخ المندفع المتحمس . يحدث ذلك احياناً حتى في الحالات التي تتناول فيها العوامل الآتية من العصر والمجتمع .

يتضح مما ذكرنا ان التاريخ من ناحية الاحكام التي يصدرها المؤرخون على حوادثه كما يقول ديوي مجموعة من وجهات النظر المختلفة لكل منها ظروفها الخاصة والمسلمات التي تستند اليها . وما دام المؤرخون يختلفون في نوع مسلماتهم فاختلاف احكامهم التاريخية اذن امر واقع ولا سبيل الى التخلص منه تخلصاً تاماً . ان جل ما نستطيع ان نفعله في هذا الصدد كما سنرى هو محاولة تخفيف حدته من جهة وتغيير نوعه من جهة اخرى . وجرباً مع هذا المنطق يمكننا ان نقول ان ما يدعوه مؤرخ معين بالتحزب لا يكون كذلك الا في الحالات التاريخية المبينة على مسلمات تختلف هي ومسلماته . ولا يكون ذلك التحزب « تحزباً » بنظر مؤرخ يستند الى مسلمات لا تتفق هي والمسلمات التي يستند اليها الحكم التاريخي الآنف الذكر . فكأن التحزب نعم ياتلقه المؤرخون على الاحكام التاريخية التي تختلف هي ومسلماتهم . واذا كان الامر كذلك ألا يحق لنا ان نقول ان جميع المؤرخين متحزبون بالنسبة لبعضهم وانهم يختلفون في مدى ذلك التحزب وفي نوعه ؟ .

واذا علمنا ان التحزب الشائع في التاريخ كثيراً ما اصبح عاملاً من عوامل بث التفرقة والقطيعة بين ابناء الامة الواحدة وبين الامم كذلك وانه في الاعمال

الاغلب لا يتفق هو ومزاج العلم في البحث والمناقشة امكنا ان نقول ان علاجه امر تحتمه طبيعة البحث العلمي وتقضيه مصلحة المجتمع ومصلحة الجنس البشري شريطة ان نجعل منطق العلم ومصلحة المجتمع ومصلحة الجنس البشري مسلماتنا في البحث وان نعتبرها كذلك تسير جنباً الى جنب بقدر ما يتعلق الامر بظاهرة التحزب في التاريخ على اقل تقدير . وبقدر ما يتعلق الامر بفلسفة جون ديوي يمكننا ان نقول ان منطق العلم ومصلحة المجتمع ومصلحة الجنس البشري من الممكن ان تسير في الوقت الحاضر جنباً الى جنب لا في موضوع التحزب في التاريخ حسب بل في مجالات اخرى كذلك . ويقصد ديوي بمنطق العلم كما سلف ان ذكرنا الأسلوب الذي يستعمله الباحثون في موضوع الكيمياء او الفيزياء او الرياضيات في التوصل الى حل مشكلاتهم العملية . ويقصد بمصلحة المجتمع ان يعيش ابناؤه متعاونين يتقاسمون خيراته ويتمتعون بالعيش في مظاهر الحياة المختلفة . ومصلحة الانسانية هي ان يعيش ابناؤها على النمط الآف الذكر نفسه . ومن الطريف ان نذكر هنا بان ديوي يقول انه من الممكن ان تعتبر دعوتي هذه تحزباً . غير انه تحزب من نوع جديد . تحزب للقضاء على التحزب الشائع .

وقبل ان نتصدى للبحث في علاج التحزب الشائع لتخفيف حدته وتغيير نوعه في ضوء المسلمات التي ذكرناها يجدر بنا ان نشير الى المظاهر التي يتقمصها اذ ان بعض مظاهر التحزب اكثر « تحزباً » من بعض آخر واول وضوحاً كذلك .

يظهر التحزب في التاريخ احياناً على شكل تأبير لغوية توحى نوعاً خاصاً من المعاني تتفق هي ووجهة نظر المؤرخ . فتمد يطلق مؤرخ على حركة عسكرية اسم عصيان او تمرد على حين ان مؤرخاً آخر ينعتمها ببارق النبوت والطفها كأن



يصفها بالتحريير او التطهير وما شاكلها . وباستطاعة السامع لغرض الاستدلال على وجهة ما ذهبنا اليه ان يوازن بين آراء المؤرخين الكاثوليك والبروتستنت مثلاً في الحسب على حركة لوثر وفي تسميتها كذلك . فالمؤرخون البروتستنت يدونها « بالاصلاح الديني » على حين ان المؤرخين الكاثوليك يسمونها « الخروج على مبادئ الدين » . ومن الطريف ان اذ كررنا اني عثرت على كتاب لتدريس التاريخ في بعض المدارس اللبنانية قبل بضع سنوات يطلق مؤلفه على ما اصطلاح جبهة المؤرخين المسلمين على تسميته « بهجرة الرسول » اسم « هروب من يسمونه بالرسول » . والفرق بين هجرة وهروب من جهة وبين الرسول ومن يسمونه بالرسول من جهة ثانية لا يحتاج الى تعليق .

ويظهر التحزب في التاريخ احياناً اخرى بدشويه الحقائق او فقدان الدقة والزاهة في تسجيلها . ويتجلى كذلك بانتقاء جوانب الاحداث التاريخية التي تتفق هي ووجهة نظر المؤرخ او باخفاء الجوانب الاخرى او بصوغها بهيئة تبين تماهتها او سخافتها . ويظهر التحزب احياناً اخرى في التعليقات والاحكام التي يصدرها المؤرخ في اعقاب الحوادث التي يدونها او في ثناياها . وعلى هذا الاساس يمكننا نقول ان التحزب في التاريخ يكون مباشراً احياناً وغير مباشر احياناً اخرى . ويتضح التحزب المباشر في حقل الاحكام التاريخية الصريحة . على حين ان انتقاء الكلمات الخاصة وذكر الحقائق المشوهة او اغفال تسجيل بعض جوانب الحادثة وما شاكلها تدخل ضمن التحزب غير المباشر . ومما تجدر الاشارة اليه في هذه المناسبة ان علاج التحزب من اصعب الامور وانه اصعب في التحزب غير المباشر منه في التحزب المباشر .

والتفكير في علاج التحزب الشائع في التاريخ يدفعنا الى البحث في امكانية جعل التاريخ علماً كسائر العلوم الطبيعية<sup>(١)</sup> حيث يستند الباحثون الى مسلمات

(١) ومما تجدر الاشارة اليه في هذا الصدد ان امكانية اعتبار الموضوعات الاجتماعية بشكل عام والتاريخ بشكل خاص ضمن حضيرة العلوم ظهرت للمرة الاولى بوضوح في القرن الماضي الذي تميز بالنسبة لما سبقه من العصور بطغيان البحوث النظرية والتجريبية في الظواهر الطبيعية . وكان في مقدمة الداعين الى ذلك كل من رانكي ( ١٧٩٥ - ١٨٨٦ ) وبكل ( ١٨٢١ - ١٨٦٢ ) وجون ستورت مل ( ١٨٠٦ - ١٨٧٣ ) وهربرت سبنسر ( ١٨٢٠ - ١٩٠٣ ) . فقد ذكر هؤلاء ومن هم على شاكلتهم من الباحثين ( وبخاصة اوگست كومت ( ١٧٠٨ - ١٨٥٧ ) ان الاسلوب العلمي التجريبي يمكن ان يدخل في بحث الظواهر الاجتماعية والتاريخية . وبما ان تقدم البحث العلمي قد بهرهم آنذاك بقدر ماراعهم تأخر البحوث الاجتماعية والتاريخية فقد عزو تلك الهوة السحيقة بين تقدم العلوم الطبيعية وتأخر الموضوعات الاجتماعية والتاريخية الى انتفاء وجود أسلوب البحث العلمي في مجال البحوث الاجتماعية والتاريخية . وزعموا بان قضية تقدم البحوث الاجتماعية والتاريخية ورفعها الى مصاف العلوم تتوقف على ضرورة تطبيق الاسلوب العلمي في مجالاتها المختلفة . ولعل من المناسب ان نذكر في هذا الصدد ان دعوة المفكرين الذين ذكرناهم وان لآلت من ايدها من الباحثين الا ان هناك باحثين كثيرين تصدوا لتفنيدها ودحض أسسها . وفي مقدمة من فعل ذلك المؤرخ الالماني والفيلسوف وليم دلثي ( ١٨٣٣ - ١٩١١ ) لقد قسم دلثي المعرفة الانسانية الى قسمين : معرفة طبيعية ومعرفة انسانية او اجتماعية . تتضمن الاولى منهما البحث في علاقة الانسان بقوى الطبيعة من جهة وعلاقة قوى الطبيعة ببعضها

واحدة كل في موضوع اختصاصه ولا يختلفون الا اذا تسرب الشك الى بعضهم  
في صحة تلك المسلمات . غير ان الباحث من الجهة الثانية يستطيع ان يقول ان  
الاختلاف بين التاريخ والعلوم الطبيعية كبير يمكن تلخيصه بشيء من الاجاز

من جهة اخرى . وتدخّل الفيزياء والكيمياء وعلم النلك والرياضيات ضمن القسم  
الاول . على حين ان المجموعة الثانية تشمل التاريخ والفلسفة والموضوعات الاجتماعية  
عامة ومجالها بنظره هو دراسة علاقة الانسان بالانسان داخل حدود الامة الواحدة  
وبين الامم ) . وفي رأى دلتى ان موضوعات المجموعة الاولى تختلف عن موضوعات  
المجموعة الثانية من حيث موضوعها او مادتها ومن حيث أسلوب البحث فيها . ولا  
يمكن حسب رأيه استعارة الأسلوب الذي يسير بموجبه البحث في موضوعات المجموعة  
الاولى لغرض تطبيقه في بحث موضوعات المجموعة الثانية ( كما خيل لرايكي وسبسر  
ومن لف لفهما ) . هذا من جهه ومن جهة ثانية فان موضوعات المجموعة الثانية  
بنظره هي التي يمكن ان تدعي علوماً . أما موضوعات المجموعة الاولى فلا يجوز ان  
نصفها بالعلم اطلاقاً ( وهو أمر كما يتضح مخالف لآراء الباحثين الاخرين الذين أشرنا  
اليهم ) . والحجة التي استند اليها دلتى لدعم رأيه هذا هو ان الباحث الاجتماعي  
يستطيع الولوج في جوهر المادة الاجتماعية على حين ان الباحث في الظواهر الطبيعية  
لا يستطيع الا وصفها من الخارج . فالأورخ مثلا يستطيع ان يتقص شخصية  
الملك الذي يتكلم لنا عن تاريخ حياته ( ويضع نفسه بموضعه على القدر المستطاع  
ويدعو دلتى هذه الطاهرة بـ Sympathetic insight على حين ان الكيميائي  
مثلا لا يستطيع ان يتقص شخصية الاوكسجين عند بحثه فيه . ويجعل بنا ان  
نشير هنا الى ان دلتى في استعادة الظواهر الطبيعية من حضيرة العلوم ( على الشكل  
الذي يفهمه ) لا يريد كما يخبّرنا هو نفسه ان يقلل من أهميتها أو ان يجعلها

غير المحل في ان الباحث في العلوم الطبيعية يتدبى لبحث موضوعات هي اقل صلة بمسلماته منها عند المؤرخ . اى ان الباحث الطبيعي اقل تحزباً من المؤرخ . والمؤرخ بدوره يختلف مدى تحزبه باختلاف الموضوع الذي بين يديه . وكما كان موضوع البحث شديد الصلة بمسلمات المؤرخ اصبح من المتعذر عليه ان ينوخى الدقة العامة في بحثه . ويتجلى الاختلاف كذلك بين العلوم الطبيعية وبخاصة المختبرية منها وبين التاريخ في ان الظواهر الطبيعية اقل تعقيداً وتشابكاً من الحوادث التاريخية . فينتج عن ذلك ان باستطاعة الباحث في الظواهر الطبيعية ان يسيطر عليها سيطرة مخبرية وان يجري تغييرات كثيرة في علاقاتها وسلوكها لمعرفة اثر بعضها في بعض . على حين ان العكس هو اواقع في التاريخ . يضاف الى ذلك ان المؤرخ ينتقى من الحوادث التاريخية الجوانب المتعلفة بموضوعه . وعملية الانتقاء هذه تتضمن اجمال الجوانب غير المتصلة بالموضوع من وجهة نظره . غير ان الجوانب المنتقاة والمهملة لا تخلو من عوامل عاطفية ومزاجية تختلف باختلاف المؤرخين . على حين ان العلوم الطبيعية في منجاة من ذلك . وهناك فروق اخرى بين الظواهر الطبيعية وبخاصة في علم الكيمياء وبين الحوادث التاريخية اهمها بنظرنا ان الكيمياءوي عند بحثه في سلوك الاوكسجين مثلاً لا يبحث مطلقاً

---

= ثانوية الاهمية بالنسبة للموضوعات الاجتماعية . ان كل ما يريد ان يفعله دلثى في هذا الصدد هو البرهنة على ان الموضوعات الاجتماعية تختلف ( في أسلوبها ومادتها ) عن البحوث الطبيعية . وانه لا يمكن اطلاقاً استعمال الاسلوب العلمي ( على الشكل الذي يطبق فيه في مجال دراسته الظواهر الطبيعية ) لفرض تطبيقه في دراسة الموضوعات الاجتماعية .

في تاريخ الاوكسجين وعلاقاته السابقة ولا يفتقد موقفه غير المتماون مع بعض العناصر كما لا يجهد تحالفه مع عناصر اخرى . على حين ان العكس هو المتبع في المباحث التاريخية .

يمكننا أن نقول في ضوء ما ذكرنا ان التاريخ ليس بعلم اذا كان العلم يتضمن السيطرة المحتمية على الحوادث . ولكن الا يجوز ان نعتبر التاريخ علماً بالمعنى الذي يعتبر فيه الجيولوجي علماً ؟ الا يحاول العالم الجيولوجي ان يختبر الخلفات الارضية لفرض الاستدلال منها على اعمارها والتغيرات التي اعترتها ؟ الا يفعل المؤرخ شيئاً مشابهاً لذلك ؟ ولكن الفرق مع هذا بينهما كبير وغواه ان العالم الجيولوجي في الوقت الحاضر يسير في بحثه وفق قوانين وقواعد عامة يتفق معه على التسليم بصحتها زملائه ههنا من جهة ومن جهة ثانية فإنه يبحث في امور قليلة الصلة بمسلماته . على حين ان العكس هو المتوافر في البحوث التاريخية . فالتاريخ اذن يشبه الجيولوجي في بعض النواحي ويختلف عنه في بعض آخر ، وهو يشبه في بعض النواحي كلا من علمي الطب والهندسة ويختلف عنه في نواح اخرى وينحصر جوهر الاختلاف في جميع الحالات في موضوع البحث نفسه وفي اسلوبه كذلك ، على حين ان وجه الشبه ينحصر في ان اوائل الباحثين جميعا يستدلون على مآرعة من الحوادث بوساطة ما هو موجود امامهم من آثارها ارباباها .

ان علمية التاريخ من ومن جهة نظرجون ديوي تتصل باسلوب البحث اكثر من اتصالها بموضوعه ، غير ان المؤرخ مع هذا لا يستطيع ان ينتفع الا ببعض خصائص الاسلوب العالمي نظرا لطبيعة الموضوع الذي يبحث فيه ، وتتمايز تلك الخصائص في الامور التالية .

(١) توخى الدقة في التعابير وانتقاء الكلمات المحايدة وغير المشبعة بالجواب  
المطابقة على النمذ المستطاع .

(٢) التزام جانب النزاهة في تسجيل الحوادث بامعان وبمخاطبة ما كان منها غير  
متفق مع مسلمات المؤرخ ، غير ان هذه النقطة من اصعب الامور ذلك لان  
المؤرخ كثيراً ما يرى بعض الحقائق التاريخية بعواطفه على الرغم من سلامة  
بصره وتفكيره .

(٣) اخذ اكر كية ممكنة من وجهات النظر في كل قضية تاريخية  
ومناقشتها مع المسلمات التي تستند اليها شريطة ان يبدأ الباحث بفحص مسلماته  
نفسها ، واذا تذكرنا ان الاستناد الى المسلمات امر لافهم منه وان الناس  
يختلفون في نوع مسلماتهم امكنا ان ندعو الى جعل المسلمات الاجتماعية والعلمية المنبثقة  
عن روح العصر الحاضر (لانا نعيش فيه) اساساً للبحث والمناقشة .

(٤) التريث في اصدار الاحكام والابتعاد عما كان جارفاً منها لا يستند الى  
الحقائق كافية تدعمه ثم صوغ تلك الاحكام بشكل يجعلها توحى انها تحتمل  
الخطأ والصواب ذلك لان فرض الانسان احتمال تسرب الخطأ لآرائه يتضمن امكانية  
عدم تسرب الخطأ للآراء المخالفة لرأيه ، يضاف الى ذلك ان مزاج العلم كما سلف  
ان ذكرنا لا يتفق هو والظن في الآراء المختلفة الا اذا ثبت خطؤها من الناحية  
العلمية ، هذا الى ان العلم يشجع تعدد الآراء واختلافها لانها اساس حياته وتقدمه  
شريطة ان يتم الوصول اليها بوساطة الاسلوب العلمي نفسه وشريطة ان يقنع  
الانسان عنها اذا ثبت خطؤها من الناحية العلمية . ومن المشاهد ان البحث العلمي  
كثيراً ما يسوق صاحبه الى مواجهة حقائق لا تتفق هي ومسلماته غير ان العالم

بدلاً من أن يسد عليها منافذ تفكيره وعواطفه فإنه يفتح لها قلبه وعقله ويستمر على التسليم بها إلى أن يثبت فسادها من الناحية العلمية ، وهكذا دواليك ، ومن الطريف أن نذكر السامع أن آينشتاين قد سُمي نظريته بالنسبية - وهي تسمية تتضمن صعوبة التسليم بوجود أمور مطلقة في حقل العلم تتحدى الزمان والمكان .

ومن الطريف أن نذبه الفارسي هنا إلى أن ديوي يقول بأن من وجهة نظره التي شرحناها قد تصادف هوى في نفوس بعض القراء وقد لا يتفق عليها بعض آخر وظاهرة الاختلاف في الرأي على حد قوله لا يجوز أن تدعو إلى الاستغراب أو الامتناع ذلك لانتنا كما سلف أن ذكرنا نسكتسب مقاييسنا في الحكم على قيم الأشخاص والآراء والحوادث من المصادر الثقافية التي نعرض لتأثيرها . وتصبح تلك المقاييس جزء لا يتجزأ بسهولة عن كيانتنا ولا نستطيع في كثير من الأحيان أن تناقشها من مناقشة علمية . قليلون هم الأشخاص الذين يستطيعون أن يفكروا تفكيراً علمياً حينما يتعرضون للبحث في أعز معتقداتهم وأكثرها سيطرة عليهم . ومرور الزمن على العقيدة يخلع عليها وشاحاً من القدسية يصعب كثيراً تجريدتها عنه . وإذا استطاع المرء بعد ارتقائه سلم التطور الثقافي أن يناقش عقائده والعقائد الأخرى المختلفة عنها مناقشة علمية فإن هناك في قرارة نفسه رواسب عاطفية تأتي إلا أن تتحدى التفكير إلى حد بعيد .

## الفصل الحادي عشر

### القلق السياسي : مقوماته وتأثيره

القلق السياسي ظاهرة اجتماعية يتجلى وجودها بوضوح في المجتمعات التي تفتقر حكوماتها ، من وجهة نظر شعوبها ، الى مقومات الحكم السليم . و « الحكم السليم » كما يرى جون ديوي امر نسبي يختلف باختلاف الزمان والمكان ، و « مقوماته » نسبية كذلك . والقلق السياسي من الناحية التاريخية موجود في جميع المجتمعات مع اختلاف في الدرجة والشكل . غير انه يبلغ الذروة من حيث السعة والعمق ويظهر على شكل تحديات واضطرابات وثورات - كما سنرى - في المجتمعات التي تنقسم ( من حيث علاقاتها السياسية وما ينتج عن ذلك ) الى فئتين : اقلية حاكمة - يعتبرها الشعب ظالمة - واكثرية تعتبر نفسها مظلومة<sup>(١)</sup> . والقلق السياسي وسيلة من وسائل تعبير الشعب عن امتعاضه من تصرفات الحكومة . ولا يتسنى للشعب ان يفعل ذلك الا اذا بلغ من الوعي السياسي والادراك الفكري

(١) ليس الفرق ، في الوقت الحاضر على كل حال ، بين المجتمعات التي فيها فئة حاكمة وبين المجتمعات التي يفتني فيها وجود تلك الفئة ( حيث يكون الحكم للشعب وتصبح الامة مصدرراً للسلطات من الناحيتين النظرية والعملية ) محصوراً في انتفاء وجود اقلية من الناس يمارسون الحكم في النوع الثاني من المجتمعات ووجود تلك الاقلية في النوع الاول ذلك لانه توجد في المجتمعين اقلية من الناس =



درجة معينة . ولكن تلك « الدرجة المعينة » يصعب تحديدها . غير اننا نستدل على وجودها من انتشار القلق السياسي نفسه في مجتمع من المجتمعات . ويتجلى القلق السياسي بوضوح اشكاله في المجتمعات التي تتوفر فيها الخصائص التالية ( او بعضها ) :

(١) هوة ( قد تكون سحيقة ) بين الفئة الحاكمة والشعب ، تظهر في الجانب الفكري والمعاشي والاجتماعي . ويرافق ذلك وينتج عنه ميل من جانب الفئة الحاكمة نحو الترف والاهو والاسراف في بذل المال والوقت والجهد ، وقلة اكرثات بمصالح الشعب فينتشر الفساد في جهاز الحكومة .

(٢) محاولة من جانب الفئة الحاكمة للاستيلاء على وسائل الدعاية والنشر والاتصال الفكري بين السكان ، وميل للضغط على حرية التكتلات السياسية<sup>(١)</sup> والتعليم . ومن مستلزمات الضغط على الافكار كثرة الاعتماد على جهاز الشرطة العاني والسري . ومن ابرز الامثلة التي تتصل بافساد الفئة الحاكمة للتعليم تلك الاجراءات

---

= تصرف شؤون الاكثرية من السكان . وينحصر الفرق بينهما في الواقع في كيفية محبي الاقلية الحاكمة للحكم من جهه والجهة التي تكون مسئولة تجاهها من جهة ثانية . ففي النوع الاول يكون الشعب مسئولا تجاه الاقلية الحاكمة . وتنعكس الالية في النوع الثاني .

(١) لان الاحزاب في الواقع هي الجانب العملي للحكم الذي يستند الى ارادة الشعب من الناحية النظرية . ويتصل بالاحزاب بطبيعة الحال حرية الصحافة ، ويعود السبب الرئيس في مقت الفئة الحاكمة للاحزاب والصحافة الى ان تعددها واختلاف وجهات نظرها وسيلة من وسائل ضعفة نفوذ الفئة الحاكمة وتبعية الشعب الى المساهمة في الحكم . ذلك ان الفئة الحاكمة تسير في تصرفاتها كما سلف =

التي اتخذها مترنيخ الوزير النمساوي المعروف في اواسط القرن الماضي تجاه طلاب الجامعات في النمسا فقد منعهم من الدراسة في الخارج واوصى اعوانه من موظفي الهيئات التعليمية ان لا يسمحوا بتدريس الفلسفة والسياسة للناشئة . كما انه منع المؤلفين النمساويين من طبع مؤلفاتهم السياسية والاجتماعية ( غير المرغوب فيها من جانبه ) في مطابع النمسا .

غير ان الفئة الحاكمة مع هذا ، كما سنرى ، لا تستطيع القضاء على حرية الفكر في المدى البعيد . فقد اكدت الفكر النمساوي عام ١٨٤٨ مترنيخ واعوانه وقوض اركان حكمه الذي اشتغل في احكام بنائه منذ عام ١٨٠٩ . وقد اخترق السم الذي قذفته الفئة الحاكمة جسم سقراط فأماته قبل اكثر من النى عام ولكنه لم يخترق افكاره التي نمت وازدهرت منذ ذلك الحين الى اليوم . ولعل الاقدام على قتل سقراط بسبب افكاره « الهدامة » كان عاملاً من عوامل انتشارها وخلودها .

(٣) اعتبار الفئة الحاكمة ان الغاية الاساس من الحكم هي المحافظة على كيانها ومصالحها . ولتحقيق ذلك تتخذ الفئة الحاكمة جميع الوسائل ( المشروعة وغير المشروعة ) للقضاء على مناوئها ، واذا كان الهدف الرئيس للفئة الحاكمة هو محافظتها على كيانها ومصالحها فتم لا تميل كما يحدثنا مكيا فيلي السكاتب

---

= ان ذكرنا ضمن اطار معين وفلك خاص تدور فيه للمحافظة على مصالحها . وهي بوقوفها ضد الاحزاب تفسح المجال امام نفسها والنصارها للعمل بحرية تامة للتبشير بعبادتها اما على شكل حزب منظم او على شكل افراد مبعثرين تجمعهم فكرة الدفاع عن الوضع القائم .

الايطالي المعروف الى اعتناق مبدأ سياسي او ديني او فلسفي خاص وتعمل بوحي منه في جميع الظروف والاحوال<sup>(١)</sup>.

(٤) اعتبار الفئة الحاكمة الحكم ما كالتالي وجزء لا يتجزأ من كيانها - مثله في هذا الشأن من وجهة نظرها كمثل اعضاء جسمها او اناؤها البيئية - وقد يبلغ ولعها في الحكم حداً ابعد من ذلك فكثيراً ما تسمح باقتطاع بعض اجزاء جسمها اذا اقتضى الطب ذلك كما انها تتساهل في امر تغيير اناؤها البيئية اذا اقتضت الظروف الاجتماعية ذلك . ولكنها لا تسمح لامثال هذا التبديل ان يحدث في مجال الحكم .

وقد يباغ القلق النفسي في الفئة الحاكمة الى ان تقتل الذين يشاركونها اساليبها في الحكم اذا ما تراءى لها ولو على غير حق أنهم اصبحوا اعداءها . فقد اجتاحت

(١) يقول مكيا فيلي في كتابه « الامير » الذي تم تأليفه عام ١٥١٢م فيما يتصل بوصف الحاكم الناجح ، من الناحية العملية كما شاهد ذلك في زمانه بأنه « الشخص الذي يكون خلقه مزيجاً من الانسانية والحيوانية فلا هو بالانسان الصرف ولا الحيوان الصرف في تصرفاته تجاه شعبه وحاشيته . على انه في الجانب الحيواني يكون كالاسد تارة وكالثعلب تارة اخرى . فالاسد لا يستطيع ، اذا اقتضى الامر ذلك ، ان يتغلب على الخصم او ان يتخلص من شراكه عن طريق الخداع والراوغة او المداينة . ولا يستطيع الثعلب ، اذا اقتضى الامر ذلك ، ان يتغلب على الخصم او يتخلص من شراكه بالقوة الجسمية . . . ومن ابرز صفات الحاكم الناجح هو انتفاء وجود اية عقيدة لديه ( اللهم الا عقيدة اللاعقيدة ) لان اعتناق عقيدة معينة والسير وفق مستلزماتها لا يتفق دائماً هو ومصلحة الحاكم » .

روسيا السوفيتية في سنة ١٩٣٧ موجة من الاضطهاد في صفوف الحزب الشيوعي نفسه فأغتيل كثير من اعضاء الهيئة العليا من الحزب بتهمة انهم اصبحوا « اعداء الشعب » وقد امتدت تلك الموجة فشملت السفير السوفيتي في لندن آنذاك حيث اعتبر جاسوساً انكليزياً . والفئة الحاكمة تبرر حكمها غير المستند على ارادة الشعب بمبررات كثيرة تختلف من حيث الشكل باختلاف الزمان والمكان . فطوراً تدعي انها تستمد مقومات حكمها من قوى علوية تتحدى حدود الزمان والمكان وتعتبر نفسها مسؤولة امام تلك القوى لا امام الشعب . وتعتبر جميع اعمالها ( وان بدت شروراً من وجهة نظر الناس ) منزهة عن الخطأ والصواب . وعلى هذا الاساس يصبح كل خروج من جانب الشعب على تلك الافعال او بعضها ( من وجهة نظر الفئة الحاكمة ) خروجاً على الدين واوامر الآلهة يستحق العقاب الذي تقرره الشرائع والقوانين . اما في الوقت الحاضر حيث اعتبرت السيادة للشعب من الناحية النظرية هي الفلسفة السياسية الشائعة والمقبولة في كثير من المجتمعات فان الفئة الحاكمة في الاماكن التي توجد تلك الفئة فيها تحاول ان تبرر حكمها على اساس ان مصلحة الشعب في الوقت الحاضر تستلزم ذلك وانه لم يصل بعد كما تدعي الفئة الحاكمة الى النضج السياسي الذي يؤهله لممارسة حقوقه النظرية . فتأخذ بالشمال عملياً ما تدعي انها تعطيه باليمين من الناحية النظرية . واذا كان الامر كذلك فان الفئة الحاكمة تسعى جهد استطاعتها الى تزوير ارادة الشعب لتحكمه حكماً شعبياً مزيفاً مدعية انها تسعى الى حماية الشعب من نفسه في حين انها تسوغ لنفسها عدم حماية الشعب من تصرفاتها . فالفئة الحاكمة اذن لا تسمح لافراد الشعب ان يفكروا تفكيراً حراً يتصل باوضاعهم الاجتماعية والسياسية ذلك لان حرية التفكير والتعبير في مشكلات المجتمع الراهنة تتضمن حتماً الكشف عن جوانب الفساد في

ملوك الفئة الحاكمة الامر الذي ربما يؤدي الى زعزعة ثقة الناس بها وبالتالي الى  
ضعفها كيانها . ذلك لانها تعلم - وهي على صواب - ان الآثار التي يتركها الفكر  
الحرفي كيانها اكثر عمقاً واوسع مدى من الآثار التي تتركها الزلازل او البراكين  
في الاماكن التي تحدث فيها - فآثار الزلازل او البراكين - من الممكن التغلب  
عليها ولو بعد حين . اما آثار الفكر الحرفي في تحطيم معادل الرجعية ومواضع الفساد  
فلا يمكن التغلب عليها الا باصلاح شامل للاوضاع العامة وهو امر لا تريد الفئة  
الحاكمة ان تفعله لانه يتنافى واساليبها في الحكم . فلا غرو ان حاولت الفئة  
الحاكمة ان توجد شعباً مطواعاً لها يأتمر باوامرها ويخضع لقوانينها ونظمتها في  
السياسة والاخلاق . وهي بمثلها هذا تسعى الى الهبوط بمستوى التفكير العام  
للشعب فتجمله متخلفاً عن غيره من الشعوب في تفكيره ونتاجه من الناحيتين  
العامة والاجتماعية .

(٥) اتباع الفئة الحاكمة لسياسة ( من الناحيتين الداخلية والخارجية )  
لا يساهم الشعب في وضع اسسها او في تنفيذها . وليس في ذلك غرابة ذلك  
لانه ما دام الشعب غير مشارك في مجيء « حكومته » للحكم وايمت له الوسائل  
القانونية من الناحية العملية في تغيير تلك الحكومة فلامعنى لمساهمتها في  
سياستها (١) .

(١) غير ان لفئة الحاكمة في الوقت الحاضر من وسائل الدعاية ما يجعلها  
تظهر للشعب الاشياء على غير حقائقها . فقد وضع العلم الحديث يدها من الآلات  
والاجهزة ما يساعدها على تضليل الشعب والتفجير به . واصبح بإمكانها ان تقوم  
بمهمة واسعة النطاق من الدعاية البنية على ما يمكن ان يسمى : « الكذب للنظم » =

يقول جون ديوي ان نجاح الفئة الحاكمة معناه اندحار الشعب واستمراره على الخضوع لاوامرها وتصرفاتها . غير ان الشعب مع هذا قد يصل به « احتمال الاذى ورؤية جانبه » درجة لا يستطيع معها الاستمرار على تقبل الوضع السياسي السائد . فلا يلبث ان ينفجر . ويتوقف الزمن الذي ينفجر الشعب فيه ونوع

الذي يبدو في ظاهره على غير حقيقته . والسير وفق مبدأ الكذب المنظم في تصريف امور الناس يستلزم حتماً استنزاف جزء كبير من ميزانية الدولة ليوزع على الجواسيس والدجالين والصحافة المرتزقة والجهاز السري للشرطة وتشكيلات المجون وما شاكلها . ولكن هناك دويماً هائلاً من جانب الشعب يسمى الاشياء باسمائها ويضع النقاط على الحروف كما يقولون فلا تخدعه الدعاية او التضليل . وهناك اجراء آخر كثيراً ما تلجأ اليه الحاكمة اليه لالهاء الشعب عن امر التفكير في مشكلته الرئيسية ( مشكلة اسلوب الحكم نفسه ) فتوجه نظاره في فترات خاصة نحو خطر خارجي توهمه بوجوده . وقد لا تتردد الفئة الحاكمة نفسها من نشر الاشاعات والاراجيف وتدبير المؤامرات والمظاهرات ضمناً لصرف انظار الناس عن مشكلتهم الرئيسية ( وجود الفئة الحاكمة نفسها ) من جهة وتكديلاً عنها وبها من جهة اخرى . ولا تتردد الفئة الحاكمة في بعض الاقطار من توجيه انظار الطالبين بالاصلاح عن المشكلة الرئيسية ( مشكلة اسلوب الحكم ذاته ) الى مشكلة ثانوية الاهمية . كأن يقال مثلاً ان « الاقطاع هو المشكلة الرئيسية لمجتمع ما » في حين ان الاقطاع في واقعه جزء من مشكلة اسلوب الحكم لا العكس . وان كبار الاقطاعيين في الوقت الحاضر يستملون نفوذهم من الفئة الحاكمة . لا العكس . يضاف الى ذلك ان الاقطاعيين يكونون في العادة منبعاً للمال يمونون الفئة الحاكمة به بالطرق غير المشروعة . والفئة الحاكمة بعملها هذا تفعل شيئاً في آن واحد =

ذلك الانفجار وتأنجه كما يحدثنا جون ديوي على الظروف الخاصة بكل شعب من جهة وعلى الوضع العام للفئة الحاكمة من جهة أخرى . وما انفجار الشعب في الواقع الاجابته الاخيرة على تصرفات الفئة الحاكمة .

يأخذ انفجار الشعب ضد الفئة الحاكمة شكليين متميزين : ١- الاحتجاجات الفردية المبعثرة ٢- الكفاح الجماعي المنظم الذي قد ينقلب الى عنف و ثورة كما سنرى . ان تلك الاجابات تبدأ في الواقع منذ اللحظة الاولى التي يشعر فيها الشعب او بعضه بسوء نوايا الفئة الحاكمة وتصرفاتها الظالمة تجاهه . وعلى هذا الاساس يمكننا ان نقول ان الفئة الحاكمة تبدأ بفقدان هيبتها ومركزها منذ لحظة تسامها مقاليد الحكم . وكلما اوغلت الفئة الحاكمة في اذلال الشعب وحرمانه من حقوقه باساليب تعسفية واضحة قربت اجلها بنفسها وجعلت الشعب مضطراً على مقاومتها .

يعتبر جون ديوي الاسلوب الأول في تعبير الشعب عن ارادته مقدمة الاسلوب الثاني الذي كثيراً ما ينقلب الى ثورة دامية عنيفة . غير ان هذا لا يعني ان الاسلوبين يتلاحقان بفترة قصيرة من الزمن فقد بدأت الاحتجاجات الفردية المبعثرة في فرنسا منذ اوائل القرن الثامن عشر وربما قبل ذلك وانتقلت الى ما يشبه الاعمال الجماعية المناوئة للحكومة في اواسط ذلك القرن ثم عبرت عن نفسها بشكل

---

= لدعم مصالحها : فهي تصرف للظالمين بالاصلاح عن اصل المشكلة ( وهي وجود الفئة الحاكمة ) وتجعلهم يطلبون منها ( التي هي نفسها تحتاج الى اصلاح ) ان تقوم بالاصلاح المنشود . هذا من جهة ومن جهة ثانية فان الفئة الحاكمة بدعوتها تلك تجعل الاتطاعين في حالة قلق نفسي مستمر فتوحي لهم بالارتقاء باحضانها لان ذلك يعصمهم ويصمها من التعرض للانهدام .

نوري عنيف في عام ١٧٨٩ وبدأت الاحتجاجات الفردية المبعثرة في روسيا منذ  
اوائل القرن الماضي واتخذت شكل اعمال جماعية منظمة في اواخره . ولم تنقلب  
الى ثورة الا في عام ١٩١٧ م .

تأخذ الاحتجاجات الفردية اشكالا مختلفة حسب الزمان والمكان فطوراً تظهر  
على شكل انتقاد يوجهه بعض الناس في مجالسهم الخاصة للفئة الحاكمة . وتارة  
تأخذ شكل تأنيب يوجه بشكل مباشر الى الفئة الحاكمة في بعض المناسبات . وتارة  
تأخذ شكل تعريض رمزي يتعلق بالاوضاع السائدة يوضع على هيئة قصص  
ومواعظ على السنة الحيوانات والطيور وطوراً يأخذ شكل رسائل غفل من التوقيع  
تكتب ويتداولها الناس . وتكون تلك الرسائل مستقلة بذاتها احياناً ومنشورة  
في الصحف المحمية في حالة وجودها احياناً اخرى . وقد تذييل باسما مستعارة .  
ان تلك الاجراءات الشعبية وان كانت فردية ومبعثرة الا انها لا تحمل آراء  
اصحابها فقط بل تعبر في واقعها عن آراء الكثيرين من ابناء الشعب الذين لم  
يتسن لهم ان يعبروا عن آرائهم بشكل واضح لشتى الاسباب . وهي تكثر عادة  
في الاقطار التي يفتقر فيها وجود التنظيم الحزبي في بعض الحالات وتفتقر الى  
صحافة حرة في حالات اخرى او في الاماكن التي تنتشر الامية بين الكثيرين  
من ابناءها وبذا يفقد الشعب الوسائل الاساس لالتصال الفكري وتبادل وجهات  
النظر وتوحيده جهوده فيما يتصل بموقفه من الفئة الحاكمة .

اما الكفاح الجماعي المنظم فيتعجل بوضوح في اوربا ماوال القرون الثلاثة  
الماضية . وتختلف تلك الظاهرة من حيث قوة تنظيمها وعمق اثرها باختلاف المجتمع  
الذي تحدث فيه . غير ان المشاهد مع هذا يشير الى انها تبدأ في العادة على شكل



احتجاجات مبعثرة ساعدتها ظروفها الاجتماعية والفكرية على الانتشار فتبنتها فئة من الناس ( قليلة العدد او كثيرته ) واخذت تذيئها بين افراد المجتمع الآخرين بجميع الوسائل الممكنة . وظاهرة السكفاح الجماعي المنظم في هذه المرحلة من تاريخها اما ان تستمر على النصر والتأصل في نفوس اتباعها بحيث تجعل منهم قوة تستطيع في المدى البعيد او القريب ان تقف في وجه الفئة الحاكمة او لا ومن ثم ترغمها على التخلي عن الحكم . واما ان يكتب لها الفشل فتتكسر وتعود كما بدأت الى البعثرة وفقدان التنظيم . وقد تتوارى عن الانظار زمناً طويلاً او قصيراً . وربما ساعدتها الظروف في المستقبل القريب او البعيد فمادت نشطة مرة اخرى فيكتب لها النجاح او الهزيمة المؤقتة وهكذا الى ان تتوج بنجاح حاسم . وتكون بداية النجاح الحاسم صراعاً دموياً عنيفاً بين الفئة الحاكمة وفئة تدعي انها تطالب بحقوق الشعب ان حقاً او باطلا غير ان بداية التحدي في هذا الصراع تأتي عادة من جانب الفئة الحاكمة وتكون نتيجة الصراع ان عاجلاً او آجلاً وبالا عليها .

بدأ الصراع الجماعي المنظم بين الشعب والفئة الحاكمة اول ما بدأ من الناحية التاريخية في انكلترا في اواسط القرن السابع عشر . ثم انتقل الى فرنسا في اوآخر القرن الثامن عشر . وبعد ذلك سرى في الاقطار الاوربية المختلفة منذ سقوط نابليون في اوائل القرن التاسع عشر وبلغ مرحلة حاسمة في اواسط ذلك القرن في الولايات الالمانية وفي النمسا وفي كثير من الاقطار الواقعة في اواسط اوربا . ثم انتقل الى روسيا فحدث ثورتها الكبرى عام ١٩١٧ . ويتلخص جوهر ذلك الصراع في قدرة الشعب او بعضه في التعبير العملي بالقول او العمل عن كرهه للفئة الحاكمة نفسها واساليبها في الحكم ومحاولته تغيير تلك الاساليب مع تغيير في

الاشخاص الحاكمين . وقد لا يقف الامر عند حد تغيير اساليب الحكم واشخاصه بل يتعدى ذلك الى تغير نظام الحكم نفسه كما حصل ذلك في فرنسا عام ١٧٨٩ وفي روسيا عام ١٩١٧ وفي كثير من دول اوربا الوسطى حيث تغيرت انظمة الحكم نفسها مع اشخاصها . ويحدث التغير في حالات اخرى في اساليب الحكم واشخاصه ضمن النظام القائم عن طريق جملة يسير على اسس شعبية كما حصل ذلك في انكلترا حيث حدث التغير ضمن النظام الملكي وفي حדרد الوزارة والبرلمان . ويحصل التغير في كلتا الحالتين اما حسب فلسفة نظرية واضحة المعالم يبدأ تطبيقها مباشرة بعد زوال العهد القديم او يكتفي بمجرد القضاء على النظام السائد ومن ثم يفكر بوضع اسس نظرية لحكم جديد او بالدعوة الى تغير محتويات النظام القديم مع المحافظة على كيانه العام وفق بعض المفاهيم النظرية المجردة . وينصب اهتمام الشعب في جميع الحالات على ضرورة تغير اساليب الحكم اكثر من انصبابه على مجرد تغير الافراد الحاكمين . ومما تجدر الاشارة اليه في هذا الصدد ان نجاح الشعب في كفاحه ضد الفئة الحاكمة يكون عنيفاً وشاقاً وطويلاً وبخاصة اذا كانت تلك الفئة مستندة في نفوذها على فئة حاكمة اخرى ( في قطر آخر ) قوية في تشكيلاتها السياسية والعسكرية . ويكون ذلك السكفاح عنيفاً وشاقاً وطويلاً اذا تسنى للفئة الحاكمة في قطر من الاقطار ان تتجنب الاخطاء التي عرضت زميلاتها في الاقطار الاخرى الى الفشل . ولكن تصرفات الفئة الحاكمة مع هذا كثيراً ما تكون عاملاً من عوامل اندلاع نيران الثورة .

.....

الثورة وان كانت كلمة واحدة الا انها ذات معان عدة تختلف باختلاف المجال

الذي تقع فيه والاسلوب الذي يتخذ لتحقيقها . فهناك مثلاً الثورة الصناعية التي حدثت في أوروبا في القرن السادس عشر والثورة الفكرية التي حدثت في أوروبا في القرن التاسع عشر والثورة الانكليزية التي حدثت عام ١٦٨٨ والثورة الفرنسية التي وقعت عام ١٧٨٩ والثورة الروسية التي حدثت عام ١٩١٧ . فالثورة الصناعية والفكرية واضرابهما يقعان في حقل مشترك ويتشابهان في كثير من اوجههما على حين ان الثورة الانكليزية والروسية والفرنسية واضرابها تقع ضمن حقل مشترك كذلك وهي تتشابه في كثير من اوجهها . فالثورة الاولى والثانية وما شاكلهما قد حدثتا بصورة سلمية ولم يرافقهما ( اذا استثنينا ما رافق الثانية منهما من اضطهاد قامت به السلطات المسؤولة بمساعدة رجال الكنيسة لبعض رجال الفكر في الحالات التي اظهروا فيها شكهم في المعتقدات الدينية السائدة ) اراقة دماء . اما الثورات الثلاثة الاخرى فقامت على استعمال العنف والاجوء الى اتخاذ السيف وسيطاً لحل المشكلات التي من اجلها حدثت تلك الثورات . غير ان تلك الثورات جميعاً مع هذا تشترك في صفة عامة واحدة هي الخروج على السائد من الانظمة والتقاليد ومحاولة تغييره تغييراً جذرياً وسريعاً . فبدأت الاولى منها ( الثورة الصناعية ) في مجال الصناعة والتجارة وقلبت وسائل العمل وطرق المواصلات رأساً على عقب . وكان من نتائجها استعمال الآلات والادوات والاجهزة على اختلاف انواعها كالسفن البخارية التي حلت محل السفن الشراعية والسيارة والقطار اللذين حلا محل الحصان ، والطائرة والبرق والتلغراف والتلفون الخ . اما الثورة الثانية فحدثت تغييرات واسعة المدى وعميقة الاثر في نظرة الانسان الى الطبيعة والمجتمع ونفسه . وكان من نتائجها ان ظهرت الفلسفات الاجتماعية المختلفة والنظريات

العلمية والفوائين والشرائع الاجتماعية وما شاكلها . والثورة الفكرية في بعض  
ارجحها ناتجة عن الثورة الصناعية . وهذه بدورها نتاج ثورة فكرية سابقة .  
وقد ادى الاثنان معاً الى ظهور الثورات العسكرية المسلحة التي اعقبتهما بوساطة  
ما احدثناه من تغيير كبير في اساليب عيش الناس وطرائق تفكيرهم الاجتماعي  
والسياسي . والثورات العسكرية المسلحة بدورها مهدت السبيل لتقدم فكري  
وصناعي جديد . وهكذا دواليك .

وبما ان بحثنا منصب على معالجة الثورة بمعناها السياسي - العسكري المساح  
فسوف نتطرق الى ذكر مبادئها وعوامل حدوثها ونجاحها او اخفاق القائمين بها .  
وقبل ان نبدأ بذلك يجمل بنا ان نشير هنا الى ان الكتاب السياسي قد انقسموا  
على انفسهم بشكل عام الى قسمين حين تصدوا الى البحث في شرعية الثورة .  
فذهب بعضهم الى ان الثورة شيء مشروع يحق للشعب بل يجب عليه احياناً ان  
يقوم بها للقضاء على الحكومة التي لا تمثله والتي تنكب عن السبيل السوي في  
الحكم . ذلك لان وظيفة الحكومة حسب رأيهم هي خدمة ابناء الشعب والعمل  
المستمر على رفع مستوياتهم من الناحيتين المادية والمعنوية . وان اخلاها بذلك  
يعتبر مبرراً مشروعاً لمناهضتها واقصائها بالقوة المسلحة عن مركزها في الدولة  
تمهيداً للعجيء بحكومة افضل منها . على حين ان بعضاً آخر ذهب الى الناحية  
المعكوسة فاعتبر الثورة امراً محرماً من ناحية العرف العام والتشريعات الاجتماعية  
وسبب هذا الاختلاف او التناقض بين الرأيين السابقين الذكر راجع الى اختلاف  
واضح بين نظرتي الفريقين المار ذكرهما في اصل الدولة وكيفية نشوئها .  
وسواء اكانت الثورة مشروعة ام غير مشروعة فانها ظاهرة اجتماعية كثيرة

الحدوث في الماضي والحاضر وربما في المستقبل . والثورة كما سلف ان ذكرنا  
تتضمن اجراء تغيير مفاجيء وعميق في الاوضاع السائدة وبخاصة السياسية منها .  
وتذهب تلك التغييرات الى مدى ابعد من مجرد تغيير اعضاء الفئة الحاكمة او  
استبدالهم بغيرهم او احداث تبدل في السياسة العامة للحكومة . اي انها تهدف  
اولا وقبل كل شيء تحطيم الجهاز الحكومي القائم ( اشخاصه وقوانينه )  
لفرض احلال اشخاص آخرين ممن لا يشاطرون الفئة الحاكمة اساليبها في الحكم .  
وكذلك احداث قوانين جديدة يتبعها حتماً تغيير اساس واسع المدى وعميق  
الان في علاقات الافراد والجماعات ببعضهم والحكومة . وتحدث الثورة في العادة  
في مجتمع منقسم على نفسه الى اقلية حاكمة مستهترة من وجهة نظر المحكومين  
واكثرية محكومة ومحرومة . تشعر تلك الاكثرية او بعضها ان حقاً او باطلاً  
بان الفئة الحاكمة قد استهانت بها وهدرت مصالحها واستباححت كرامتها وسلبتها  
حقها في العيش . ولا تنفجر الثورة كما سيأتى شرحه الا اذا سبقها ضمور في هيبة  
الحكومة القائمة وضعف عام من وجهة نظر الذين يدبرون امر القيام بالثورة .  
يقابل ذلك شعور بالثقة من جانب مدبري امر القيام بالثورة بالثقة بانفسهم في  
القدرة على تحقيق امانتهم التي يعتبرونها نبيلة في قصدها وسامية في مغزاها .  
فتبدأ هيبة الحكومة بالظهور بمظهر الضعف في بعض الاماكن وينظر بعض  
الافراد الامر الذي يسهل القيام بالمصيان والتمرد والمظاهرات والاضطرابات  
وماشاكلها . وهنا اما ان تخمدتها الحكومة باتخاذ اجراءات صارمة ان استطاعت .  
واما ان تفشل في علاجها فيسهل امر انتشارها الى مناطق اخرى .  
وفي ضوء ما ذكرنا نستطيع ان نقول ان الثورة تحدث عادة اذا سبقها

(١) شعور ( صحيح او غير صحيح ) من جانب الشعب بضعف هيبة الحكومة  
(٢) عدم رغبة الشعب او بعضه في تحمل الاوضاع السائدة التي تعتبر ( ان حقاً  
او باطلاً ) قد بلغت مرحلة من الترددي لا يمكن معه احتمالها . ولا يتسنى حصول  
ذلك الا اذا سبقه انتشار افكار مبعثرة او منظمة ( تناهض الوضع القائم وتبث  
على التشاؤم منه وتذشر التذمر بين الناس وتبشر بانبلاج فجر اصلاح شامل يكون  
للقائمين بالثورة فيه الفدح المعلى في التنظيم والحكم .

ومن الطريف ان نذكر هنا ان الاوضاع السائدة كثيراً ما تتجسم مفاستها  
ويبالغ في ذلك بطريقة مقصودة او غير مقصودة . وكثيراً ما تحاول الفئة الحاكمة  
القيام باصلاحات مبعثرة يعتبرها الناس تافهة يراد بها التضييل والتمويه . وكثيراً  
ما يلجأ دعاة تغيير الاوضاع الى مقارنة الاوضاع الفاسدة مجسمة مع اوضاع  
مستقبلية يصفون محاسنها بشيء كثير من المثالية والمبالغة . ويقولون ان تلك  
الايوضاع سوف تتحقق اذا نجحت الثورة . ويلاحظ عادة ان الثورة في حالة  
نجاحها تجعل الكثيرين من السكان ( حتى وان لم يساهموا فيها ) يملنون بانهم من  
انصارها ومن المهدين لاحداثها . ولعل السبب في ذلك راجع الى رغبتهم في المساهمة  
في الوضع الجديد او تجنب ما قد يلحقهم من اذى في حالة اعتبارهم من انصار  
القديم . والعكس صحيح كذلك . فاذا فشلت الثورة حاول الكثيرون من رجالها  
ان يتصلوا عنها تجنباً لما يتعرضون اليه من متاعب وعقوبات .

وقبل ان نتطرق الى البحث في عوامل الثورة ومهداتها يجمل بنا ان ننبه  
القاري الى ضرورة التمييز بين الثورة Revolution والانتقالب  
Coup d etate والحركة الانفصالية Rebellion والعصيان او التمرد

Insurrection والتجريض Agitation والتظاهر Riot ، والاتحاد او الثورة  
المعكسة Counter-revolution . فالانقلاب وهو مصطلح فرنسي كما بينا ازاء  
الكلمة العربية المقابلة له ظهر للمرة الاولى في الكتابات السياسية على اثر الحركة  
التي قام بها نابليون بونابرت في فرنسا عام ١٧٧٩ حين اعلن عن توسيعه لصلاحياته  
الحكومية التي كان يتمتع بها قبل ذلك العام . ويصدق الشيء نفسه على الحركة  
التي قام بها نابليون الثالث في فرنسا عام ١٨٥١ . والانقلاب يختلف عن الثورة في  
انه محاولة من جانب الحاكم نفسه لتوسيع صلاحياته او تحويل نفسه من رئيس  
جمهورية مثالا الى ملك او اعلان نفسه رئيساً للجمهورية لمدة اطول مما كان متفقاً  
عليه او قيام فئة جديدة حاكمة للحلول محل الفئة الحاكمة القديمة . ويدخل ضمن  
نطاق الانقلاب كذلك جميع الحركات العسكرية او السامية التي يقوم بها فرد او  
افراد قلائل دون ان يرافقتها عادة ما يرافق الثورة من مظاهرات واضرابات  
وما شاكلها على نطاق واسع لغرض تسلم مقاليد الحكم . ومن المشاهد ان نجاح  
الانقلاب محدود اذا لم يتحول الى نظام يستمد مقوماته من الشعب والقوى المؤثرة  
في تصرف الشؤون العامة للدولة . ويكثر حدوث الانقلاب في الاقطار التي  
لا زالت غير ناضجة من الناحية السياسية ويستند الانقلاب على القوة العسكرية .  
وامكن القائمين به احياناً قد لا يحتاجون الى استعمالها . اما الحركة الانفصالية  
فتتضمن (كما تدل التسمية على ذلك) قيام جزء كبير او صغير من اجزاء قطراو عدد  
من الاقطار للانفصال عن جسم الحكومة المركزية . وكثيراً ما يمهّد للانفصال  
بيث روح التذمر من الوضع الحكومي القائم واحداث شعور عند السكان في  
المنطقة المراد فصلها يتضمن ضرورة الانفصال ومن ثم يستعمل العنف او القوة

المسلحة لتحقيقه . وقد تساهم في ذلك قوى خارجية اخرى لاغراض شتى . وفي التاريخ امثلة كثيرة من هذا القبيل وبخاصة فيما يتصل بالامبراطوريات القديمة والحديثة التي تضم عناصر واقطاراً متباينة اللغات والتقاليد والآمال . ولعل لظهور الفكرة القومية في اوربا في القرن التاسع عشر وانتشار مبدأ الحكم الذاتي اثرأ كبيراً في الدعوة الى الانفصال الذي شهده القرن الحاضر وبدأ ظهوره في اواخر القرن الماضي . اما العصيان او التمرد فهو حركة اضيق في مداها واهدافها من الثورة ومن الحركة الانفصالية . ويمكن اعتبار التمرد مقدمة لحدوث الثورة وبخاصة اذا اتسع نطاقه وانتشر من موضعه الذي يحدث فيه فانظم مواضع اخرى . والعصيان اذا لم يتحول الى ثورة لا يكون ذا اثر كبير في تغيير كيان الحكومة القائمة . وكثيراً ما يؤدي العصيان الى عكس ما يتوقعه القائمون به . ذلك لان الحكومة القائمة قد تحزم امرها وتقوى نفسها وتناسى انقساماتها الداخلية فتطارد القائمين بالعصيان وتسد منافذهم الفكرية والاجتماعية . ويتضمن العصيان في العادة مواجهة مكشوفة عدائية بين القائمين به والقوات الحكومية المسلحة . فاذا لم تستطع القوات الحكومية صده تحول الى ثورة وانتشر الى كثير من المناطق التي ينتشر التذمر بين سكانها نتيجة لتمهيد لذلك من الناحيتين الفكرية والمادية المتمثل في بث الدعاية اللازمة له بشئ الطرق والايحاء للناس بانه انما يهدف الى تحقيق العدل الاجتماعي والقضاء على الظلم والفساد . واذا استطاعت الحكومة اخماده فله يمتدني الى مدة . ومن ثم يظهر بشكل آخر . ولا يحصل العصيان بهذا الشكل السافر الا اذا اصبح القائمون به مقتنعين بان لا سبيل غيره لتمجيد الحكومة القائمة وانه مضمون النجاح كذلك . اما التحريض فهو محاربة كسب الجماهير من الناحية العاطفية



والتفكيرية لغرض القيام بالمعصيان تمهيداً للثورة . ويتضمن التحريض بث المبادئ والآراء المناهضة للوضع القائم والتبشير بمبادئه . يعتبرها المحرّمون والبلم الشافي للمجتمع من عله واوصابه . ويستهدف التحريض توجيه عواطف المتذمرين جميعاً ضد الوضع القائم ( بعد استثارتها طبعاً ) نحو الاشتراك في القيام بعمل ايجابي للقضاء على ذلك الوضع . فتسير عواطف الناس المتذمرين على الرغم من اختلافها ضمن اطار عام هو القضاء على الوضع الفاسد . وقد تقوم الحكومة بتحريض مقابل وقد تضغط على المحرضين كذلك . وكثيراً ما يلجأ المحرضون الى بث الدعاية السرية المنظمة واستعمال الرموز والشعارات . ولا يشترط حتماً ان يتبع التحريض قبل نضوجه عمل ايجابي منظم للقيام بالمظاهرات او الدعوة الى المعصيان الخ . وكثيراً ما يسبق التحريض المعصيان بفترة زمنية ليست بالقصيرة . كل ذلك يتوقف على عوامل كثيرة منها استجابة الجماهير وضعف السلطة القائمة وتفسخها بنظرهم . اما المظاهرات فهي الحركات التي ترافق المعصيان عادة وتعبّر عنه . اي انها صوت المعصيان . وقد تكون المظاهرات محدودة الهدف او واسعة . وقد تكون موجهة ضد شخص او فئة من الاشخاص او ضد وضع خاص او عام . والمظاهرات طلائع المعصيان وممهّدات الثورة .

نستطيع ان نقول في ضوء ما ذكرنا ان المعصيان والتحريض والتظاهر امور لا بد ان تسبق الثورة فتمهد لها . والثورة في واقعة معصيان وتحريض وتظاهر امتد اثرها واسعاً وعميقاً . وان كلا من تلك العناصر على حدة وان كان شرطاً لازماً لظهور الثورة الا انه لا يؤدي من نفسه وبفردته الى حدوثها . والثورة بدورها لا تحدث الا اذا تضافرت العوامل الثلاثة وتعاونت على حدوثها كما سيأتي

تفصيله . ومما تجدر الاشارة اليه قبل التصدي الى بحث الثورة هو ان الفئة الحاكمة تحاول دائماً وتسمى ابدأ الى عدم حدوث الثورة . اما اذا حدثت الثورة على الرغم من جميع اجراءاتها فان الفئة الحاكمة تقوم بسلسلة اخرى من الاجراءات لاجباطها . ويمكننا ان نصف الاجراءات التي تتخذها الفئة الحاكمة فيما يتصل بالثورة لتفادي وقوعها او لامتدادها الى صنفين : (١) الاجراءات الوقائية (٢) الاجراءات العلاجية . والاجراءات الوقائية تتخذ قبل حصول الثورة بزم بعيد او قريب اما الاجراءات العلاجية فيتم اتخاذها قبيل اندلاع نيران الثورة او اثناء ذلك . والغريب في الامر ان الفئة الحاكمة في كلتا الحالتين تستعين بالشعب ضد نفسه .

١- الاجراءات الوقائية : وتنجلي تلك الاجراءات في المدى البعيد في محاولة الفئة الحاكمة ان تتبني عدداً كبيراً او صغيراً من افراد الفئة المحكومة عن طريق المصاهرة والعطف وترفعهم الى مستواها من ناحية المساهمة في الحكم . ويكون هؤلاء في العادة اشد خطراً على الشعب وعلى كيان الفئة الحاكمة من الفئة الحاكمة نفسها . وبما ان هؤلاء كانوا بارعين في الوصول الى مستوى الفئة الحاكمة فانهم يحاولون ان يبرعوا في اتخاذ جميع الوسائل الممكنة للمحافظة على وضعهم الذي وصلوا اليه وضمان ذلك الوضع لاسرهم واقربائهم في المستقبل القريب والبعيد . وتظهر براعة الفئة الحاكمة في قدرتها على التقاط هذا النوع من الافراد من حيث قدرته على المساهمة في ابقاء الارضاع العامة على ما هي عليه لانها تصبح بنظره متصلة بمصالحه الخاصة وآماله ومستقبله . غير ان هؤلاء نفر من الجهة الثانية كثيراً ما تكون تصرفاتهم الطائشة واستهتارهم بمصالح الناس سبباً من اسباب تقويض

كيانهم وكيان الفئة الحاكمة التي اوصلتهم الى مراكزهم تلك . ولا تزداد الفئة الحاكمة كذلك لغرض تثبيت كيانها الى استغلال جميع الروابط التي تربطها بالشعب . وبما ان تلك الروابط كثيرة ومنوعة فان الفئة الحاكمة تتصل بكل جانب من جوانب الشعب عن طريق استثمار ا كبر كمية ممكنة من الروابط التي تربطها به عن طريق اللعب على عواطفه ضمناً لمصالحها في المدى البعيد . فتارة تستثير عند بعض الناس روابطها الدينية او المذهبية وطوراً تستثير في بعض آخر روابطها العنصرية او اللغوية . ومرة روابط المصاحبة المشتركة . وهكذا وهي بهذا الاسلوب تحاول من الناحية السلبية قطع صلة الشعب بنفسه وتمزيق وحدته فتجعل بعضه مساهماً في سلب حقوق بعض آخر . ويحصل ذلك كله على حساب مصلحة الشعب .

وتتجلى تلك الاجزاء كذلك بالاستيلاء على جميع وسائل النشر والاتصال الفكري بين الافراد حيث تخضع تلك جميعاً الى توجيهات الفئة الحاكمة واهدافها . ولا تتردد الحكومة من الاجوء الى التهمه والدجل والتضليل والكذب لغرض السير في سياستها وكثيراً ما تستعين الحكومة ببعض العناصر المحافظة والرجعية من ابناء الشعب لغرض اخذ التذمر والشكوى من الاوضاع العامة . ومن الوسائل الاخرى التي تستعين بها الفئة الحاكمة للحيلولة بين الشعب وتمرده عليها الهائه بمسائل جانبية نافهه لتوجيه انظاره عن معالجة المشكلات العامة التي تتصل بحياته وكيانه . وكثيراً ما تلجأ الفئة الحاكمة الى استعمال الوسائل الزاجرة والمقوبات الرادعة كالنفي او الحبس او الاغتيال وما شاكلها .

٢- الاجراءات العلاجية : وتتخذ عادة قبل اندلاع نيران الثورة أو اثناء

ذلك . وهي تمتاز بالشدّة والصرامة أو تقوم على الادعاء بان من يريدون القيام بها انما هم «مشاغبون» أو «هدامون» أو «خطرون» أو «ملاحدة» أو «زنادقة» أو «خونة» الخ . حسبما تقتضيه الظروف الاجتماعية العامة . غير ان المشاهد مع هذا كله يدل على ان تلك الاجراءات بنوعها كثيراً ما تفشل في اداء مهمتها على وجهها السليم . وانها ربما تكون عاملاً من عوامل التمهد للثورة .

لقد مر بنا القول ان اجابة الشعب على تصرفات الفئة الحاكمة المبينة على اساس الاستهانة بمصالحه وحقوقه تظاير في بعض الاحيان على شكل حركات فردية مبعثرة يقوم بها بعض افراد الشعب مُتَحَدِّين سلطان الفئة الحاكمة . وتظهر تلك الاجابة الشعبية احياناً اخرى على شكل كنفاح جماعي منظم يتحول احياناً الى ثورة دموية تنشب بين الجانبين المتخاصمين . فاذا كتب النجاح لتلك الثورة اكتسحت الفئة الحاكمة وازالت نفوذها ومهدت الطريق لحدوث انقلاب في اصول الحكم ونتائج من الناحيتين النظرية والعملية . واذا لم تنجح الثورة في وقتها فانها ربما تتلاشى عن الانظار وقد يعمل دعايتها متخفين لتجنب العوامل التي عرضت قيامهم بالثورة الى الفشل في الماضي وقد يحاولون اجراء تغيير في وسائلهم وخططهم وفقاً لمستلزمات الظروف السائدة . وقد يكتب لهم النجاح أو الفشل ثانية . غير انه يمكن ان يقال من الجهة الثانية ان الكفاح بين الشعب والفئة الحاكمة ينتهي حتماً ان عاجلاً أو آجلاً بانتصار الشعب واندحار المعتدين على حقوقه . غير ان الثورة احياناً تكون عاملاً من عوامل استبدال فئة حاكمة باخرى من الناحية السياسية بحيث وان رافق ذلك تغيير صغير أو كبير في الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية للشعب . كما حصل ذلك في روسيا بعد ثورتها الحمراء عام ١٩١٧ حيث استبدل حكم القياصرة القائم آنذاك بحكم فئة جديدة اكثر براعة منهم في المحافظة على نفسها

وعلى حكمها . ولحدوث الثورة الدموية عوامل ومهدات قريبة وبعيدة فكرية ومادية يشترك فيها الشعب والفئة الحاكمة في آن واحد . ومهما يكن من شيء فإن الفئة الحاكمة في الواقع تزرع بذور الثورة في نفوس أبناء الشعب في اللحظة التي تبدأ حكمها غير العادل وعبثها بحقوقه ومقدراته . والشعب إلا في حالات خاصة يساء فيها توجيهه طالب حق يسعى لرفع الجور عن نفسه . وكما امتد الزمن بالفئة الحاكمة حتى وان بدا لها ولا اتباعها أو للشعب نفسه انها في اوج سلطانها وعظمتها فان مركزها في الواقع يكون في كل لحظة اضعف منه في اللحظة التي سبقتها . والزمن الذي تبدو فيه الفئة الحاكمة كأنها ماسكة زمام الموقف من جميع جوانبه ماهر في الواقع الا فترة اخفت فيها عوامل التدمير والتحدي ولاسكنها لم تتلاش كما يخيل للكثيرين . وكثيراً ما يكون ذلك الزمن الذي يبدو هادئاً اذا توافرت شروط معينة منذ كرها هو الزمن الذي تنفجر فيه قوى الشعب الكامنة التي تحتاج الحكم القائم واعمدته . وكثيراً ما يوصف هذا الهدوء بأنه الهدوء الذي يسبق العاصفة .

تحدث الثورة في العادة اذا سبقتها مهدات خاصة . غير ان حدوث الثورة لا يستلزم حتماً نجاحها . فقد تفشل الثورة وينتكس دعائها لانها حصلت قبل اوانها ولا بد لنجاح الثورة بمد حدوثها من توافر الشروط الآتية مجتمعة :

آ - فيما يتصل بالشعب

١ - الجانب المعاشي

ينبغي ان يكون حصول الثورة ممكناً ان يتعرض الشعب أو بعضه قبيل انفجار الثورة باسابيع أو اشهر الى ازمة معاشية حادة . ولا يستطيع الباحث

بطبيعة الحال ان يحسب مقدار تلك الحدة في الازمة المعاشية الآتية الذكر .  
ولكنه مع هذا يستطيع أن يقدر حدتها بوساطة حسابه انتأجها . اي ان  
انتفاضات الشعب أو بعضه على الحكومة دليل بقدر مايتعاق الامر بالجانب  
المعاشي على ان ازمة معاشية قد الت بالبلاد وقد شعر بتلك الحدة من قاموا بذلك .  
فقد تعرض الشعب الفرنسي الى ازمة معاشية حادة نتيجة لرداءة المحصول الزراعي  
وقلته في شتاء عام ١٧٨٨ الشديد البرد الامر الذي مهد السبيل الى قيام الثورة  
الفرنسية الكبرى عام ١٧٨٩ . ويصدق الشيء نفسه على روسيا في شتاء عام ١٩١٦ .  
وقد لا يتردد دعاة مناهضة الوضع القائم من التمهيد لايجاد ازمة معاشية حادة  
بوساطة اخفاء ما هو موجود من الطعام عن متناول الناس الذين هم بامس الحاجة  
اليه او عرض ما لا يسد حاجتهم منه او جعل ما يعرض منه على حالة من الرداءة  
بحيث يجعل صيحات التذمر تتعالى في الفضاء . وغرض دعاة الثورة من كل ذلك  
هو الانتفاع باستثارة عواطف الجماهير وتوجيه مجرى تدمرها عن الاتجاه الذي  
يسير فيه من جهة وعن البعثة التي تكتنفه من جهة اخرى فيسير وفق الاتجاه  
الذي يريدونه وبشكل منظم ومتماسك . وبهذه الطريقة يسدون على الجماهير المتدمرة  
منافذ التذمر القديم ويفتحون امامها منافذ جديدة . فهم اذن لا يقضون على  
التذمر من حيث الاساس حتى بمد نجاح ثورتهم وانما يحولون تحويل اتجاهه فقط .  
فيشغلون الناس قبيل الثورة واثناها في شجب الوضع القديم ومن ثم يوحون لهم  
بامكانية عودته لاشغالهم في التأهب لخنقه في مهده . وكثيراً ما يتم ذلك على  
حساب الجماهير التي تستعمل حطباً لنار الثورة . وكثيراً ما يكون الوضع الجديد  
اقسى عليهم من سلفه من حيث جوهره لا من حيث المظهر الخارجي . ومما تجدر  
الإشارة اليه في هذا الصدد ان الطبقات المحرومة في العادة هي التي تكونى بنار

الوضع في الحالتين القديمة والجديدة . ففي الثورة الفرنسية مثلاً بلغ عدد من سيقوا الى المقصلة او اعدموا رمياً بالرصاص او اغرقوا في نهر اللوار او هربوا من بلادهم او سجنوا ( من الذين عرفت هوياتهم فقط ) حوالي ٧٠٠ الف شخص كلهم كانوا من الفلاحين والعمال والفئات المحرومة . ولم يتجاوز عدد الذين تعرضوا للموت من اعضاء الفئة الفرنسية الحاكمة واصحاب المصالح المركزة بضع مئات . ومن الطريف ان نذكر في هذه المناسبة ان القرويين والفقراء الذين انبثقت الثورة لحماية ارواحهم ومصالحهم كانوا معرضين للقتل من قبل زعماء الثورة انفسهم باعداد كبيرة ولائفه الاسباب . وكثيراً ما كانت محاكمتهم تجري بشكل سريع هذا في حالة سوقهم الى المحاكم . على انهم في الاعم الاغلب كانوا يساقون الى الموت زرافات ووحداً دون محاكمة . على حين ان اعمدة العهد القديم كانوا يقدمون للمحاكم حسب الاصول المتبعة ويسمح للمحامين بالدفاع عنهم هذا عدا عن جعل جميع وسائل الراحة الممكنة متوافرة لهم اثناء السجن أو المحاكمة . ذلك ما يتصل بحدوث ازمة معاشية حادة من حيث كونها احدى مبادئ الثورة .

غير ان الباحث من الجهة الثانية يشاهد عدداً من الازمات المعاشية الحادة التي كانت تحدث في كل من فرنسا وروسيا في بعض المناطق أو في معظم ارجاء القطر مع ما يرافقها من تدمير ومظاهرات في بعض الاحيان دون ان يعقب ذلك الوضع ثورة دموية مسلحة . ويعود السبب في ذلك دون شك الى ضرورة توافر عوامل اخرى الى جانب الازمة المعاشية الحادة التي يتعرض لها الشعب أو بعضه . وعلى هذا الاساس يمكننا ان نقول ان الازمة المعاشية الحادة وان كانت شرطاً لا بد منه لحدوث الثورة الا انها بنفسها منفصلة عن عوامل اخرى مصاحبة سنذكرها لانثودى حتماً الى انفسه . هذا من جهة ومن جهة ثانية بان الازمة المعاشية

لان تكون حادة بنظر الشعب أو بعضه الا اذا هيأت لها زمرة من ابناء الشعب تتخذ  
• منها وسيلة لا يقاظ شعور الناس وتأليبهم على تحدي الوضع القائم وتشجيعهم على  
القيام بالمظاهرات واعمال التخريب والتدمير . وكثيراً ما تلجأ تلك الزمرة أو بعضها  
الى تصوير الوضع القائم بأشع مما هو عليه عن طريق الخطب والمناشير أو القيام باعمال  
استفزازية تخلق بال الحكومة القائمة .

## ٢- الجانب الفكري

لـكي يتحول التذمر والمظاهرات التي يقوم بها الشعب أو بعضه سواء اكانت  
تلك المظاهرات جارية على نطاق محلي محدود أو على نطاق واسع الى ثورة ديموقراطية  
مسلحة يتحتم ان يسبق ذلك بالاضافة الى الازمة المعاشية الحادة التي سلف ذكرها  
انتشار الافكار والمبادئ المناوئة للحكم القائم بين الكثيرين من ابناء الشعب .  
فقد انتشر في فرنسا قبيل نشوب ثورة عام ١٧٨٩ كثير من الآراء والمبادئ  
النظرية غير المتفقة ومنطق الفئة الحاكمة واساليبها في الحكم آنذاك . ومن يرجع  
الى كتابات فولتير وجان جاك روسو ومونتسكيو مثلاً يجد من الامثلة على انتشار  
المبادئ الاجتماعية غير المنسجمة مع الحكم القائم آنذاك شيئاً كثيراً . ويصدق  
الشيء نفسه على الوضع الفكري للشعب الروسي قبيل عام ١٩١٧ حيث انتشر كثير  
من الآراء والمبادئ العسكرية المناوئة للحكم القيصري الذي كان سائداً آنذاك .  
ومما تجدر الاشارة اليه في هذا الصدد ان انتشار الآراء في هذه الفترة وقبول  
الناس لها لا يتوقف على سلامتها من الناحية العملية بمقدار توقفه على ملاءمتها للظروف  
السائدة . وكما مست الفكرة التي ينادي بها دعاة الثورة عاطفة قوية في الناس ماهرة  
حماهم للدفاع عنها كان ذلك عاملاً قوياً في استجابة الجماهير لها وايمانهم بها . غير  
ان انتشار الآراء والمبادئ المناوئة للحكم القائم وان كان ركناً اساساً من الاركان



التي يستند اليها حدوث الثورة الا انه لوحده لا يؤدي حتماً الى حدوث الثورة هذا من جهة ومن جهة ثانية فان انتشار المبادئ المختلفة بين ابناء الشعب كثيراً ما يكون عاملاً من عوامل انقسام الشعب على نفسه . وقد يحدث ذلك احياناً في الحالات التي ينتشر فيها مبدأ سياسي واحد مناهض للوضع السياسي القائم في قطر من الاقطار اذا تعددت الاساليب التي تفخذ لتحقيقه الامر الذي يجعل تعددها عاملاً من عوامل تمزيق وحدة صفوف الشعب . وكثيراً ما تكون الفئة الحاكمة على درجة كبيرة من البراعة والنشاط فتستغل ذلك الخلاف الفكري في المبادئ والاساليب لصالحها وتعمل جاهدة متخذة جميع الوسائل الممكنة على تشجيع انقسام الشعب على نفسه وبث التفرقة بين صفوفه وتوجيه انظار ابناءه واشغالهم بخلافاتهم الفكرية لتصبح هي في منجى من تألبه عليها . وعلى هذا الاساس يمكننا ان نقول ان انتشار مبدأ سياسي واحد بين افراد الشعب لا يكون فعالاً بقدر ما يتعلق الامر بتهيئه السبيل لحدوث الثورة الا اذا جمعت بين حملة تلك المبادئ الكثيرة والمتباينة وحدة الشعور بضرورة القضاء على العدو المشترك المتمثل في الوضع السياسي القائم شريطة ان يتخذ الجميع اسلوباً واحداً أو اساليب متقاربة للتعبير عن ذلك الشعور .

ومما تجدر الاشارة اليه في هذا الصدد انه يشاهد اثناء اندلاع نيران الثورة ظهور اوجه جديدة تتولى الزعامة من الناحيتين السياسية والعسكرية . ولم تسكن تلك الاوجه معروفة لسائر افراد الشعب الا بمقدار اتصالها به عن طريق ما تشغله من الوظائف المتواضعة بالنسبة للعهد القديم . ولعل ذلك راجع الى انها كانت تعتبر بمقاييس العهد القديم من الشخصيات المغمورة التابعة لتوجهات الفئة الحاكمة واوامرها . وربما ساور بعض افراد الفئة الجديدة التي تنبثق الثورة عنها شعور

ربما يكون غامضاً في بعض الاحيان بان لها من السكفاعة والقدرة على تسيير دفة الامور ما يجعلها تمسك بضرورة ازالة ما يعترض سبيلها من عقبات وضعها في طريقها الحكم القائم الذي يتصف من وجهة نظرها بالفساد وعدم تقدير اصحاب الكفءات. وربما كان شعورها بالسكفاعة والحرمان في آن واحد هو الذي دفعها الى مناورة الوضع القديم تمهيداً لايجاد عهد تتجلى فيه مواهبها وتظهر فيه كفاءاتها. ويجمل بنا ان نشير هنا الى ان الفئة الحاكمة قد تقوم احياناً بشوره معاكسة تقصدها اخماد انفس الثائرين. وفي هذه الحالة فان الفئة الحاكمة وان كانت تتمنى اعادة الماضي بجميع تفاصيله ومقوماته فانها لا تقوى على ذلك نظراً لتغير الظروف والاضواع. وبما ان الفئة الحاكمة غير جادة للقيام باصلاح جذري لان ذلك يتنافى هو ومصالحها المركزية فانها تطلق لنفسها العنان في نشر الوعود وتبني المناهج الاصلاحية الخيالية. ولعل مخاوفها التي اثارها الثورة قبل فشلها ( فيما يتصل باحتمال فقدانها لسكبانها ومركزها وشعورها بضعفة ذلك السكبان في اوائل اخماد الثورة ظناً منها بامكانية عودة الثورة من جديد ) فانها تتظاهر بالقيام بالاصلاحات التي يطالب بها الثائرون وربما تكون الفئة الحاكمة مخلصه في اول الامر لارغبة منها في الاصلاح بل محافظة على كيانها من التصدع مجدداً. غير انها بعد ان تتأكد من تثبيت مركزها واعادة هيبتها تعود ثانية وبالتدريج الى سابق عهدها متخذة سلسلة من الاجراءات الرجعية تكون كل حلقة فيها اكثر ايغالاً في الرجعية من الحلقة التي تسبقها. وسبب ذلك على ما يبدو في ان الاجراءات الاولى تكون اخف من الاجراءات اللاحقة هو ان الاولى منها قريبة العهد بالثورة الفاشلة فهي اذن تحاول ان تكون بعيدة عن استفزاز الناس من جديد.

اما اذا كتب النجاح للثورة نتيجة للعوامل التي نحن بصدد ذكرها فان اصحاب

المبادئ المختلفة ( واصحاب الاساليب المختلفة في حالة انتشار مبدأ واحد )  
يعودون الى التناحر فيما بينهم . فيتسلم زمام الامور العامة في اول الامر ولفترة  
قصيرة من الزمن الجناح المتطرف من قادة الثورة . ولعل سبب ذلك راجع الى ان  
ذلك الجناح بحكم كونه اقلية عددية يشتد ايمانه بعدالة قضيته ويزداد تماسكه وقدرته  
على تجسيد مفاسد الوضع القديم . يضاف الى ذلك انصياح الجناح المعتدل والجناح  
المحافظ من رجال الثورة له مما يجعله بوضع يساعده على ادارة ذفة السياسة العامة .  
وسبب انصياح الجناح المحافظ له هو خوفه من ان يوصف بالرجعية ومناصرة العهد  
القديم . اما الجناح المعتدل فيتخذ من ذلك ذريعة لاستلام مقاليد الحكم . غير  
ان حماس الجناح المتطرف وايفاله في الاتتقام من انصار العهد القديم يجعل الحكم  
يسير نحو المعتدلين من الثوار . واذا لم يستند المعتدلون في سياستهم على الشعب فان  
كيانهم يبقى معرضاً للانهار . لقد بدأ زعماء الثورة الفرنسية بعد ان نجحوا في  
تقويض اركان العهد القديم بالكيد لبعضهم بعضا . فاستطاع روبسبير زعيم الكتلة  
المعتدلة بعد ان استعان بدانتون زعيم الجناح المحافظ ان يسوق هيرت زعيم الجناح  
المتطرف وبعض اتباعه الى المقصلة بتهمة التآمر على الوضع الجديد والخيانة العظمى  
للوطن ومخالفة مبادئ الثورة نظراً لصرامتهم في محاسبة من اعتبروهم خصوما  
للعهد الجديد اثناء تسلمهم مقاليد الحكم لفترة قصيرة من الزمن . وبعد ان تم  
ذلك بدأ الصراع من جديد بين الكتلتين المتأخيتين فاستطاع روبسبير ان يقضي  
على دانتون والبارزين من انصاره بعد ان اتهمهم بالتآمر على مبادئ الثورة  
ووصفهم بخدمة القمئة الرجعية وممالأة العهد القديم . غير ان فيشل روبسبير في كسب  
ولاء الجماهير قد ادى الى سقوطه هو وبعض المخلصين من اتباعه الى المقصلة . ولا  
يختلف الوضع في روسيا بعد ثورتها الحمراء عنه في فرنسا . فقد تعرض قادة الثورة

الروسية بعد وفاة لينين الذي حقق مبادئ الثورة وقضى على الوضع القديم الى مجابهة وضع مشابه للوضع الذي وصفناه بعد حدوث الثورة الفرنسية . فبدأ الصراع العنيف بين ستالين واتباعه من جهة وبين تروتسكي وانصاره من جهة اخرى . وكان جوهر الخلاف منصبا على الوسائل لا على الاهداف . ذلك لان الجانبين كانا مؤمنين بالفلسفة الماركسية ايمانا عميقا على ما يبدو من كتابات كل منهما وتصرفاته . ويظهر ان جوهر الخلاف بينهما كان متعلقا باختلافهما في تفسيرها . فستالين واتباعه كانوا يؤمنون كما اتضح ذلك من سياستهم وفلسفتهم كذلك بضرورة اتخاذ جميع الوسائل الممكنة لتثبيت الوضع القائم في روسيا بعد وفاة لينين في عام ١٩٢٤ ومن ثم يبدأ العمل كما يدعون على تشجيع الشعوب الاخرى للانتفاض على حكوماتها شريطة ان تكون روسيا هي مصدر الاشعاع في هذا السبيل . على حين ان تروتسكي كان يرى ان تتخذ جميع الوسائل لتحفيز الشعوب الاخرى للانتفاض على حكوماتها للوصول في آن واحد الى تشكيل دولة اشتراكية في الاقطار المختلفة . ذلك لانه بنظره من غير الممكن قيام دولة اشتراكية واحدة وسط عالم مملوء بالدول المناوئة لها . اما ستالين فكان يؤمن بإمكانية قيام دولة مبنية على المبادئ الاشتراكية الماركسية وسط عالم يعج بالمبادئ الرجعية والرأسمالية . وقد كتب النصر في النهاية لستالين واتباعه . وقد حدث شيء مشابه لذلك بين مالتكوف وبيريا بعد وفاة ستالين .

٣- جانب التنظيم : التنظيم عنصر من العناصر الرئيسة التي يتحول بواسطتها التدمير أو المظاهرات المبعثرة الى حركة ثورية واضحة المعالم . ويتعلق التنظيم بتنسيق قوى الشعب لغرض مقاومة الحكومة وتعيين كيفية البدء بالمقاومة ومكانها وزمانها والقائم بها . وبقدر ما يكون التنظيم سليما فان قوى الشعب تسير متعاونة

ومتراصة نحو بلوغ هدفها . ولا يتم التنظيم الناجح الا اذا توافرت للقائمين به زعامة تتحلّى بالشجاعة والاقدام وتؤمن بعدالة الفكرة التي تسعى الى تحقيقها وتتصف باحكامها لوسائل التي توصلها الى اهدافها باقصر وقت ممكن وباقل كمية من الجهود والتضحيات .

لقد اختلف المؤرخون وعلماء النفس والاجتماع في تفسير طبيعة الزعامة ومقوماتها . فقال بعضهم انها تعود في أسسها الى امور وراثية محضة يتسلمها الافراد عن اسلافهم بوساطة النقل البايولوجي جيلا بعد جيل ولا اثر للبيئة الاجتماعية أو الطبيعية فيها مطلقاً الا فيما يتصل بالكشف عنها وتبياة الوسط الذي عن طريقه تعبر عن نفسها . غير ان هؤلاء الباحثين مع هذا لم يتفقوا على تفسير تلك العوامل الوراثية . فزعم بعضهم انها راجعة الى تغلب ما اسماه بغيرزة التسلط أو السيطرة عند الزعماء على غريزه الخنوع والانقياد . ويعرى على هذا الاساس الفرق بين سلوك افراد المجتمع الانساني الى مدى تغلب احدي هاتين الغريزتين على زميلتها .

وقال بعض آخر من هؤلاء الباحثين ان ظاهري الانقياد والتسلط تعودان الى اسس فلسفية تشريحية تتعلق بتركيب الجسم والجهاز العصبي والغدد الصم . وهناك فئة اخرى من علماء النفس والاجتماع انكرت اثر الوراثة في سلوك الافراد نكراناً تاماً وعزت جميع مظاهر السلوك الانساني الى عوامل بيئية اجتماعية وطبيعية . الواقع ان كيان الانسان من الناحية الجسمية والفكرية ومظاهر سلوكه جميعاً محصول بيئته ووراثته ولا معنى الا لغرض الدرس النظري ان يؤخذ بنظر الاعتبار احد الجانبين على حساب الجانب الثاني . فلا تستطيع البيئة ان تخلق عباقرة وزعماء ما لم يكن في تكوينهم وراثي مما يساعد على جعلهم كذلك . وان هؤلاء العباقرة

والزعماء من الجهة الثانية لا يستطيعون ان يحققوا زعامتهم وعبقريتهم على وجهها  
الآتم وان يجعلوها ذات اثر واضح في المجتمع الا اذا توافرت لديهم بيئة اجتماعية  
وطبيعية تساعد على ذلك . اتنا نميل الى الاعتقاد بان الزعامة لا تفهم فهماً صحيحاً  
الا اذا درست صلة الزعيم بالظروف العامة للمجتمع الذي يعيش فيه من الناحيتين  
الداخلية والخارجية ، وعلى هذا الاساس لا نرى القول الذي ذهب مذهب الامثال  
على السنة بعض الناس من ان الزعيم هو الذي يخلق المجتمع صحيحاً على هذا الوجه  
من وجوه الاطلاق . كما اننا من الجهة الثانية لا نرى القول المعاكس الذي يزعم  
دعائه بان المجتمع هو الذي يخلق الزعيم صحيحاً كذلك على اطلاقه . فلا الزعيم  
يخلق المجتمع الا اذا كانت الظروف او بعضها بجانبه . ولا المجتمع يخلق الزعيم  
اذا لم يكن في تكوينه ما يؤهله للزعامة . فالصلة بين الزعيم وظروفه وشيخة شريطة  
ان يسمى الزعيم بالتعاون مع المؤمنين برسائله لتغلب على ما يعترض سبيله من  
عقبات وصعوبات على القدر المستطاع والانتفاع بكل ما يمكن الانتفاع به من  
الظروف وتحويل ما يمكن تحويله من العقبات الى امور مساعدة في اداء رسالته .

ب - الجانب الحكومي : يجمل بنا قبل البدء بالبحث في الجانب الحكومي  
المتصل بالتمهيد لانفجار الثورة ان ننبه القارئ الى ان تصنيفنا لعوامل الثورة الى  
جانبيين ( حكومي وشعبي ) انما هو تصنيف مصطنع للغاية منه تحليل العوامل المؤدية  
الى الثورة تحليلاً نظرياً يساعدنا على الدراسة والبحث ذلك لان الجانبين الحكومي  
والشعبي يعملان معاً جنباً الى جنب يؤثر كل منهما في الآخر ويتأثر به : ويصدق  
الشيء نفسه بطبيعة الحال على الاركان التي قسمنا اليها كلا من البحث في الجانب  
الشعبي والجانب الحكومي . هذا من جهة ومن جهة ثانية فان كل ما نبشناه

وما سنبجته في هذا الصدد لا يحدث مرة واحدة ولا يكون كذلك على درجة واحدة من التأثير .

### ١- الجانب الاقتصادي او المالي

لسكي يهياً الجو الاجتماعي لانفجار الثورة لا بد ان يسبقه شعور عند من يدعو اليها بان اعضاء الحكومة القائمة قد بلغوا من الاستهتار بمصالح الشعب درجة لا يمكن معها احتمال تصرفاتهم تلك او حلها بطريقة اخرى غير طريق الفار والحديد . ومما يسهل لاولئك المتذمرين امرهم ان تتعرض الحكومة لازمة اقتصادية او ارتباك مالي يؤثر في كيانها العام على كل حال . وينتج عن هذا الارتباك المالي ويرافقه في العادة اضطراب في الوضع الحكومي من الناحية السياسية . ويقابل هذا الوضع المالي المرتبك في جهاز الدولة ازمة معاشية حادة يعانها الشعب او بعضه سبق ان المعنا اليها . وفي التاريخ امثلة كثيرة على ذلك . فقد مرت الادارة الحكومية في عهد لويس السادس عشر قبيل انبثاق الثورة الفرنسية بعدة اعوام بازمة اقتصادية كانت احدى نتائجها ان استدعى الملك لويس السادس عشر نكر احد رجال المال الفرنسيين لمعالجة الازمة الاقتصادية . فاجرى نكر بعض الاصلاحات المالية الآتية التي اقتضاها الوضع بنظره آنذاك واقترح كذلك اتخاذ اجراءات اخرى لتحسين الوضع المالي في المدى البعيد . غير ان وقوف الملكة وحاشيتها وبعض المتنفذين في وجهه لاعتقادهم بان في تنفيذ تلك الاجراءات انتقاصاً لامتيازاتهم وتضييقاً لتصرفاتهم الامر الذي حدا بالملك ان ينحيه عن منصبه . غير ان تنحية نكر زادت في حراجة الوضع المالي المرتبك كما زادت في ارتباك الحالة السياسية المضطربة . واذا صح ما ذهبنا اليه جاز لنا ان نقول ان الارتباك المالي في وضع الحكومة يكون عاملاً من العوامل التي تهيب الجو الاجتماعي للاقيام بالثورة .

غير ان الارتباك المالي الآنف الذكر وان كان امراً لازماً لهيأة الاذهان للقيام بالثورة الا انه بنفسه غير كاف لاحداثها .

## ٢- الجانب السيامي

يتضح الجانب السيامي من حيث كونه من العوامل الممهدة لاندلاع نارالثورة في الضعف الذي يبدو في جهاز الدولة وبخاصة في تنفيذاتها السياسية والعسكرية والادارية وفي هيبتها بنظر الشعب بشكل عام وبنظر دعاة الثورة بشكل خاص . ويمكن ارجاع العامل الرئيس في هذا الضعف الى انقسام الفئة الحاكمة على نفسها في وقت يشهد فيه تكاتف القوى الشعبية المناوئة للحكم القائم وتظافر جهودها . وينتج هذا الانقسام في العادة من تضارب مصالح قادة الفئة الحاكمة احياناً او عن استهانتها بقوى الشعب احياناً اخرى او عن خروج بعض افرادها على مبادئها واعترافهم بسوء اساليبها في الحكم احياناً ثالثة او عن انصرافها او بعضها الى العبث واللهو وقلة اكرانها بتدوير شؤون الحكم احياناً رابعة او عن اعتمادها في تدوير امور الملك وبخاصة الجوانب الفكرية منه على عناصر لا تصلح له من حيث الكفاءة والاخلاص احياناً خامسة او عن اكثر من عامل واحد من العوامل الآتفة الذكر احياناً سادسة . ومما تجدر الاشارة اليه في هذا الصدد هو ان الحكومة القائمة التي تبدأ بالشعور بان الشعب متدمر منها وانه ربما انفجر عليها تسمى ( بدلا من ازالة التدمر وتخفيف حدته عن طريق القيام باصلاحات واعمال ايجابية نافعة ) الى تنوية جهازها السري وتشكيلاتها التعسفية وتفتح ابواباً جديدة للفساد والعبث بحقوق الشعب . فتزيد في ضغطها على حرية الفكر وتلجأ الى استعمال بالديها من وسائل الدعاية لجعل الشعب او المتدمرين من بينه يشعرون بعدم عدالة قضيتهم او ان الحكومة ليست فاسدة الى الحد الذي يصفها به خصومها . كما انها



تحاول كذلك ان توحى للشعب بهيبتها وقوتها وتجمعه يشمر بإمكانية أخذاله امامها . ولا يخفى ان الشعور بالخذلان هو اول خطوة من خطوات الخذلان نفسه . وبذلك يتسنى للحكومة القائمة وقتياً ان تحتفظ بكيانها وهيبتها وينتفي ولو ظاهرياً شعور بعض اعضائها او كلهم بإمكانية اندطارها . غير ان الحكومة بعملها هذا كما سلف ان ذكرنا لا تقضي على مناوئتها بل تجعلهم يلجأون الى اتقان العمل المتخفي المستور واتخاذ الشعارات والرموز للانقضاء عليها في الوقت المعين . فاذا دقت ساعة الثورة بدت في افق الجو السياسي الذي يبدو صافياً غيوم سود تبدو قادمة من مكان بعيد تتهادى في سيرها وتسبقها طلائع عواصف يمازجها رعد وبرق لا تلبث ان تعكر الجو وتربكه وربما تعصف به . واخيراً ينجلي الموقف الجديد اما عن كيان حكومي جديد او عن الاحيفاظ بالسكان القديم وفي كلتا الحالتين ينسكل المنتصر بخصوصه اشد التنكيل .

غير ان قوى الشعب المنظمة مع هذا لا تستطيع القضاء على الحكومة القائمة الا اذا استطاعت ان تدمر قوى الجيش والشرطة . ويتم ذلك باحدى طريقتين هما التغلب على تلك القوى عند حصول تصادم مسلح بينها وبين الشعب او تمرد تلك القوى على اوامر الحكومة واعلانها العصيان على قادتها فيما يتصل باحجامها عن الاشتباك مع قوى الشعب بمعارك دموية تمهيداً لانضمامها الى القوى الشعبية . وهناك حالات كثيرة لا ينتج فيها فقدان الحكومة لهيبتها وكيانها عن انضمام قواها المسلحة او بعضها الى الثائرين بقدر ما ينتج ذلك عن اخفاق الحكومة في استعمالها قواها ببراعة وحسنة لاختداد انفاس الثائرين . ومهما يكن من شيء فان الثورة لا تنجح الا اذا فقدت الحكومة سيطرتها على قواها المسلحة او على القسم الذي باستطاعته حمايتها من بطش الثائرين .

ذلك ما يتصل بالثورة . اما ديوي فيقف منها موقف الشخص غير المؤيد لها  
وغير المؤمن بها . فالثورة بنظره عامل هادم كثيراً ما يفشل في علاج جميع مشكلات  
المجتمع ، وقد تؤدي الثورة احياناً الى تعقيد تلك المشكلات لا الى حلها . وان  
حل بعض مشكلات المجتمع ، في حالة حدوثها ، لا يأتي عن طريق الثورة نفسها بل  
عن طريق دور الاستقرار الذي يعقبها . واذا لم يعقب الثورة دور يسود فيه  
الاستقرار والطمأنينة فان آثارها المخرية تبقى ماثلة لا ميان . واذا سلمنا بان دور  
الاستقرار هو الذي يجعل امر معالجة مشكلات المجتمع ممكناً جاز لنا ان نقول مع  
جون ديوي ان التعاون المبني على اسس التفكير الحر الذي يهدف الى خدمة  
المصلحة العامة هو الاسلوب الانساني الذي ينبني الاتجاه اليه في هذا الصدد ذلك  
لان استعمال القوة كوسيط لحل مشكلات المجتمع المستعصية كثيراً ما يؤدي الى  
نبذ التعاون والبحث العلمي وعدم تشجيع الاخذ بهما حتى في الحالات التي  
لا يتطلب حلها استعمال مثل تلك القوة . والثورة بالاضافة الى ذلك قد تشل تقدم  
المجتمع وتهدد كثيراً من موارده وامكانياته المادية والمعنوية . وهي وسيلة من  
وسائل قطع الصلة الفكرية والعاطفية بين ابناء الامة الواحدة ، وكثيراً ما تؤدي  
الثورة الى سيطرة فئة جديدة من الحكام ( بدلا من الفئة الحاكمة المغلوب على  
امرها ) يصعب كثيراً على الشعب ان يتخلص منها اذا اقتضت مصلحته ذلك .  
وكل نظام يستند الى العنف في مقوماته يجعل بعض الناس صرعى بطشه وبمضاً  
آخر ضحية لايمانهم المطلق بصحته . والثورة بالاضافة الى ذلك توحى للفئة الحاكمة  
التي جاءت للحكم عن طريقها ان تستمر في حكمها وان تستعمل جميع الوسائل الممكنة  
لاقناع المحكومين ( او اجبارهم ) بضرورة الرضوخ لها رضوخاً تاماً او قريباً

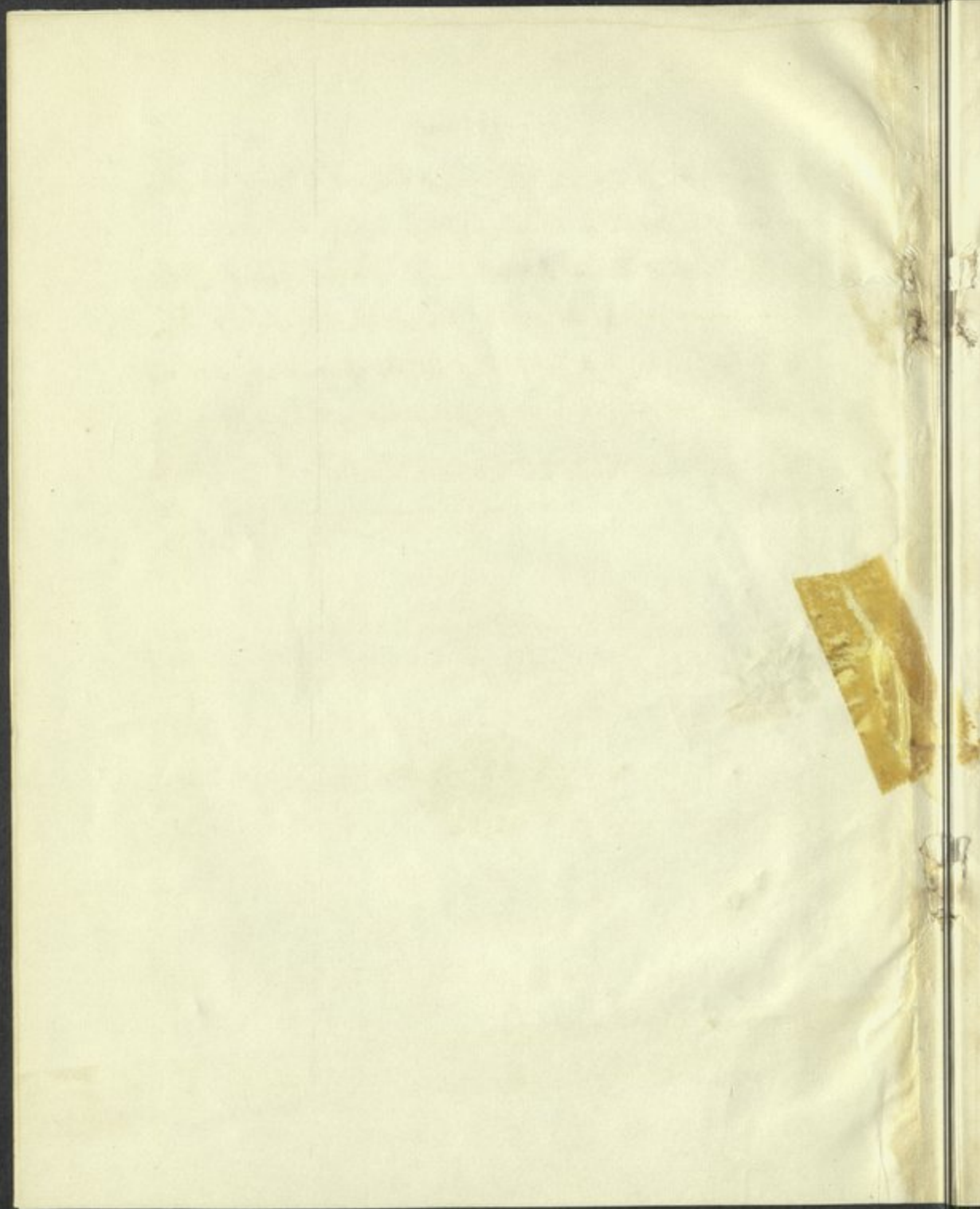
من ذلك بوساطة سيطرتها المطلقة على وسائل العنف والاتصال الفكري بين الافراد .

يؤمن ديوي ، كما سلف ان ذكرنا ، بالاشتراكية الديمقراطية المبنية على اساس التربية الصحيحة ( واولى مستلزماتها تنمية التفكير الحر وتربية المسؤولية الاجتماعية لدى افراد الشعب ) . والتربية السليمة بنظره هي الوسيلة الوحيدة التي باستطاعتها احداث اصلاح جذري شامل في كيان المجتمع وصلات افراده ، وعن طريقها كذلك يتجه سلوك الافراد وانماط تفكيرهم واساليب اتصالاتهم الفكرية والعاطفية اتجاهها يعود بالنفع على الفرد وعلى المجتمع وعلى الانسانية جماعاً . والتربية السليمة ، كما ذكرنا ، تعود الناس على التعاون في سبيل المصلحة العامة وعلى الانصاف بالثقة المتبادلة واحترام الآراء ومناقشتها مناقشة علمية .

والاشتراكية الديمقراطية ، كما سلف ان ذكرنا ، هي الجانب الاقتصادي للديمقراطية البرلمانية . والديمقراطية البرلمانية ( السياسية ) ذات جانبين متلازمين : جانب الحكومة وجانب الشعب . فالحكومة الديمقراطية شرط اساس لتكوين شعب ديمقراطي . والعكس صحيح كذلك . فكأنا هنا ندور في حلقة مفرغة لا سبيل الى الخلاص منها . غير انه يمكن ان يقال من الناحية التاريخية ان الحكومة الديمقراطية تسبق في الوجود الشعب الديمقراطي . وان الشعب بدوره كلما قرب من الديمقراطية في تفكيره وسلوكه كان اكثر قدرة على تقريب حكومته من السير وفق المبادئ الديمقراطية . هذا من جهة ومن جهة ثانية فان الديمقراطية السياسية من الناحية النظرية اسبق في الوجود من الديمقراطية التطبيقية . واذا

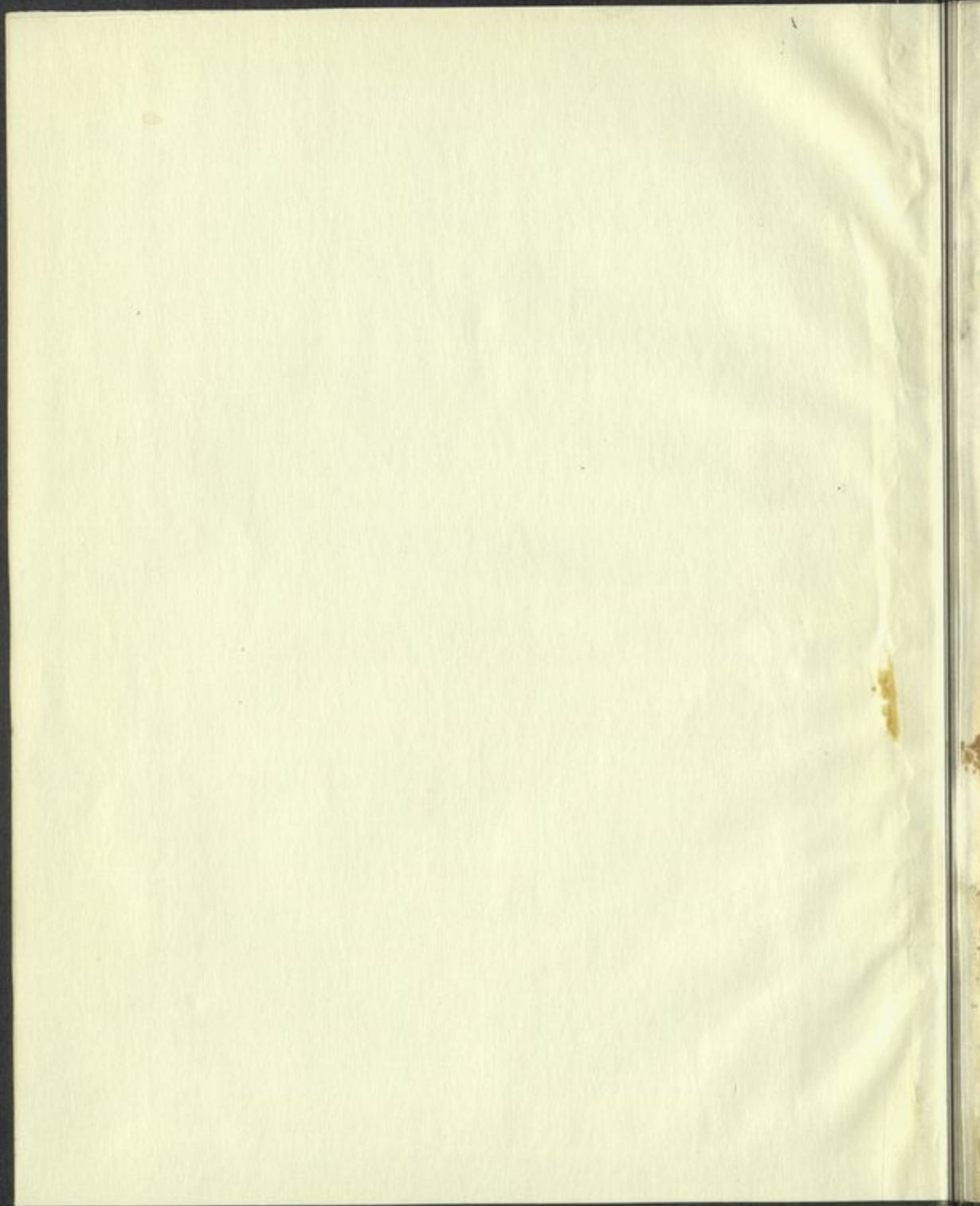
كانت اسس التشرييع ديمقراطية من الناحية النظرية ووجب على المجتمع ان يسعى  
جهد طاقته ، بالوسائل الديمقراطية المتيسرة لديه ، الى اخراجها الى حيز التطبيق  
بادئا بالامم ظاهرا . وهكذا . ونقطة البداية في ذلك كله على رأي جون  
ديوي هي اصلاح البرلمان بطريقة برلمانية ( هذا في حالة وجوده اما في  
حالة انقضاء وجوده فيجب ان تبذل الجهود لاحدائه ولو بشكل ناقص قابل للتعديل ) .  
ومما تجدر الاشارة اليه في هذا الصدد ان ديوي يعتقد بان العالم ( الا في المجتمعات  
الذكتاتورية وهي حالات ناشزة عن السير العام للجنس البشري ) سائر نحو تحقيق  
الديمقراطية من الناحيتين السياسية والاقتصادية .

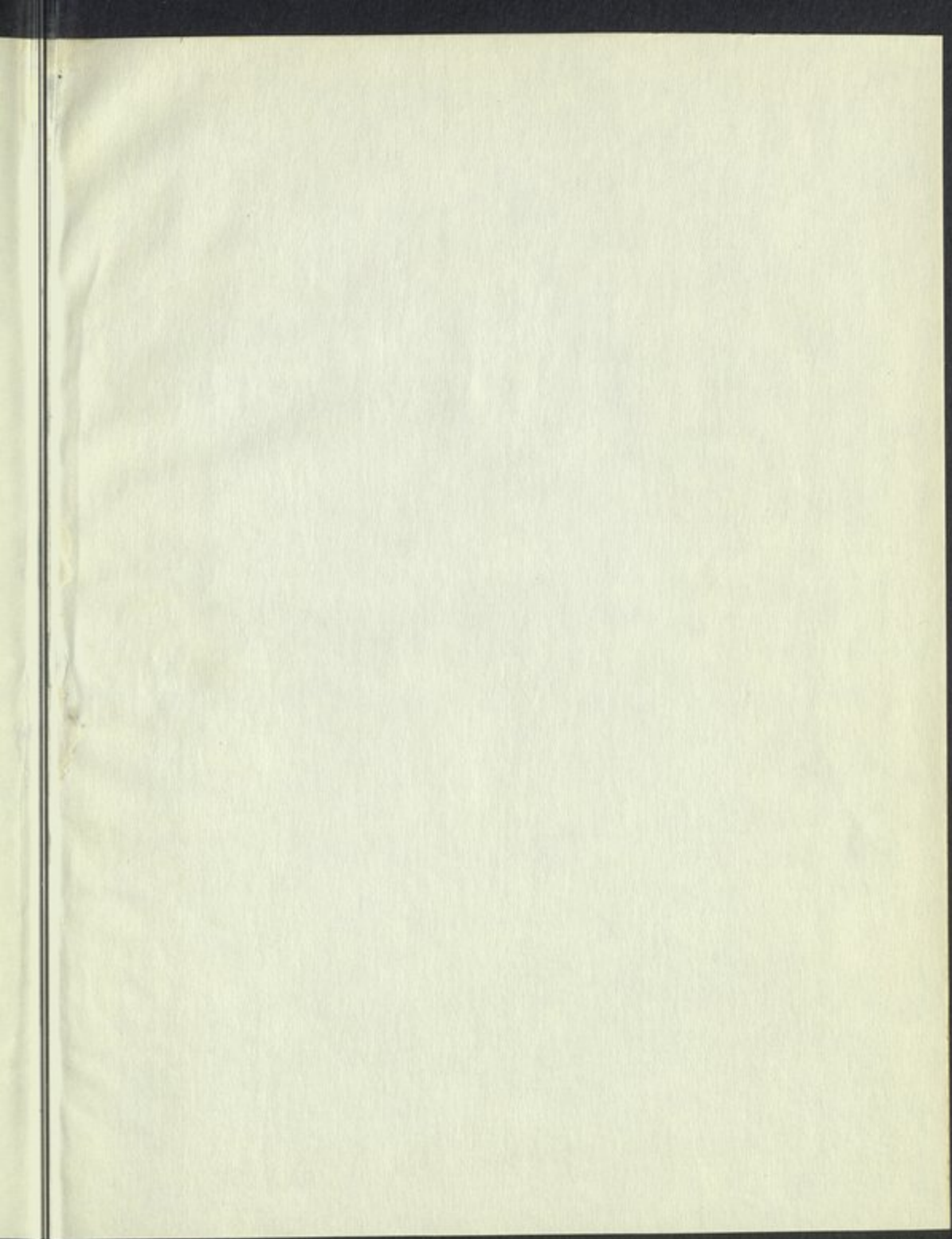




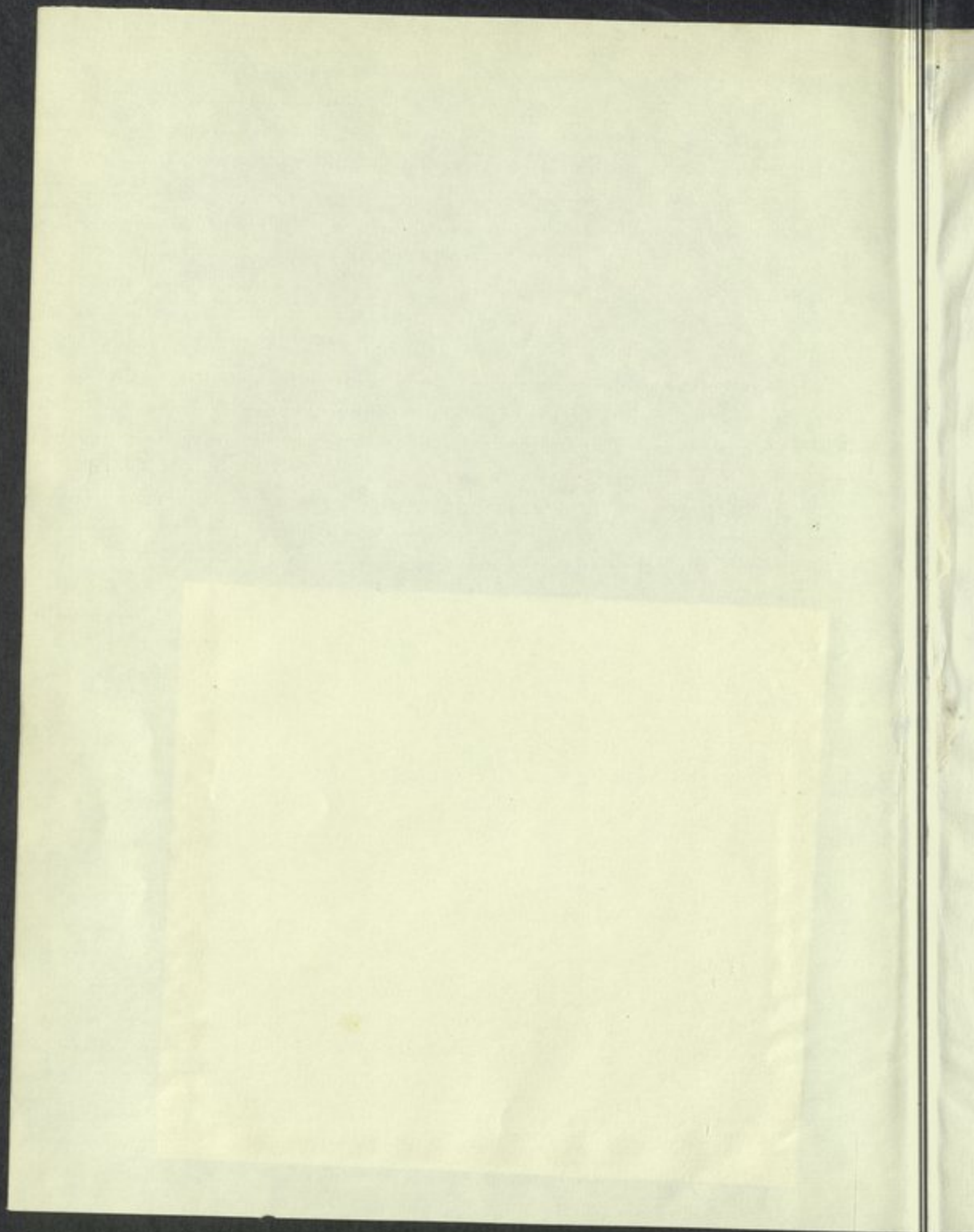
كانت اسلحة القزوع وغير ذلك من الاعياء القوية دعوية عن الاتحاج اناسهم  
 يريدون كفاية في الاموال القوية القوية القوية ان اسرارها ان طر القوية  
 واداء الاموال القوية القوية القوية القوية القوية القوية القوية القوية  
 يريدون في اسرار القوية القوية القوية القوية القوية القوية القوية القوية  
 القوية القوية القوية القوية القوية القوية القوية القوية القوية القوية  
 القوية القوية القوية القوية القوية القوية القوية القوية القوية القوية  
 القوية القوية القوية القوية القوية القوية القوية القوية القوية القوية  
 القوية القوية القوية القوية القوية القوية القوية القوية القوية القوية  
 القوية القوية القوية القوية القوية القوية القوية القوية القوية القوية











191.9  
J23jA

~~9 May 67~~

~~15 FEB 1972~~

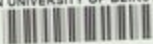


LF:191.9:J23JA:c.1

جعفر، نوری

جون دیوی، حیاتہ و فلسفہ

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01007815

